الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الغربى



أحمد الشنوانى



الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

اسم الكتاب : الخالدون من أعلام الفكر

اسم المؤلف : أحمد الشنوانى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٤٠٤٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 260 - 2

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى - ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٧



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان - تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ - تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ - ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

2

الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الغربى

رولان، رومان

١٨٦٦ ـ ١٩٤٤م
من قادة الفكر الحديث المدافعين عن السلام

قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية كان رومان رولان يطلع علينا بين وقت وآخر من أعماق عزلته فى سويسرا بعيدا عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ لهذا الأديب العظيم بحنين زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال... ذلك أن رومان رولان.. كاتب عالمى الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص، بل يكتب للعالم أجمع ناظرا إليه كأسرة إنسانية واحدة لا تمزقها حدود ولا تفرقها لهجات.. ولا تبذر بذور الحقد والضغينة فى قلوب أعضائها فكرة الأجناس.. لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصريين الى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق.. وكتابه الشهير عن (المهاتماغاندى) يقربه الى قلوبنا نحن الشرقيين لانه وقف فيه موقف المدافع القوى عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم.. كاشفا القناع عن فضائح الغرب وآثامه فى قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف فى وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها فى الحياة.

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد تعلن الحرب العالمية الأولى ـ وكان وقت ذاك فى جنيف بسويسرا ـ حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الإنسانية.. مطالبا فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب البرىء الذى يلعب بعقله محترفو السياسة، مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه فى سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات من صنائع التوسع الاستعمارى.. ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من أبناء

وطنه والصحافة المادية المغرضة التى أثارت عليه الرأى العام على أن ينزل عن حريته فى الفكر والقول.. عن إنسانيته التى هى ثروته الكبرى.

ولد رومان رولان فى بلدة كلاميسى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٦ من أسرة ريفية بورجوازية عريقة القدم. وتعلم أولا فى البلدة التى ولد بها.. ثم انتقل الى باريس عام ١٨٨٦ حيث إلتحق بمدرسة النورمال العليا.. وفى عام ١٨٨٩ نجح فى امتحان الاجريجاسيون فى التاريخ والفلسفة وفى عام ١٨٩٥ حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح الغنائى الحديث) وعين بعد ذلك أستاذا لتاريخ الفن فى مدرسة النورمال العليا، ثم عين استاذا فى السوربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى) وبقى فيها حتى عام ١٩١١.

ابتدأ رومان رولان حياته الادبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية، ولم يكن ذلك منه عفوا بل كان تنفيذا لفكرة مختمرة فى نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحى بالطريقة التى شرحها فى سلسلة مقالاته التى كتبها بعنوان (مسرح الشعب) (١٩٠٠).

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية: سان لويس (١٨٩٧) - والذئاب (١٨٩٨) - وانتصار العقل (١٨٩٩) - ودانتون (١٩٠٠) - و ١٤ يوليو (١٩٠٢) - وانتصار الحرية (١٩١٧) الخ..

وفى مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بأن يكون المسرح متحررا من بورجوازيته أى من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقة الوسطى والغنية ومن وجهة نظرها الخاصة.. ذلك أن الطبقات لا تكون إلا جزءا من الأمة.. فاقتصار الكُتاب المسرحيين عليها فى موضوعاتهم يحرم المسرح من أن يكون معبرا عن روح الشعب الحقيقية وآماله التى لا نلمسها إلا فى الطبقات الفقيرة وهى الكثرة فى كل شعب.. كذلك هاجم رومان رولان المسرح الكلاسيكى والمسرح الرومانتيكى داعيا إلى أن يكون الفن المسرحى صدى لتفكير العصر الذى نعيش فيه، وأن يكون ممهدا الطريق لمجتمع جديد.. وبرغم أن رومان رولان بقى حتى الحرب العالمية الأولى لا يعلن تفكيره السياسى فإن كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية فياضة.. ولقد كان هذا المجتمع الجديد

الذى يرمى إلى التمهيد له هو ذلك الذى تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير.

على أننا ونحن فى انتظار ذلك اليوم المطوى فى ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لتقبل ذلك المجتمع الجديد.. وما ذلك إلا بأن نهيىء الفرد لبلوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الإنسانى حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل.. ولذا نرى رومان رولان (أخلاقيا) يطالب الفرد بأن يكون قوى الخلق عظيم النفس.. حنون القلب.. محبا لكل الناس.. راغبا فى معرفة كل شىء... مستعذبا التضحية فى سبيل الفكرة السامية، فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعا جديدا مترفعا عن الدنايا.. كارها لضروب الرياء الذليل، بعيدا كل البعد عن الأنانية الحيوانية.. ولهذا أيضاً كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد من الفضائل.. فنراه يكتب قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و(دانتون). ثم نراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم بعنوان (حياة بيتهوفن) (١٩٠٣) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) (١٩٠٦) والثالثة عن (حياة تولستوى) (١٩١٣) ثم أخيرا كتابه الذائع الصيت عن (مهاتما غاندى) (١٩٢٦).

ويرى رومان رولان أننا فى عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوربا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة، إذ طغت المادية الوضيعة على الفكر.. إن العالم يختنق فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق العليل.. فلنستنشق نفثات الابطال).. وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى فيهم ـ كما يقول رومان رولان ـ (روح البطولة.. ورجاحة العقل.. والابتسامة الدائمة.. وشهوة النور والمعرفة.. تلك الصفات التى نراها فى فرنسا فى رابليه وموليير وديدرو، وبين الموسيقيين نستطيع أن نقول بيرليوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما).

ولقد أراد رومان رولان أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين فكتب قصة (جان كريستوف) (١٩٠٤ ـ ١٩١٢) التى تقع فى عشرة أجزاء.. وهى اقرب إلى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة وهى ـ كسائر أعمال رولان ـ تفيض بالضمير الحى والحب النبيل والموسيقى الرائعة.

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات فى (جريدة جنيف) بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألمانى هوبتمان.. مستنكرا الوحشية الألمانية التى أحرقت بلدة لوفان البلجيكية.

كان رولان فى مقالاته متجرداً من كل خضوع للوطنية العمياء أو التأثر بتيار الحماسة الذى كان يجرف أمته كما كان يجرف كل الأمم المتحاربة.. ولذا لم يتردد فى السخرية من رجال الفكر والدين الذين خانوا مبادئهم النبيلة فى الوقت الذى كان يمكنهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم فى الحياة..

ولقد ظل رومان رولان يعيش فى سويسرا متخذا إياها وطنا ثانياً له، محافظا كل المحافظة على تفكيره وآرائه التى أثارت عليه الحملات غير عابئ بها، مؤمنا بذلك الإحساس الذى دفعه إلى أن يقول فى أثناء الحرب فى احدى مقالاته تحت عنوان (خطاب الى متهمى).

(إن الوقت الذى يخصصه للرد على خصم ما إنما يعتبر كسرقة من أولئك التعساء.. أولئك السجناء.. من تلك الأسر التى تسعى ونحن فى جنيف أن نمد لها ايدينا).

لقد صبر رومان رولان وتحمل كثيرا من طعنات أعدائه. وكأن الزمن قد أراد أن يثبت براءته من محاباة الفكر الألمانى على حساب الفكر الفرنسى وذلك بظهور النازية فى ألمانيا.. إذ سرعان ما امتشق رومان رولان الحسام لمقاومتها مر المقاومة.. معلنا عداوته لكل نظام أوتوقراطى يمتهن كرامة الشعوب.. مبينا أن الفكر الألمانى - الذى مجده ولا يزال يمجده - إنما هو ذلك الفكر الحر المنادى بالمساواة بين الامم الداعى إلى خير البشرية.. وهو الفكر الذى شردت النازية رجاله من أبناء ألمانيا نفسها بين أرجاء العالم أمثال توماس مان وأنا زيجرس وارنست تولر وغيرهم.. لانهم أبوا أن تحكم بلادهم حكما استبداديا لا حرية فيه.. ولقد كان جزاء رومان رولان نفسه - على عالمية تفكيره ونشاطه المتواصل قبل اعلان الحرب الأخيرة فى محاربة الفاشية وجرائمها - أن ألقى الهتلريون القبض عليه بمجرد غزوهم لفرنسا، ثم أرسلوه إلى معسكرات الاعتقال فى ألمانيا حيث زج به فى شيخوخته بين جدرانها المظلمة مما عجل بموته بعد بضعة أسابيع من تحرير فرنسا بعد أن سجل اسمه بحروف من نور فى صفوف قادة الفكر الحديث.. المدافعين عن السلام.. المحبين لخير الإنسانية وسعادتها.

رينيه لساج، ألان

(١٦٦٨ ـ ١٧٤٧م)

الكاتب المفكر والأديب الفنان

إذا أردنا أن نلخص حياة رينيه لساج فى كلمتين اثنتين قلنا انه «يعمل ليعيش».

ولد ساج فى (سارزو) وهى بلدة صغيرة فى جزيرة (ديوس) فى الثامن من شهر مايو سنة ١٦٦٨. وكان أبوه يدعى الأستاذ (كلود)، ويعمل قاضيا. أما أمه فهى السيدة (جان برينيجا) الزوجة المثالية والأم الحنون.

عندما بلغ ألان السن التى تؤهله لاكتساب العلم، أدخله أبوه كلية (فان) التى يديرها ويرأسها الاستاذ (بروشار) عضو الجمعية اليسوعية وفى سنة ١٦٧٧ ولساج على أعتاب السنة العاشرة من عمره لطمه القدر لطمته الاولى فقد اختطف الموت أمه فى ١١ سبتمبر من هذه السنة. فى ذلك اليوم المشهود رأى أهل سارزو مشهدا مؤثرا، هو مشهد موكب الجنازة المهيب، يتقدمه النعش ويتبعه الأب الوقور والأبن الطفل، وأصدقاء العائلة قاصدين بيعة تلك المدينة الصغيرة للصلاة على جثمان الأم الطيبة تمهيدا لدفنه. وبعد أن تمت مراسيم الدفن رجع الطفل ـ وهو بملابس الحداد ـ إلى فان.

ويعود القدر ـ بعد خمس سنوات ـ فيتذكر لساج الطفل الحزين ويلطمه لطمته الثانية. وتتمثل هذه اللطمة القاسية فى موت الأستاذ سارزو، ولكنه فى هذه المرة يسير بمفرده وقد شخص ببصره إلى الأرض حتى اذا وصل أعد كل شىء، ومهد للقاء الزوج والزوجة أو الأم والأب، ذلك اللقاء الخالد.. فى العالم الآخر.

أخذت ذكريات فان الشاحبة تلاحق بطلنا، وتأخذ بتلابيبه، ولا تترك له ساعة واحدة يخلو فيها إلى نفسه فيشعر بالهدوء والراحة، لقد كانت دائما تذكره

بالراحلين الطيبين، فيتلوى قلبه بالألم الصامت، وتطل الدموع الحبيسة من عينيه وهكذا لم يستطع العيش فى هذه البلدة الصغيرة الهادئة فتركها وفر منها إلى باريس عاصمة وطنه، كان الوالد المتوفى قد ترك لأبنه الوحيد ثروة لا بأس بها لتعاونه على شق طريقه فى الحياة ولكن القدر الذى ناصبه العداء حتى هذه المرحلة من حياته لم يشأ أن يترك له هذه الثروة، ولذلك نرى مجلس الإدارة المختص يحيل هذه الثروة (لجبريل لساج) شقيق المتوفى.

كانت كل ثروة لساج فى رأسه، فهى سنده الوحيد لإعالة زوجه وولده ولذلك نراه يعالج الكتابة منذ العام الاول لزواجه محاولا أن يخرج من محبرته الشرف أو الربح. فابتدأ بترجمة بعض الرسائل فى بلاغه اللغة، واستطاع أن يكون من دراساته وترجماته فى هذا الموضوع مجلدا هزيلاً طبعه له صديقه القديم، وزميله فى الكلية وانشيه. ولكن هذا الكتاب لم يلفت النظر إلى كاتبه وكان نصيبه الكساد فى سوق الأدب فأخذ لساج يفكر فى طريقة أخرى، ووسيلة جديدة توصله إلى ما يريد. وهنا يظهر الاب ليون على المسرح ويلعب دوره فى إرشاد لساج ونصحه بنجاح. فإليه وحده يرجع الفضل فى تعبيد الطريق وإنارته أمام الأديب الناشىء. فنراه يحض لساج على تعلم اللغة الإسبانية حتى يكون فى مقدوره نقل روائع الادب الإسبانى الفنية إلى اللغة الفرنسية ولقد نفذ المشروع بالفعل وإستطاع لساج أن يترجم إلى لغته القومية بعض المقطوعات من الأدب التراجيدى الإسبانى. وأردفها بقصة واحدة ولكن النجاح لم يصادفه فى هذه المحاولة كذلك.

وهكذا استصحبه الفشل، ولازمه كظله، حتى سنة ١٧٠٧. ففى هذه السنة بدأ نجمه ينير فى سماء الأدب الفرنسى. فنراه يقدم قصتين هزليتين «لجماعة التمثيل الكوميدى». الأولى وهى أكبر حجما وعنوانها Doncesar ursin مترجمة عن الأسبانية وقد لقيت نجاحا كبيرا عند تمثيلها فى البلاط. والثانية وعنوانها Cris-pin rival de son maitre ألفها لساج فجاءت تحفة فريدة فى نوعها، ولاقت نجاحا باهرا فى باريس وفى هذه السنة طبع عند (باربين) قصته العظيمة: «الشيطان الأعرج» وهى قصة ذات إطار اسبانى. ولكنها مع ذلك. وهذا هو المهم، فرنسية فى روحها وجوهرها وأسلوبها. هذه القصة عظيمة الشأن، جليلة القدر

من جميع نواحيها فقد دفعت شيخ كتاب فرنسا وفلاسفتها «أناتول فرانس» أن يقول عنها:

«إن كل من يستطيع القراءة يجب أن يقرأ لساج «الشيطان الأعرج» ففى هذا الكتاب نجد طريقة مبتكرة فى رسم الطبيعة الإنسانية وعبقرية فذة فى تحليل العواطف التى تخالج نفس الكائن الحى فى كل بقعة من بقاع هذه الأرض».

لساج الآن فى السابعة والأربعين من عمره، وقد رأيناه يخرج ثلاث تحف أدبية خالدة: لقد حقق ما يمكن أن نسميه «معجزة القصة» لقد أخرج من رأسه عالما جميلا جذابا، صاغه صياغة فنية رائعة، ولكن هل يكفيه هذا؟ لا! يجب أن يخلق عوالم أخرى، ليستطيع هو أن يعيش مع أسرته فى العالم الأرضى، وهكذا نراه يعمل، ويجد فى عمله.. يعمل ليل نهار لكى يخفى عن عينيه ذلك الشبح القبيح الشاحب.. شبح الفقر والعوز.

فيخرج فى سنة ١٧١٧ «رولاند العاشق»، وفى سنة ١٧٢١ Guzhan dalfar-ache وفى سنة ١٧٣٢ «مغامرات مسيو روبير» ولقد كتب لساج معظم هذه الكتب بعد أن تقدمت به السن، وكانت معظمها ترجمات وتصنيفات حتى اعتقد القراء أنه قد أعطى ما عنده، وأنه عاجز بعد ذلك عن الابتكار. أما صحف النقد الأدبية، فقد أخذت تردد هذه النغمة بصيغ مختلفة أن لساج لا يكتب إلا ليعيش من كتاباته، وأنه ليس السيد المسيطر على قلمه.

ظهر بعد ذلك حوالى سنة ١٧٣٤ L' Histoire D' estervanilegonales وفى العام التالى Une journee despaques وفى سنة ١٧٣٦ طبع لساج Le bacheier De-salamanque وفى سنة ١٧٤٠ أخرج كتابه La Valise trouvee.

ومات لساج فى ١٧ نوفمبر سنة ١٧٤٧ بعد حياة كلها عمل شاق مضن، وإنتاج مستمر متواصل.. مضى بريئا كروحه، جميلا وبسيطا كعبقريته، وصلبا كالحاجة نفسها التى ناضلها طوال حياته، ولكنه لم يستطع قهرها والتغلب عليها.

زولا، إميل

١٨٤٠ ـ ١٩٠٢م
من ألمع النجوم التى تألقت فى سماء الأدب العالمى

من ألمع النجوم التى تألقت فى سماء الأدب العالمى، وبلغت مكانة متميزة بين أفذاذ الكتاب، كاتب فرنسا العبقرى «إميل زولا» الذى مازال فنه الرفيع يعيش حيّاً، خالداً، نابضًا فى وجدان العالم، لقد سما «إميل زولا» بإنتاجه إلى قمة من التفوق، لم يبلغها إلا القلة من الأفذاذ، سواء من معاصريه، أو من سبقوه، أو أتوا بعده.

فى عام ١٨٧٤ كان أربعة من الكتاب يجتمعون للعشاء فى قهوة (ريش) بباريس مرة فى الشهر، وكان هؤلاء الأربعة هم: زولا، وفلوبير، وترجنيف، ودوديه، وكان هذا الاجتماع الشهرى ـ أو عشاء الكتاب المبغضين كما كان يدعى ـ قد صار موسماً لتبادل الأفكار العظيمة، والحديث الشهى، والطعام الأشهى.

يكتب زولا فى ذلك «كنا جميعاً من أهل البطنة، أما أنا فكنت بحاجة إلى البطنة. إذ كان علىّ أن أملأ معدة قد طال عليها الخواء». وكانوا يجلسون إلى المائدة فى السابعة، ويغادرون المطعم فى الثانية عشرة، لا ليذهبوا الى منازلهم. فعليهم أولا أن يهيموا فى الطرقات حتى الساعة الثانية، أو الثالثة أو الرابعة صباحا يتذاكرون خططهم، ويتحدثون عن قصصهم التالية، ويمزقون العالم ليعيدوا تأليفه كما تهوى قلوبهم».

وينصرف ترجنيف أول منصرف، ويليه دوديه ثم يسير زولا ليصحب الأب فلوبير إلى منزل الأخير فى شارع موريلو، فإذا بلغا الباب قبل فلوبير زولا من كلا خديه، وافترق الصاحبان بعد أن يقول الأستاذ كلمة لحواريه «كل شىء قد قيل أمامنا يا بنى، ولم يبق لنا إلا أن نردد ما قيل. وكل ما علينا أن نقوله فى ألفاظ أجمل».

وعاد زولا ليردد ما قيل فى ألفاظ أجمل، بل ليقول أشياء جديدة فى ألفاظ قدر لها أن تتجاوب فى كل بقاع العالم.

وكلمة (زولا) معناها كتلة من الأرض، وكان هذا الاسم يصدق على إميل، فهو ابن أمنا الأرض، يحب كل مخلوق عادى خرج من صميمها.

وكان إنسانا تجرى فى عروقه دماء مختلطة.. تحوى قليلا من كل ما هو طيب، فجدته أغريقية، وأمه فرنسية، وأبوه إيطالى.

كان فرانسيسكو زولا مهندسا مدنيا لديه دائما الأفكار الصالحة، يؤيدها رجال غير صالحين. وقد تمكن آخر الأمر من استشراف النجاح حين عهد إليه حكام اكس بحفر قناة تجلب الماء من الجبال إلى المدينة، لكنه لم يستطع قط أن يجاوز الاستشراف، ومات عام ١٨٤٧ قبل أن يبدأ العمل فى حفر القناة تاركا السيدة زولا بابنها إميل، وكان فى السابعة، وليس لديها شىء تعوله به غير حلم خائب.

فأمضى خمس سنوات فى تعلم متقطع، يتخللها كثير من رحلات الاسترخاء إلى شاطئ التورز ثم بعث بالأفاق الدميم الصغير إلى تعليم صحيح فى كلية اكس.

كان زولا الصغير (وهو فى كلية إكس) كاتبا مجيدا. فهو فى عامه الثالث عشر يكتب قصة تمثيلية ذات ثلاثة فصول ـ ولكنه تلميذ متخلف ـ فإذا ترك كلية إكس إلى مدرسة المعلمين العليا بباريس لم يكن قد تحسنت حاله فهو ينقطع عن الدراسة، ويرفض أن يردد ما حفظ متى طلب منه ذلك، ويقف وقته كله على قرض الشعر ومطالعة رابليه، ومنتانى، وهيجو، وموسيه، ونال فى الامتحان النهائى صفرا فى الأدب!!.

وشاء حسن الحظ أن ينقذه من الوقوع الفجائى صديق قديم لوالده، وكان يدعى لبوت. فقد عينه كاتبا فى مرفأ نابليون وهو عمل يكاد يفى بغذاء جسمه لكنه لا يقدم شيئا لغذاء روحه.

ثم يلتئم شمله بسيزان، وكان قد تبعه إلى باريس ويسكنان بعض الغرف معا ويحلمان معا، ويقتلهما الجوع معا. النبى الجديد للبيان، والنبى الجديد للتصوير، فى عصر لا يحفل فيه أحد بالأنبياء، فكان زولا يكتب القصائد وسيزان يلون

الصور، ولا يجد أيهما جمهورا يقدر بضاعته، ولو أردنا الحق لقلنا إن أحدا منهما لم يكن يستحق التفات الجمهور إليه حتى ذلك الوقت. فإن لهيب الإلهام لم يمسس بعد ذلك الوقود الذى صنعته آلامهما.

(لكنى سأكتب حتما ذلك الأثر العظيم يوما ما. والأيام بيننا).

وفى هذه الأثناء كان يذوق مزيدا من المرارة ومزيدا من اليأس، ومزيدا من العوز، وبلغ الجوع منه مبلغه فى شتاء عام ١٨٦١ - ١٨٦٢م.

وكانت نجاته على يد صديق لأبيه. فعين هذه المرة عاملا للف الكتب وحزمها فى دار للنشر يملكها هاشيت وشركاؤه. وظل شهورا عدة يلف الكتب فى قسم الشحن البحرى، ويكتب إذا فرغ تعليقات على هذه الكتب، يتسلى بذلك ويستمتع.

وذات يوم بغته صاحب الدار وهو يمارس هوايته العابثة. فقرأ التعقيب وقال «قد تكون يازولا متراخيا فى الشحن، لكنك فى النسخ أقل سوءا. فلنجربك فى قسم الإعلان».

وكانت هذه الترقية نعمة ساقها الله إلى زولا. لقد وجد آخر الأمر فرصة لكسب عيشه بقلمه.

فإذا شحذ قلمه، جعل يستعمله مثابرا فى النهار والليل، فلا يفرغ من عمله الرتيب فى المكتب حتى يذهب الى المنزل - وكان يساكن أمه فيه وقتئذ، فيصيب عشاء وافرا ثم يجلس إلى كتابة غير رتيبة.

وكان قد انصرف عن الشعر إلى القصة وأخذ يعرض قصصه القصيرة، فسعد بأن رأى بعضها منشورا فى الجرائد المحلية. ثم جمع قدرا من هذه القصص وعرضها، لا على ناشره بل على ناشر آخر أقل منه تزمتا هو (هتزل ولكروا).

وكان فى أوائل الربيع من عام ١٨٦٤، حين نظر إليه (لكروا) من خلف مكتبه. فرأى صبيا بدينا مرتبكا شعره منفوش وأنفه أفطس كأنه يتحدى.

«سيدى، أتتفضل بقراءة هذه القصص، ولو قصة واحدة منها فقط. أرجوك أن تقرأ منها أى واحدة شئت. فسترى لتوك أنى صاحب كفاية».

فطرب (لكروا) لما سمع من توكيد الصبى، وان كان قد سمعه فى نغم بالغ التهيب. فوعد زولا بقراءة المخطوط. وانتظر زولا عدة أسابيع بدت له فى قلقه كأنها بضع سنوات، ثم قبل الناشرون المخطوط.

قال زولا فى بهجة «لقد كانت المعركة قصيرة: إنى الآن على عتبة الحياة، فليس على إلا أن أسير قدما من هذه النقطة وأن أتابع السير». وبعد نباهة الذكر، جاء الحب والخيال.

لقد صار زولا صاحب بيت مستقر وشهرة تنمو وتكبر فى عمله. وكان معنيا بالأدب الواقعى من طراز قصة (مدام بوفارى) لفلوبير، فأراد أن يكون كذلك عينا بصيرة تكشف عن أمراض المجتمع كى يعالج جراحه. فكتب عددا من القصص الواقعية، وهو يفضل أن يسميها بالطبيعية. وقد قرئت القصص على نطاق واسع، وأهين زولا على نطاق واسع كذلك «لقد سقطت من عين أهل الوقار».

وظل الجمهور يشتمه ويقرأه، ويصب فى جيبه المال. فقد صار فى دوائر المثقفين غير الوقورين، علما ذائع الشهرة إلى حد ما، حتى لكأنه الأسد كما يقولون، أو بالأحرى: كأنه الدب، بوجهه هذا الأشعث وبطنه الضخمة، وذوقه الخشن غير المصقول.

وكتب سلسلة مقالات فى مدح (سيزان) وغيره من الفنانين المحدثين المزدرين وإن كان يعترف بأنه لا يحسن تمييز اللون الأسود من اللون الأبيض.

وقد أثار حول آرائه المجنونة عاصفة من الخصومات. ويستمرئ جنونه وشهرته.. فكل هذا يعبد له الطريق إلى مشروعه الضخم، وهو تأليف الإنجيل الجديد الذى كان يرسم خطته طيلة سنوات عدة، والذى يرسم صورة الإنسانية كاملة غير مزدانة، كما تتضح من دراسة الأجيال المتعاقبة من أسرة واحدة. وانها لملحمة من ملاحم الاتهام ستكون فى الوقت ذاته إنجيلا للأمل. وحين يكتب زولا ملحمة الاتهام هذه فى عشرة مجلدات، يصبح على حين فجأة تلميذا وناقدا ومعلما لبنى جنسه.

وأخيرا بعد كد يظل عدة أشهر، ربما عدة سنوات، يولد أثر من آثار الأدب.

وقد لبث زولا خمسة وعشرين عاما، يخرج فيها القصة تلو القصة، وكلها عن «أبناء روجون ماكار»، حتى بلغت حلقات هذه السلسلة عشرين قصة، ذلك إذا أخرجنا من العدد قصصاً سبقت وقصصاً لحقت مما له علاقة بعيدة بهذه الأسرة أيضاً؛ وبدأت السلسلة بقصة «أسرة روجون ونصيبها من الحياة» ومن حلقاتها «جوف باريس» التى وصفت حركة التجارة فى أسواق العاصمة وهو « الحانة» التى وصف فيها مشارب باريس و«نانا» التى وصف فيها أوكار الفجور فى باريس و«حياة عائلية» يصف فيها الطبقة الوسطى فى حياتها المنزلية و «سبيل سعادة السيدات» يصف فيها الحوانيت، و«الوحش البشرى» يصف فيها السكك الحديدية، و«من الجذور» يصف فيها المناجم، و«الأرض» يصف فيها حياة المزارعين، و«الآية الفنية» يصف فيها حياة رجال الفن، و«المال» يصف فيها العلاقات المالية، و«الانهيار» يصف فيها نكبة الحرب مع ألمانيا سنة ١٨٧٠ و«الحلم» يصف فيها الكنيسة وما يتبعها من مؤسسات؛ وفى كل هذه القصص نرى «زولا» يمزج قليلا من محصول ملاحظته الخاصة بكثير جداً مما يستقيه من الكتب والوثائق، لأن القصة عنده نتيجة تحليل علمى قبل أن تكون أى شىء آخر، ولابد لنا أن نذكر أنه أخرج فضلا عن هذه السلسلة المتتابعة الحلقات من القصص، مجموعة من الحكايات القصيرة بدأ بها حياته الأدبية، وأطلق عليها «حكايات إلى نينون» وأخذ يتابع إخراج مثل هذه الحكايات آناً بعد آن، تحت هذا العنوان وغيره، ولعل هذا الضرب من إنشائه هو خير إنتاجه جميعاً لو قيس الإنشاء بمقاييس الأدب الخالص وحدها.



سافو

٦١٠ ـ ٥٨٠ ق.م

أشهر شاعرات اليونان

فى أعلى المدن الأيونية الاثنتى عشرة تقوم المدن الأيولية الاثنتا عشرة فى الأرض القارية التى يسكنها الأيوليون والاخيون الذين وفدوا من شمالى بلاد اليونان، بعد أن افتتحت آسيا الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة وكانت كثرة هذه المدن صغيرة وكان شأنها فى التاريخ صغيرا كذلك غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية فى الثروة والرقى والعبقرية الأدبية وكانت متلينى أكبر مدائنها الخمس وكانت جنة حقة من البساتين فى ثرائها العظيم الذى لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس وساموس وافسوس وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء فى أواخر القرن السابع وانتزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس الشجاع الفظ حاكما بأمره مدة عشر سنين ووضعوا فى يديه من القوة مثل ما كان فى يدى صديقه وزميله الحكيم صولون وأخذ الأشراف يأتمرون ليستعيدوا سلطانهم ولكن بثاكوس رد كيدهم فى نحرهم ونفى زعماءهم ومنهم ألكيوس وسافو، فأخرجهم أولا من متلينى ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر.

وكان ألفيوس ثائرا صخابا، خلط السياسة بالشعر فكانت كل قصيدة من قصائده مثارا للفتنة والثورة وكان شريف المحتد وهاجم بتاكوس بكل ما فى اللغة من بذاءة استحق عليها النفى من البلاد وقد اصطنع هو بحوره الشعرية التى أسماها من جاءوا بعد «ألفيوس»، ويقال لنا إن كل مقطوعة فى شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها.

ولقد كان من سوء حظه ـ وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر رحب ولم يلق

بالا إليها ـ أن كانت بين معاصريه امرأة هى أشهر نساء اليونان أجمعين ونعنى بها سافو وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن تموت ومن أقوال استبايوس فيها: «وحدث مرة فى مجلس شراب أن أخذ اجزستيديس ابن أخى صولون يغنى أغنية من أغانى سافو أعجب بها عمه إعجابا لم يسعه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ولما سأله أحد الحاضرين لم يطلب هذا الطلب؟ أجاب بقوله: «انى أريد أن أتعلمها ثم أموت»، وكان سقراط ـ ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه ـ يسميها «الجميلة» وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها:

يقولون إن ربات الشعر تسع ألا ما أكثر غباءهم.

فليعلموا أن سافو اللسبوسية هى العاشرة.

ويقول استرابون: «كانت سافو امرأة فذة عجيبة لأنى لا أعرف أن قد وجدت فى جميع العصور التى وصل الينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ فى قرض الشعر». وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ «الشاعر» فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ «الشاعرة» فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم.

وقد ولدت بسافا كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الأيولية الرقيقة فى أرسوس من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق. م، ولكن أسرتها انتقلت الى متلينى وهى لا تزال فى المهد وكانت فى عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمروا ببثاكوس والذين نفاهم إلى مدينة بيرا، ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن فى الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة وبقول الشعر ولم تشتهر بجمالها، فقد كانت صغيرة الجسم ضعيفة البنية وكان شعرها وعيناها وبشرتها أشد سوادا مما يحبه اليونان، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقتها ورقتها ودماثة أخلاقها وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من «السفسطة» درجة تخفى رقتها وحنانها ومما قالته هى عن نفسها «ان قلبى كقلب الطفل» ويستدل من شعرها على أنها كانت ذات عواطف جياشة وأن ألفاظها كما يقول بلوتارخ «كانت تمتزج باللهب»، وكانت مرهفة الحس إلى حد ما وكان هذا سببا فى الحد من حماسة عقلها وقد وصفها أثيس تلميذها المقرب إليها بأنها

كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية وتتوج رأسها بالزهر وما من شك فى أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحة وجاذبية وشاهد ذلك أن ألفيوس الذى نفى معها الى بيرا أرسل إليها مسرعا رسالة عشق وهيام قال فيها: «أى سافو ياذات التاج القرنفلى يا طاهرة يا ذات الابتسامة الحلوة أريد أن أحدثك فى أمر ولكن الحياء يمنعنى أن انطق به» فكان جوابها أقل غموضا من اقتراحه «لو كانت رغبتك طيبة ونبيلة ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو دنىء لما أسدل الحياء على عينيك غشاوة ولأفصحت عن رغبتك الطيبة العادلة» وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها فى قصائده وأناشيده ولكننا لا نعرف أن صلة غير هذه الصلة عقدت أواصرها بينهما ولعلهما قد افترقا حين نفيت سافو للمرة الثانية وكان سبب نفيها أن بثاكوس قد خشى قلمها بعد نضوجه. فنفاها فى هذه المرة إلى صقلية وكان ذلك فى أغلب الظن عام ٥٩١ وهى فى سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنسانا وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من اندروس وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول: «لى ابنة صغيرة شبيهة بالزهرة الذهبية هى كليس قرة عينى التى لا أفرط فيها ولو أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة» وما من شك فى أنها كان فى وسعها أن ترفض ما فى ليديا من ثروة لأنها ورثت زوجها بعد وفاته المبكرة وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت فى منافاها خمس سنين وأضحت زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية فى الجزيرة وإنا لنلمح بهرج الترف فى إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول: «أما أنا فليكن فى علمكم أنى أحب الحياة اللينة وأرى أن النور والجمال مما تشتهيه النفس». وأضحت وثيقة الصلة بأخيها الأصغر كركسوس شديدة التعلق به وغضبت أشد الغضب حين شغف فى إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى دريكا ثم تزوجها ضاربا بتوسلات أخته عرض الحائط.

وفى هذا الوقت نفسه أحست سافو بنار الحب تشتعل فى قلبها ذلك أن نفسها تاقت الى الحياة النشيطة فأنشأت مدرسة للفتيات تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص كانت أولى «مدارس صقل» الفتيات فى التاريخ كله. ولم تكن تسمى الطلبات فيها تلميذات بل كانت تسميهن الرفيقات.كانت سافو وفتياتها

يحرصن دائما على الاحتفال بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها أعنى إلهات الرشاقة وربات الفنون وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة فقد كن يؤهلن أنفسهن للزواج وكان عندما يأتين تكتب لهن سافو أغنيات الزفاف وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن ولكن حتى يحين هذا اليوم فقد كن يعشن حياة منعزلة بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر وأفكارهن وعواطفهن كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو وقد أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من توجيهها الوجهة الصالحة بأن تسللت فى نفوسهن انجذابها نحوهن وما بقى لنا من أشعارها يبين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حياة فتياتها وكم كانت تبادلهن الحب والمودة وكيف استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن.

قد لا يستطع البعض من جهة النظر الحديثة تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديرا صحيحا فلم تكن العقيدة فيها شعورا ذاتياً بالجمال بل عبادة حقيقة لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان اذ كانت أفروديت إلهة موجودة فى نظر سافو وفتياتها، وعبادتهن لها كانت تفرض عليها اتخاذ موقف معين تجاه الحياة وكانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ومن ثم فان جمال من يعبدونها أمر معروف به وجدير بالتكريم، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على أنه سبيل للحب والإخلاص. إن عقيدة الجمال هذه غالبا ما كان يساء توجيهها ولكن يبدو أنها كانت تطورا طبيعيا فى ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتى من الآلهة، ومما لا شك فيه ان مثل هذه المجتمعات فى أسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات مثل ما كان يحدث فى الاحتفال بأعياد الإلهة هيرا فى أوليمبيا، أما فى ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلا أبسط وأكثر اتصالا بالآلهة فلم يكن النشاط الأساسى فى الرياضة بل فى الغناء. كانت أفروديت تكرم ربات الفنون وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب الأغانى وكانت سافو تدرب الفتيات المكرمات لافروديت على الغناء.

كان شعر سافو يُعنى أساسا بالحياة فى جماعتها فقد كانت تكتب فى مناسبات محدودة ولأفراد معينين وكانت أشعارها تعكس مشاعرها نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة. ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن

يحاول أولا أن يعرف الظروف التى كتبت فيها هذه القصيدة. قد يكون صوابا وهو أمر سهل ميسور تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيرا وهذا ما يجب أن ترى بوضوح فى القصيدة الأولى من كتابها الأول وهى عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت: «أى أفروديت الخالدة يا ذات العرش الوضاء يابنت زيوس يا مدبرة الأمور اليك أتقدم بالضراعة: أى ملكتى لا تفعمى قلبى بالآلم والأحزان بل أقبلى إلى هنا أن كنت قد اسمتعت من قبل الى صوتى ذات مرة عن بعد وأنت تطلبين من عل ان كنت قد تركت بيت أبيك الذهبى وأقبلت بعد أن ملكت زمام عربتك. ان بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضرتاك فوق الأرض المعتمة وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء وسرعان ما وصلتا وأنت أيتها المباركة والابتسامة تعلو وجهك الخالد قد سألت عم ألم بى ولماذا أدعوك وماذا فى قلبى الثائر أريده أن يحدث أكثر من أى شىء آخر: «من تلك التى تودين الآن أن يوقعها الإغراء فى حبك؟ من تلك التى تلحق بك الأذى أى سافو؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن فإنها سرعان ما سوف تسعى إليك وإذا كانت لا تتقبل منك هداياك فانها مع ذلك سوف تعطيك وإذا كانت لا تحبك فإنها سوف تقع سريعا فى هواك رضيت أم أبيت». «تعالى إلى الآن كما فعلت من قبل وخلصينى من الهموم القاسية وحققى كل ما يتطلع إليه قلبى حققى وكونى حليفتى فى المعركة».

أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقا عليه من جميع الرواة والنقاد فقد رفعها البعض إلى مصاف الآلهة وأعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسع، وأشعارها فى رأى البعض الآخر تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة كما يفوق شعر هوميروس بل كل شعر جاء على لسان رجل، وكان من عادة سقراط أن يطلق عليها اسم «سافو الجميلة» أثناء حديثه عنها رغم أنها كانت ضئيلة وذلك لجمال أشعارها وروعها، تلك الأشعار التى تمنى سولون الحكيم ذات يوم ان يحفظ بعضا منه ثم لتأت المنية.

لم يلعب الرجال إلا دورا ضئيلا فى حياة سافو ومن ثم لم يأت لهم ذكر فى أشعارها إلا نادرا فقد جاء ذكر لأخيها خاراكسوس فى بعض الأشعار وقد حدثنا

هيرودوت عن القصة التى أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار. رحل خاراكسوس إلى ناو كراتيس المستعمرة اليونانية فى دلتا النيل بمصر وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق عليها اسم رودوبيس ووقع فى غرامها وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها وعندما عاد الى وطنه عنفته أخته سافو على تصرفه هذا فى إحدى قصائدها.

ويحدثنا أرسطو بأن ألكايوس هو الشخص الذى كتبت له سافو تقول:

«اذا كنت ترغب فيما هو عف ونبيل واذا كان لسانك لا يهفو إلى قول ما هو سيئ فلن يملأ الحياء عينيك بل ستتحدث عنه بحكمة».

وذلك ردا على أشعار لألكايوس يقول فيها:

«أى سافو الطاهرة يا ذات الخصل البنفسجية والابتسامة العذبة بنفسى كلام أود لو أقوله لك ولكن الحياء يمنعنى».

وربما جاء ذكر لزوجها فى بعض الأشعار المفقودة.

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان يتصل بحياتها الخاصة إلا أن هناك بعض الشذرات التى لا علاقة لها بهذه الحياة.

ومن شعرها: «أن من يبدو جميلا فهو جميل المظهر ولكن الفاضل سرعان ما يكون جميلا أيضا».

«إن الثراء بلا فضيلة ليس رفيقا مأمون الجانب ولكنهما لو اجتمعا معا يكونان قمة الحظ السعيد».

«ان الموت بلاء هكذا يعتقد الآلهة على الأقل وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد».

هذه هى سافو وهذه هى بعض الشذرات التى وصلتنا من أعمالها التى يقال انها كانت تملأ تسعة كتب ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفسها وفنها وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة ومازالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التى كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة. ومن ثم فهى تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبتها الطبيعة حتى الآن فإن ذوقها السليم وصدقها المتناهى فى التعبير وخيالها البديع وقوة عاطفتها لهى مميزات وهبتها لها إلهات الفنون وربات الرشاقة كما يقولون فجعلن منها شخصية خارقة تفوق مستوى البشر ولذا نراها قد كرست حياتها وفنها لهن، كما أن أشعارها تفوح دائما برائحة عبير وحيهن.

سبنسر، أدمند

١٥٥٢ ـ ١٥٩٩م

من أهم رجال الأدب فى إنجلترا

هو بغير شك أعظم الشعراء فى عهد اليصابات ـ إذا استثنينا كُتاب المسرحية ـ حتى جاز «لشارلز لام» أن يسميه «شاعر الشعراء»، فقد كان عميق الأثر فى الشعراء من بعده، واعترفوا له جميعا بالفضل، فقال فيه «فلِتْشَر»:

هو الذى أرضعته ربات الفن والجمال جميعاً.

وقال «درِيْدِنْ»: لقد كشف للشعر عن منجم خصيب.

وقال «تُومْسُنْ»: هو ابن أنجبه «الخيالُ» طروبا.

ويصوره «وردزورث» بقوله: سبنسر الحبيب، إنه يشق طريقه فى سمائه الغائمة.

فى فتنة القمر، وفى خَطْوه الوئيد.

ويعترف «شلى» بالجميل فيقول:

لله شيكسبير وسدنى وسبنسر وسائر الشعراء

الذين جعلوا من بلادنا جزيرة مباركة.

ويطرب «كيتس» لإيقاع ألفاظه فيقول:

إن النبرات السبنسرية تنساب فى يُسرٍ.

وتمضى مرفرفة كما تفعل الأطيار فوق بحار الصيف..

ويقول فى شعره «تِنِسُنْ»

تلك القباب المتناغمة التى ملأت.

أياماً رحيبة فى عهد اليصابات العظيمة.

لا تزال إلى اليوم ترنُّ بأصدائها.

وهكذا كلما جاء شاعر فى إنجلترا، وتلفت فوجد هذا المعين الدافق الفياض، لم يسعه إلا أن ينطق معترفا بالجميل.

ولد «شاعر الشعراء» فى لندن التى شهدت مولد كثير من أعلام الأدباء؛ وكان أبوه خياطا، فأرسله إلى مدرسة تتعهد أبناء الطائفة، ومنها أرسل إلى «كيمبردج» يتلقى العلم فيها بأجر زهيد نظير خدمات يؤديها، وهنالك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين «جبريل هارفى» الناقد المشهور فى ذلك العهد، ولما أتم سبنسر دراسته الجامعية، قصد إلى شمالى انجلترا يقضى بين ربوعه زمنا، ولعله أراد زيارة ذويه فى لانكشير، فصادف فتاة هام بحبها، تدعى «روزالنْد»، ولم يوفَّق إلى خِطْبتها فكان لذلك رجَّةٌ عنيفة فى نفسه، لا يبعد أن تكون إرهاصا لشاعريته، ولم يكد يعود من ربوع الشمال حتى قدمه صديقه «هارفى» إلى «سير فِلِبْ سدنى» فنشأت بينهما صداقة قوية، هيأت له أن يتصل بعم عظيم لسدنى، هو «إيرل لِسْتَرْ» الذى ما لبث أن ضَمَّ الشاعر إلى حاشيته، ورحب شاعرنا بهذه الفرصة السانحة لعلها تعرج به إلى ذروة المجد، ولم يلبث سبنسر أن أخرج «حكاية الأم «هَبَرْدْ» - أخرجها فى صورة أولية ثم أدخل عليها تعديلاً فيما بعد - وأراد بها أن يؤيد لسْتَرْ بأن يبين مازَلَّتْ فيه الملكة من ضلال، قائلاً عن «لسْتَر» إنه الرجل الذى يستطيع أن ينقذ البلاد ومليكة البلاد جميعاً؛ لكن الشاعر قد أسرف فى سخريته فى هذه القصيدة، فما نفع أميره ولا أنتفع، ولبثت قصيدته ما يربى على عشر سنوات لا تجد سبيلها إلى النشر.

ولم تكن «حكاية الأم هبرد» أول ما أنتج، فقد كان أنشأ وهو فى عامه السابع عشر - أيام أن كان طالباً - خمس عشرة مقطوعة شعرية قدمها إلى أديب جاء هاربا من هولنده ومعه مجموعة من شعره كتبها بالهولندية، ونشر لها ترجمة إنجليزية، فأراد شاعرنا سبنسر أن يضيف مقطوعاته إلى هذا الكتاب، ومعها قصائد أخرى ترجمها عن «بترارك» الشاعر الإيطالى، و«دى بلاى» الشاعر الفرنسى، وفى صدر شبابه أيضاً كتب سبنسر تسع ملاه فقدت كلها، فكانت

خسارة جسيمة على الأدب.

وفى ١٥٧٩ ظهرت لسبنسر أولى خرائده، وهى قصيدة «تقويم الراعى» التى أهداها إلى صديقه «سير فلب سدنى»، وإنها لتعد بمثابة الفجر الذى إذا ما بلغت شمسه الضحى كان لنا شيكسبير العظيم.

و«تقويم الراعى» من الشعر الريفى، وهو من الصور الأدبية الكثيرة التى دخلت انجلترا فى عصر النهضة لاتصالها بالشعراء الإيطاليين، فقد كان «بترارك» فى القرن الرابع عشر قد نسج فى هذا الشعر الريفى على منوال سلفه «فيرجيل» وكان هذا قد تأثر خَطْوَ «ثيوقريطس»، ثم ازداد الشعر الريفى شيوعا فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر، وكان فى طليعة منشئيه «جون بابْتِسْت سبانيولى» الذى يعرف عادة باسم «مانْتُوان»، وكثر كُتاب هذا الضرب من الشعر فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، فكان منهم فى إيطاليا «سانازارو»، وفى فرنسا «مارو» الذى أعجب به سبنسر فترجمه إلى الإنجليزية واتخذه مثلا يحتذيه.

سافر شاعرنا عام ١٥٨٠ إلى أيرلنده التى كانت يومئذ قد امتشقت حسامها فى وجه حكامها من الإنجليز، وإنما سافر كاتما لسر «لورد جراى». ومنذ ذلك الحين أقام سبنسر معظم أيامه فى ايرلندة، وكان لتلك البلاد أثر واضح فيما أنتج بعد من نثر وشعر، فقد كتب «عَرْض للحالة القائمة فى ايرلندة» وهى رسالة نثرية يصف فيها حالة البؤس الشديد التى غشيت تلك البلاد، فبرع أيما براعة فى تصوير الدمار الشامل الذى أحدثه السيف والنار، وفى تصوير المجاعة المخيفة التى أعقبت ذلك الدمار، والعجيب أن الشاعر لم يقف فى جانب الشعب المهضوم المهزوم، فقد كانت الأراضى الأيرلندية قد صودرت وقسمت بين مستعمرين من الإنجليز، وكان سبنسر ممن ظفر بنصيب من تلك الأراضى، لهذا رأى الحرب على أنها مظهر لمبادئ الفروسية العالية، وجهاد فى سبيل الثقافة والتنوير العقلى، وكفاح من أجل الديانة الحقة يصرع الهمجية والجهل، ويستأصل العقيدة البابوية، وكما ترى هذه الآثار فى رسالته النثرية، تراها فى وضوح فى قصيدته «ملكة الجن»

ففى نفس العام الذى انتقل فيه الشاعر إلى ايرلندة، قدم إلى صديقه «هارفى» هيكلا لقصيدة ينوى صياغتها عن «ملكة الجن»؛ ولم يكد يستقر فى

ايرلندة حتى أخذ فى قرضها؛ وحدث بعد تسع سنين من ذلك التاريخ أن وَهَنَتْ صلات الود قليلا بين الملكة اليصابات وبين «سير وولتر رالى»، فارتحل «رالى» إلى ايرلندة وقصد إلى زيارة سبنسر، فأطلعه الشاعر على أجزاء ثلاثة أتمها من القصيدة،فأعجب بها «رالى» إعجاباً شديداً واستصحب الشاعر وشعره إلى انجلترا، حيث قدمه إلى القصر - وكانت هذه هى المرة الثانية التى يتصل فيها الشاعر بالقصر؛ ولم يمض عامان حتى طبعت تلك الأجزاء الثلاثة من «ملكة الجن»، وأمَّلَ الشاعرُ أن يرقى فى مناصب القصر.

وفى عام ١٥٩٥ ظهرت مجموعة المقطوعات وقصيدة إبثالاميوس، فلما كان العام الذى يليه أخرج الشاعر «الترانيم الأربع» و«بروثالاميون».

ولعل أعظم ما أبدعه الشاعر فى هذه آيته الخالدة «ملكة الجن» هو البحر الذى أجرى فيه مقطوعاته، فقد وُفِّق فى ابتكاره توفيقاً كبيراً، لأنه جاد ملائما أتم الملاءمة لأنغامه الموسيقية التى امتاز بها ونبغ فيها، حتى ليقال إن الأدب الإنجليزى كله لا يعرف لسبنسر ضريبا فى اتساق الأوزان والألفاظ والأنغام.



ستال، دى «مدام»

١٧٦٦ ـ ١٨١٧م

من رواد الحركة الرومانتيكية الفرنسية

ولدت «جرمين نكر» سنة ١٧٦٦. وقد ظهرت عليها ملامح الذكاء وامتازت بدقة الملاحظة، وحسن التعبير عما يجول فى نفسها من آراء وأحلام. وهى لا تزال طفلة صغيرة تلهو وتمرح مع لداتها، ولقد ساعدها نضوجها الفكرى المبكر، وهى لا تكاد تناهز الحادية عشرة من عمرها، على حضور أيام استقبال والدتها للصفوة من العلماء والأدباء والفنانين فى ثوبها المشهور. وهكذا تكونت عناصر عقلها، وتفتحت براعمه تحت قوة هذه الإشعاعات الشديدة.. إشعاعات العلم والفن والأدب التى كانت تتولد من بعض العقول الجبارة مثل: راينال ـ توماس... الخ.

تروجت «جرمين نكر» فى سنة ١٧٨٦ من البارون دى ستال سفير السويد. ولقد رحبت مدام دى ستال بالثورة الفرنسية فى أول أمرها، واستقبلتها بسرور كبير، وبنفس غنية بالأمل، جياشة بالأمانى الباسمة المشرقة. وكونت لنفسها (صالونا)، أصبح بعد قليل هو المكان المختار الذى يجتمع فيه عشاق النظم الانجليزية من أمثال: مونيه ـ مالويه ـ كليرمون تونير. ولقد حدثت فى سنة ١٧٩٢ أن اضطرت مدام دى ستال الى الهرب بسبب الأحوال السياسية المتغيرة المتقلبة فى داخل فرنسا. فغادرت باريس والتجأت الى «كوبت» بالقرب من جنيف. ولكنها عادت الى باريس سنة ١٧٩٥، فدب النشاط من جديد فى صالونها، وأخذ يتردد عليه جهابذة العلوم والفنون والآداب.

ولكن سرعان ما اشتبهت فيها حكومة الديركتوار، فاضطرت الى العودة ثانية الى «كوبت»، وبقيت فيها حتى سنة ١٧٩٧. لقد حاولت مدام دى ستال أن تعيش

فى سلام مع بونابرت، ولذلك مرت مدة لم يحدث خلالها ما يعكر صفو هذا السلام. واستمرت الحالة على هذا النمط الهادئ حتى سنة ١٨٠٠. ولكن حدث فى يناير من هذه السنة ان كتب بنجامان كونستان - فى صالونها - مقالا طويلا يفيض دفاعا عن الأهالى، وينذرهم بفجر عهد الإرهاب. وعندئذ كان لابد من حدوث شقاق عظيم بينها وبين أولى الأمر. ولاسيما ان أدبها نفسه فى هذه الفترة وأعنى بها سنة ١٨٠٠ قد طعم بعناصر تلميحية رمزية ومن ناحية أخرى كان صالونها فى ١٨٠٢ يضم بين جنباته جماعة أخذت تشن حرب هجاء قوية على نابليون وأتباعه.

ولقد انتهى الأمر بنابليون الى الثورة. وتسلمت مدام دى ستال فى اكتوبر سنة ١٨٠٣ الأمر بالابتعاد عن باريس مسافة لا تقل عن اربعين فرسخا فلم تجد بدا من مغادرة فرنسا، فتركتها وسافرت لزيارة ألمانيا ثم عادت بعد مدة وجيزة الى «كوبت».. وكان رجوعها متأخرا فلم تحضر موت «نكر». ثم سافرت إلى إيطاليا، وبقيت هناك حتى سنة ١٨٠٥ وعادت بعدها إلى كوبت حيث كتبت كتابها العظيم «كورين» الذى صادف بعد نشره بقليل أكبر قسط من النجاح.

عادت مدام دى ستال بعد ذلك الى ألمانيا سنة ١٨٠٧. وبعد رحلتها هذه نشرت كتابها القيم عن «ألمانيا» الذى أعدمت كل طبعاته الفرنسية بيد البوليس الإمبراطورى. كما أنها هى الأخرى تسلمت أمرا بالخروج من أرض فرنسا، وكان ذلك سنة ١٨١٠. ولم تكتف الحكومة الفرنسية بذلك بل أخذت تبث حولها العيون والأرصاد وهى فى كوبت. كما أنها منعت من رؤية أصدقائها الذين شرد معظمهم. ولقد استطاعت مدام دى ستال أن تهرب فى سنة ١٨١٢ وتلتجئ الى بترسبورج ومنها إلى السويد. ثم سافرت أخيرا إلى إنجلترا. وفى سنة ١٨١٧، وكانت حينئذ قد أوشكت على الانتهاء من كتابها «تأملات فى الثورة الفرنسية»، اسدل الستار على حياة مدام دى ستال.. تلك المرأة التى صمدت لحاكم بأمره!.

لقد عاشت مدام دى ستال فى القرن الثامن عشر، بل نستطيع أن نقول إنها هى القرن الثامن عشر الحى.. القرن الثامن عشر بجملته. وذلك لأن كل التيارات المعارضة تجد عندها المصب اللائق، فتتدفق اليه من غير وهن أو ضعف.

مدام دى ستال هى ابنة جان جاك روسو فى حياته العاطفية القوية البالغة الحدة والجامحة أكبر جموح. لقد وهبها الله مخيلة خصبة ولكنها مضطربة وثائرة فى خيالها، وقلبا متأججا دائم الاشتعال تصهره فى كل يوم نيران الألم والافتتان وشدة الرغبة.

هى تتمتع بخصلة حميدة غريبة هى الأثرة العامة. فهى دائما فى عطش دائم إلى السعادة لنفسها ولغيرها. فهى تكن للناس جميعهم الخير والعطف والعدل. كما أنها تبغض من كل قلبها الاستبداد والتعسف فى الحقد. وعندها أن التعبير القوى للشخصية هو الخروج على الأوامر التعسفية بكافة ألوانها وأنواعها. وهى تريد أن تبسط شخصيتها فى أكبر دائرة ممكنة.. تريد أن تتمتع بنفسها، وفى نفس الآن تستغلها بالطريقة التى تحبها وترضاها. ولكن المثل الأعلى للتمتع أو الاستمتاع عندها هو أن ترى نفسها الكاملة معكوسة على مرآة نفس أخرى مشغوفة بحبها واحترامها.. فمدام دى ستال تريد أن تمتد بكل عناصر شخصيتها فى نفس العاشق. وبهذه الطريقة وحدها تريد أن تحب. وهى اذا وصلت الى هذه المرتبة فقد وصلت إلى السعادة. ولكنها كانت تواجه الكثير من العقبات والصعوبات فى طريق تحقيق هذا اللون من السعادة. فكل تجاربها فى هذا الصدد لم تتمخض عن الاستحسان العاطفى. ولقد انتهى هذا الشذوذ فى أحلامها وحقائقها، أو فى عالم الخيال وعالم الروح إلى نتيجة واحدة: هى تقوية وترتيب عناصر المذهب الرومانتيكى المتغلغل فى ثنايا عقلها.

كان «لكلاريس هارلو» و«فرتر» أكبر الأثر فى تغيير مجرى حياتها وهى شابة فى ربيع عمرها. أما «ولتر سكوت» فقد عطر أخريات أيامها بسحره الفنى.. فشبت وهى تعتقد بإخلاص وإصرار أن للقصة وجودا حقيقيا فى الحياة.. وأن الحقيقة هى القصة!

لمدام دى ستال روح روسو القوية الحادة، أما من ناحية العقل والتفكير فهى ابنة فولتير.. ابنة القرن الثامن عشر الرزين العاقل فكانت ديانة هذا العصر هى ديانتها، واعتقاداته هى اعتقاداتها. ولذلك نراها تؤمن بقابلية التقدم، وبالكمال الضرورى المحقق للإنسانية. فهى لم يخامرها الشك أبدا فى الحقائق المطلقة

كوالدها الروحى روسو. وبذلك أصبحت حياتها كلها وقفا على تحقيق وتطبيق حقائقها المغروسة فى نفسها.. مهما كانت معتقداتها هذه جامدة أو مطاطة غريبة أو مألوفة فالواجب يقضى بتصديقها والإيمان بها لأنها - كما تراها هى - حقيقة لا ريب فيها. وهكذا أصبحت نزعتها الرومانتيكية تهدف نحو الروحانية الغامضة الساحرة.

وقد كانت قصتها «كورين» من القصص الدولية العالمية. بمعنى أن شخصياتها لم تتأقلم بإقليم خاص... فالانجليزى والفرنسى والايطالى قد صبوا جميعا فى قوالب جامدة بعض الشىء، ولكن هذه القوالب قد هذبت وأكملت فيما بعد بدراسات علمية وفنية وافرة.

أما فى الأدب، فلها ذوقها الخاص الذى يقنع - من الوجهة السلبية - بجمال القوالب الأدبية وجودة التعبير وبلاغته. أما من الوجهة الإيجابية المباشرة فهى تكتفى بالعاطفة الغنية الخصبة، وبالتعبيرات الشخصية أو الذاتية.

إن الدور الذى لعبته مدام دى ستال فى الأدب الفرنسى، يعتبره نقاد هذا الأدب من الأدوار البالغة الأهمية، الذى يجب على حد تعبيرهم أن «يَفهم ويُفهم».

كانت مدام دى ستال توجه تياراتها الأدبية إلى ذكاء معاصريها، وترغمهم على تعود ذلك اللون الجديد من التفكير. لقد قدمت إلى أهل عصرها الكثير من الأفكار والآراء التى وسع رقعتها فيما بعد ذلك الذكاء المعاصر.

ولقد استطاعت بوسائلها المختلفة أن توجه الكثير من معاصريها، وتجعلهم يستسيغون الميول الحديثة التى كانت قبل ذلك تعذب النفس وتسبب الآلام المختلفة، والتى كان الذوق الأدبى التقليدى يرفض لأجلها السياحة فى الأسفار الأدبية! وهكذا استطاعت مدام دى ستال أن تضع مبادئ ذوق أدبى جديد يوافق تماما الحالة الحسية الجديدة للمتأدبين.

كان حلم مدام دى ستال هو تحقيق فكرة «الأدب الأوربى». هى تريد حفلة رقص جامعة، تحمل فيها كل أمة (نوتتها) الخاصة. أو تجارة تربح فيها كل أمة من إنتاج غيرها. وهى تقول فى هذا الصدد ما يلى:

«يجب على الأمم أن تستخدم المرشدين؛ فتبعث هذه بمرشديها إلى تلك. وكل الأمم تكون على خطأ عظيم اذا حجبت الأنوار والأضواء التى تستطيع أن تقرضها لغيرها. يوجد هناك بعض الأشياء الجوهرية التى تفرق بين شعب وشعب: الجو؛ ومناظر الطبيعة؛ واللغة، ولون الحكومة، وأخيرا على الأخص الحوادث التاريخية الخاصة بكل أمة. وكان من جراء هذه الفروقات أن تعذر على أى رجل ـ مهما كان من العباقرة ـ أن يتكهن بما يجول فى عقل زميله الذى يعيش على تربة غير تربته، والذى يستنشق هواء غير هوائه».

ومدام دى ستال تحض كل شعب من هذه الشعوب على جمع أفكار وآراء الشعوب الأخرى. وتقول إنه إذا أدت كل دولة هذا العمل أصبحت الضيافة مصدر ثروة فكرية لمن يلبيها وبذلك وحده يقضى على الحالة الشاذة التى وصفناها.

كانت هذه النصيحة حسنة وعملية فى نفس الوقت. فقد أصبحت التيارات الأدبية الهامة للقرن التاسع عشر هى تيارات الأدب الاوروبى. وبذلك تحقق حلم مدام دى ستال، وخرج من الظلام إلى النور.



ستندال

١٧٨٣ ـ ١٨٤٢م
من أبرز وجوه الأدب الفرنسى
فى القرن ١٩

بهذا الاسم المستعار كتب «هنرى بيل» الذى لم يصادف إعجاب معاصريه، لكن الرجل كان يؤمن بقيمة فنه، وآمن بها أعلام القصة مثل «مِريميه» و«بلزاك»؛ فتنبأ بأن أدبه سيجد التقدير الذى كان به جديرا، حين ينصرم الشطر الأكبر من القرق التاسع عشر، وصدقت نبوءته، ففى نحو التاريخ الذى حدده كانت قصصه موضوع الدرس وموضع الإعجاب؛ فقال عنه «تين» ـ وهو من فطاحل النقد فى عصره ـ إنه من عرف أسرار النفس البشرية من أدباء القرن التاسع عشر جميعاً.

ولد ستندال فى جرينوبل عام ١٧٨٣، وكان والده وكيل دعاوى يملك العقار ويتمتع بشىء من النفوذ. أما أمه، ابنة الطبيب الأول بالمدينة، فماتت وهو فى السابعة من عمره.

وفى عام ١٧٨٩ نشبت الثورة الفرنسية. ونفذ حكم الإعدام فى لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت فى عام ١٧٩٢.

وصف ستندال حياته فى الطفولة والصبا بإسهاب، ومن الجدير دراستها لأنه اكتسب فى هذه الفترة أفكاراً متحيزة ظل يعتنقها حتى آخر حياته. وعندما ماتت والدته، التى كان يحبها، ترك فى رعاية والده وخالته. وكان والده رجلاً وقوراً، حى الضمير، وكانت خالته متزمتة وتقية. وأحس نحوهما بكراهية. ورغم انتمائهما إلى

الطبقة المتوسطة إلا أن ميولهما كانت أرستقراطية، وقد ألقت الثورة بالرعب فى قلبيهما. ويزعم ستندال أن طفولته كانت تعسة. ولكن لا يبدو من قصة حياته التى سردها بنفسه أن كان هناك ما يدعو إلى كبير شكوى. وكان ذكيّاً، قوى الحُجة، صعب المراس.

وهو فى ذلك يشبه معظم الأطفال، لكن معظم الأطفال عندما يكبرون، ينسون أحزانهم، أما هو فقد شذ عن هذه القاعدة، فعندما كان فى الثالثة والخمسين من عمره ظل يطوى النفس على حنقه القديم. ونظراً لأنه كان يكره معلمه الخاص اليسوعى، أصبح خصماً عنيفاً للكهنوتية، ولم يكن بمقدوره، طوال حياته، أن يقتنع بأن الرجل المتدين قد يكون مخلصاً. لقد صار جمهورياً متحمساً لأن والده وخالته كانا من أنصار الملكية المخلصين.

كان ستندال فى السادسة عشرة من عمره عندما ذهب إلى باريس لأول مرة. وقدمه والده إلى أحد أقربائه ويدعى مسيو دارو وكان لهذا الرجل ولدان يعملان بوزارة الحربية. وكان بيير الابن الأكبر، مسئولا عن إحدى مصالح الوزارة، وبعد فترة عين ابن عمه الصغير كأحد سكرتيريه العديدين. وشرع نابليون فى حملته الثانية على إيطاليا، وتبعه الأخوان دارو، وبعدها بقليل انضم إليهم ستندال فى ميلانو. وبعد أن أمضى بضعة شهور فى هيئة الكتبة عهد إليه بيير دارو بمهمة فى كتيبة الفرسان، لكنه، وقد استمتع بمباهج ميلانو، لم يبذل أية محاولة للحاق بكتيبته، وإذ انتهز فرصة غياب دارو، تملق رجلا يدعى الجنرال ميشو حتى جعله ياوره الخاص. وعندما عاد بيير دارو أمر ستندال باللحاق بكتيبته، ولكنه ظل لستة أشهر يتعلل بعذر أو بآخر ليتجنب تنفيذ الأمر، وعندما انصاع إلى الأمر فى النهاية بلغ من ضيقه وملله أن حصل على إذن بالعودة إلى موطنه بحجة المرض، وهناك استقال من مهمته. ولم يشهد أية عملية حربية، وإن كان هذا لم يمنعه من التفاخر ـ بعد مضى سنوات ـ بشجاعته كمقاتل. والواقع أنه عندما أخذ يبحث عن وظيفة عام ١٨٠٤ حرر بنفسه شهادة (وقعها الجنرال ميشو) شهد فيها بشجاعته فى مختلف المعارك التى ثبت أنه لا يمكن أن يكون قد اشترك فيها.

ورحل إلى باريس ليعيش على راتب صغير من والده وإن كان كافياً. وكان قد

وضع هدفين نصب عينيه. أولهما أن يصبح أكبر شاعر مسرحى فى عصره.

فدرس كتيباً من الكتب التعليمية عن فن كتابة المسرحية، وكان يذهب إلى المسرح كل يوم تقريباً. ويسجل فى يومياته المسرحيات التى كان يشاهدها ويبدى رأيه فيها. وكثيراً ما ذكر فى هذه اليوميات أن فى مقدوره أن يصيغ من مسرحية شاهدها لتوه مسرحية أخرى خاصة به. ويبو أنه كان يفتقر إلى الأفكار، ومن المؤكد أنه لم يكن شاعراً. أما هدفه الآخر فهو أن يصبح عاشقاً كبيراً، غير أن الطبيعة لم تزوده بما يتطلبه هذا الدور، إذ كان شابًا أقرب إلى القصر، قبيحاً، مكتنزاً. واستطاع، عن طريق ابن عمه المحارب دارو، الأخ الأغر لبيير، أن يختلف إلى صالونات بعض السيدات اللاتى أثْرت الثورة أزواجهن، ولكن لسانه كان ينعقد بطريقة محزنة وهو فى صحبة الناس. كان فى مقدوره أن يفكر فى أشياء لماحة يقولها، ولكنه لم يستطع أبداً أن يستجمع شجاعته ويتفوه بها. كان الخجل يلجم لسانه. وكانت لهجته الريفية تضايقه وتخجله، وربما كانت الرغبة فى التخلص منها هى التى جعلته يلتحق بمدرسة للتمثيل.

وعاد ستندال إلى باريس وحصل بفضل نفوذ بير دارو على وظيفة فى إدارة المهمات الحربية. وعين فى برونزويك وتخلى عن مشروع الشاعر المسرحى الكبير، وقرر أن يهيئ لنفسه مركزاً بين صفوف البيروقراطية، واعتبر نفسه باروناً فى الإمبراطورية، أو فارساً فى حرس الشرف، وأخيراً وزيراً بمرتب ضخم. ورغم اتجاهه الجمهورى المتحمس ونظرته إلى نابليون كطاغية سلب فرنسا حريتها، إلا أنه كتب إلى والده يطلب منه أن يشترى له لقباً. وأضاف «دى» إلى اسمه، وأطلق على نفسه اسم هنرى دى بايل. لقد كان إدارياً كفؤاً ذا دهاء، وفى عام ١٨١٠، وبعد حصوله على ترقية، وجد نفسه فى باريس مرة أخرى فى مكتب فى جناح فخم بقصر الإنفاليد، وفى عام ١٨١٢ استطاع ستندال، بعد جهد، أن يقنع الكونت دارو بنقله من وظيفته المريحة فى باريس إلى الخدمة العاملة فى سلاح الإمدادات، ولحق بنابليون وجيشه فى حملته المفجعة على روسيا، وقد أثبت ستندال رزانته، وإقدامه،، وشجاعته أثناء التقهقر من موسكو. وفى عام ١٨١٤ تنازل الإمبراطور عن عرشه، وانتهت وظيفته ستندال الرسمية.

وفى النهاية قصد باريس واستأنف حياته القديمة وفى أحد أيام مارس عام ١٨٤٢ حضر مأدبة عشاء رسمية كبرى فى وزارة الخارجية، وفى ذلك المساء، وبينما كان يسير فى الطريق، حلت به أزمة. وحملوه إلى مسكنه حيث مات فى اليوم التالى.

والخاطر الذى لابد أن يرد على ذهن المرء وهو يتمعن الحقائق العارية التى سردها هو أن تقلبات الحياة عاشها ستندال جعلته يمر بخبرات متنوعة لا يستطيع التفاخر بها سوى نفر قليل من الروائيين. فقد كان من حظه أن وجد فى فترة بالغة التقلب، ولقد كتب له أن يختلط ـ فى عهد تحول كبير ـ بكافة الأنماط والطبقات، وبهذا اكتسب من سعة المعرفة بالطبيعة البشرية ما سمح به مزاجه الخاص بطبيعته. لم يكن ستندال مؤلفاً محترفاً، بل لم يكن رجل آداب تماماً، ولكنه كان يكتب دون انقطاع، وكل ما كتبه تقريباً يدور حول نفسه. وقد ثابر سنوات على كتابة يوميات وصل إلينا منها أجزاء كثيرة، ومن الواضح أنه كتبها دون أن يكون فى نيته نشرها. وكتب سيرة ذاتية لحياته (فى ٥٠٠ صفحة) وكان ينوى نشرها، بالرغم من أنه مات دون مراجعتها.

وعندما توفى لم يشر إلى نبأ موته سوى صحيفتين من صحف باريس. وبدا كما لو كان سيغدو نسياً منسياً، والحق أن ذلك كان محتملاً جداً لولا جهود رجلين من أصدقائه القدامى أفلحا فى إقناع مؤسسة هامة للنشر بإصدار طبعة من مؤلفاته الرئيسية. غير أن الرأى العام ظل غير مبال، رغم أن الناقد الكبير سانت بيف خصص مقالتين عن هذه الكتب ولم تبدأ هذه الكتب فى الذيوع والانتشار إلا بعد ظهور جيل آخر. ولم يكن ستندال نفسه يشك فى خلودها، غير أنه كان على استعداد للانتظار حتى عام ١٨٨٠ أو حتى عام ١٩٠٠ ليلقى التقدير الذى يستحقه. وكم من مؤلف يعزيه عن إهمال معاصريه يقينه أن المستقبل سوف يعترف له بمزاياه. لكن نادراً ما يحدث ذلك. فالمستقبل مشغول، ومهمل، وإذا اهتم بالإنتاج الأدبى الماضى، فإنه يختار من بين الأعمال التى حققت نجاحاً فى زمانها. إنها مجرد صدفة نادرة تلك التى تنقذ مؤلفاً من مهاوى النسيان الذى ظل يعذبه

طيلة حياته.

وتعتمد شهرته على فقرة واحدة فى «مقال عن الحب» وعلى روايتين. وربما كانت رواية «دير بارم» أكثر متعة فى القراءة، وهى تضم شخصيتين تأخذان بلب القارئ كما أن وصفه لمعركة واترلو جدير بالشهرة التى حظى بها. ولكن رواية «الأحمر والأسود» أكثر استلفاتا للنظر، وأكثر أصالة، وأكثر دلالة. ومن أجل هذا قال زولا عن ستندال إنه أبو المدرسة الطبيعية، واعتبره بورجيه واندريه جيد مبتدع الرواية السيكولوجية إنه كاتب مدهش بحق.



ستو، هاربيت بيتشر

١٨١١ ـ ١٨٩٦م

السيدة النابغة!!

فى خشوع عميق، وقف المحرر الأعظم إبراهام لنكولن ذات يوم من سنة ١٨٦٢، ليحيى المرأة التى قدر لها أن تهز بقصتها الخالدة «كوخ العم توم» ضمير العالم وتجند الرأى العام الأمريكى، ضد ذلك الظلم الساحق النازل بالزنوج، وأن تكون الموحية الدافعة لحرب تحرير العبيد الأهلية التى انتصرت فيها الولايات الشمالية على الجنوب قائلا:

«حسنا مسز ستو إننى لسعيد بأن أرحب بك، بوصفك مؤلفة تلك القصة التى أحدثت تلك الحرب العظيمة».

فمن هى هاربيت بيتشر، تلك التى استطاعت أن ترسم بقلمها أدق صورة للعذاب البشرى فى قصة مثيرة تتحسس فى كل سطر من سطورها معانى إنسانية، تضرب فى أعماق الانسان لتثيره ضد الاضطهاد البشرى والاسترقاق؟

ولدت هاربيت بيتشر ستو فى يوليو من سنة ١٨١١ فى مدينة نيوانجلند فى ليتشفلد وكانت الصغرى من أطفال سبعة، لأب مبشر، لم يكن راتبه القليل بكاف ليؤمن للأسرة الكفاف من العيش، مما حدا بأمها «روكسانا» إلى افتتاح مدرسة أهلية ـ وكانت ذات ثقافة وعلم لتعليم العلوم واللغات والفنون النسوية، بالإضافة إلى رسالتها الأولى كربة بيت وأم مثالية.

فى هذه البيئة الواعية المغامرة، نشأت هاربيت، وأحست منذ طفولتها بروح الحرية تسرى فى أعصابها ودمها، وهى تتجول بين الحقول والغابات. ومن تلك الطبيعة الرائعة أبدا، ومن أرضها المتجهمة بالسحب، تثقفت ـ كما تقول ـ ونما

تفكيرها وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهمها وتقلباتها.

ولكن هذه الطفولة سرعان ما نراها تتعرض لضربة القدر، ويد الموت تغتال الأم المثالية المضحية، ولما تتم هاربيت الخامسة من العمر بعد، وليبدو فى موتها، وكأن الأسرة كلها قد ضاعت. وأصبحت دون قائد.

ولم يكن الصغار هم الذين حرموا هذا النبع الفياض من الإيثار والحنان فحسب بل كان السيد بيتشر. ذلك الزوج الذى لم يستطع أى عزاء التخفيف من ألم فجيعته ووحدته.وذهبت هاربيت إثر وفاة أمها - لتعيش مدة مع جدتها ومن ثم لتعود إلى لتشفيلد.. بعد زواج أبيها للمرة الثانية.

ولقد حاولت الزوج الجديدة للسيد بيتشر أن تكون أما ثانية للصغار، ونجحت بأن تكون محبوبة لديهم مكرمة. غير أن هاربيت لم تحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص.

فى سن السابعة برهنت هاربيت على أنها تملك ذاكرة ومواهب ساطعة، فقد كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعرفة إلى حد بعيد فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن هذا الغذاء الفكرى وكان البحث عن هذا الغذاء واكتشافه يشبه لديها اكتشاف جزيرة فى المحيط.حينما بلغت هاربيت الثانية عشرة من عمرها التحقت بمدرسة السيد «جون دريس» وكان مربيا ذا شهرة ومكانة وفضل فتبدت براعتها وذكاؤها فى التعبير والدقة فى الإنشاء. وفى يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسى كانت الفائزة الأولى.

وحينما تبلغ هاربيت الخامسة والعشرين من عمرها سنة ١٨٣٦، ينتقل والدها إلى «أوهايو» ليصبح رئيسا لأبرشية «لين» فى مدينة «سينسناتى». وتذهب معه ابنتاه كاترين وهاربيت، وهناك تؤسسان معا مدرسة جديدة فى ضاحية المدينة. وتلتقى هاربيت هناك بأستاذ جامعى لامع يدعى «كالفن ستو» فتتزوج منه.

فى ذلك الوقت كانت قضية الرق تهز النفوس فى كافة أرجاء القارة. وبما أن مدينة «سينسناتى» كانت تقع بقرب حدود «كينتاكى» - الولاية الجنوبية للعبيد - فقد أصبحت مرفأ للأفكار التحررية العاصفة وكان العبيد يهربون إلى الولاية الحرة فى «أوهايو» وتمد لهم يد المساعدة فى كندا عن طريق رجال عرفوا بعطفهم على

قضايا الحرية. فى تلك البيوت الكريمة الواقعة فى الشمال كان العبيد يجدون الحماية فى النهار إلى حين ينقلون خلال الليل إلى تلك الولاية.

وأضحى ساحل تلك الولاية مقرا للجدل العنيف، ولتأييد قضية تحرير الإنسان. ولقد ساعد الكثيرون من طلبة الولايات الشمالية على تحرير عبيدهم وعلى تأسيس مدارس للطلبة الملونين فى «سينسناتى» رغما عن نظرية العداء التى ورثها هؤلاء عن أهلهم.

وحينما حاولت الصحافة المحلية أن تلجأ إلى المناداة بحل عادل للقضية تعرضت مطابعها للكسر مرتين وقذفت إلى البحيرة، كما تعرض الكثير من بيوت الملونين للحرق وقتل البعض منهم. واضطرت هاربيت وأسرتها بسبب هذا إلى النوم متسلحين لحماية أنفسهم. وحذر البحث فى هذه القضية. وكنتيجة لهذا التقييد أوشكت المدرسة على التوقف عن التدريس بعد أن هجرها أكثر أساتذتها وطلابها وبعد أن بذل السيد بيتشر مع أبنائه فى سبيلها أقوى الكفاح.

وفتحت هاربيت بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلمهم. وحينما اعتقل واحد منهم، تولاها أسى عميق فبادرت إلى افتدائه بكل ما كانت تملك من مال. حينذاك أنذرت عائلة ستو بالخطر: فهاجرت إلى الشمال فى عام ١٨٥٠، وشرع زوج هاربيت فى التدريس فى كلية برانسويك فى ولاية مين كما أخذت هى فى الكتابة للصحف، لتعاون على كسب العيش.

والآن وفى سن الأربعين، ومع تبعات بيتية مرهقة وتربية لطفل، كان من غير المتوقع أن تستطيع هاربيت إنتاج أى أثر أدبى بارز. ولكنها وهى على حساسية عميقة بالمأساة الانسانية الدامية وبالمعرفة التى تثور وتندلع نيرانها فى الولاية، إلى ذلك الاضطهاد السافر للرقيق، إذ أبيحت مطاردة الملونين وإعادتهم ثانية إلى العبودية والموت - فقد كانت هاربيت أقدر من يتولى إثارة هذه المأساة، إذ لم يكن الناس قد أثيروا أو حركوا إلى الدرجة الكافية لمعارضة أو مقاومة الرق بعد. هنا، نرى هاربيت تود من الأعماق أن لو استطاعت إثارة هذه المعانى السامية فى النفوس، ودفعها إلى تحرير إخوتها فى الإنسانية من الإذلال والعبودية والاضطهاد.

ولاح لها هذا الرجاء أو تمثل فى ذهنها فى شخصية «العم توم» بينما كانت تجلس على مائدة القربان فى كنيسة برنسويك الصغيرة فى يوم أحد.

وعادت هاربيت إلى البيت، يتملكها إيمان جارف بتنفيذ هذا القصد. وبدأت الكتابة. كتبت بادئ ذى بدء فصلين أو ثلاثة من قصة كوخ العم توم، وقدمتها إلى الدكتور «بيلى» صاحب جريدة الأحرار سابقا فى سينسناتى، وزارت بوسطن، وفى قاعات انسيليبرى لمقاومة الرق، استعارت الكثير من المراجع لدعم كتابها بالوثائق والحقائق.. وحين كتبت القصة نفسها ملأت كل صفحة وسطر فيها بالرأفة والعاطفة.. تلك العاطفة التى انبثقت من اختباراتها فى مشكلة الرق والاضطهاد البشرى.

ونشرت هاربيت القصة، وكان التجاوب معها فى كافة أنحاد العالم قويا عاصفا تبدى فى فيض من رسائل التشجيع والتقريظ من ملوك وأمراء وكتاب وأدباء، فقد كتب لها «ديكنز» قائلا:

«إن كتابك لجدير بكل عقل وكل قلب» كما قرظه كنجسلى وجورج إليوت وغيرهما، وفى السنة التالية قامت هاربيت وزوجها برحلة إلى أوربا، فكانت تقابل فى كل مدينة تزورها بحماسة مقدسة اذ كانت جموع الشعب توقف مركبتها فى الشوارع لتحييها وتملؤها بالزهر.

وافتتح اكتتاب عام تحرير العبيد حيث قدم لها مبلغ ألف جنيه استرلينى على صينية فضة، كما دعتها إحدى الدوقات إلى حفل فى بيتها كان من شهوده لورد بالمرستون وماركونى وجلادستون قدمت لها خلاله سوارا ذهبيا على شكل قيد لعبد رقيق نقش على الحلقة الأولى منه: «إننا نؤمن بأنه رمز لقيد سوف يتحطم عاجلا». كما نقش على الحلقة الثانية منه تاريخ إلغاء تجارة الرق فى أمريكا عام ١٨٠٧ وفى بريطانيا عام ١٨٤٣، وعلى الثالثة: تاريخ تحرير العبيد فى مقاطعة كولمبيا إلى إعلان الرئيس إبراهام لنكولن لإلغاء العبودية فى الوثيقة الدستورية فى الولايات المتحدة، وإلى الأبد سنة ١٨٣٦.

وعادت هاربيت وزوجها إلى أمريكا من رحلتها فى أوربا لتكتب المذكرات الشائقة وتؤلف قصصا قوية أخرى.

واستمر بيع قصة «كوخ العم توم» بارتفاع، وترجم إلى تسع عشرة لغة مختلفة أخرى. وكان تأثيره فى كافة أنحاء العالم عظيما، اذ حرر الكثيرون عبيدهم بعد قراءته، كما ازداد بيع كتب التوراة فى فرنسا، لأن الشعب هناك أحب أن يقرأ الكتاب الذى أحبه العم توم كثيراً.

فى عيد هاربيت الواحد والسبعين، أقام ناشر قصصها حفلة كبرى على نخب مؤلفة الإنسانية العالمية، دعا إليها الشعراء والفنانين والسياسيين ورجال الإصلاح. وتحت منصة فى خيمة عظيمة جلست هاربيت لتصغى بتواضع إلى قصائد الشعراء والخطب التى كانت تمجد كفاح امرأة واحدة رقيقة حيية، وفى سمو ظاهر يدل على أنها أتمت هدفا عظيما.

وطوى الموت هاربيت بيتشر ستو سنة ١٨٩٦ إثر مرض عضال «الشلل» ودفنت فى مقبرة متصلة بالكنيسة، بين قبر ابنها وزوجها فى «أندرفر» وقال التاريخ:

لقد كافحت هاربيت بقلم أكثر مما كافحت بسلاح، وعاشت لترى معركتها ضد العبودية.. تنتصر...



سرفنتس

١٥٤٧ ـ ١٦١٦م

الروائى صاحب الخيال الخصب

كثير من عظماء الرجال وأفذاذ الإنسانية لم تقدر عبقريتهم ويعترف بفضلهم فى أثناء حياتهم وقد يظفر بعضهم بعطف قلة من معاصريهم ويحظى بتشجيعهم، ولكن أعمالهم برغم ذلك تظل عرضة للشك ومثار جدل وخلاف حتى تنقضى حقبة من الزمن يختفى فيها من الميدان الرجال الأقل قيمة والأدنى منزلة، الذين نالوا مكانة لم يكونوا بها جديرين وأصابوا من الإعجاب والتقدير مالا يستحقون، ويظهر حينذاك فضل هؤلاء الذين عقهم عصرهم وغمطهم حقهم. وكثيرا ما يحدث أن هؤلاء الذين ملأوا عصرا من العصور ضجة ودويا ووصلوا بين معاصريهم إلى المكانة الشماء يجر عليهم النسيان أذياله ويطويهم الزمن فى غياهبه فلا تحفل الأجيال التالية بآثارهم وتعرض حتى عن ذكر أسمائهم فى حين أن الرجال العظماء حقا يعيشون فى أعمالهم الخالدة ويبقى ذكرهم ما بقيت الإنسانية ومنهم من ذاق مرارة الإخفاق وعرف آلام الحرمان.

ورواية دون كيشوت من أشهر الروايات العالمية وإحدى الطرف الأدبية والمعدودة، وقد اشتهرت مغامرات بطلها هذا. ولا يعد هذا الكتاب الذى سجل مغامرات هذا الفارس المغوار وتابعه المسكين مجرد قصة وانما هو صورة لأسبانيا فى عصره وحياتها من شتى نواحيها فى القرن السادس عشر فهى تمثل أفكار الشعب وتصور مشاعره تصويرا لا يستطيعه سوى فنان عبقرى موهوب حاد الفطنة نافذ البصيرة.

وحينما ظهر الكتاب فى أسبانيا سنة ١٦٠٥ لم يكن أحد يدرى أنه سيكون من

الكتب العظيمة الخالدة وأنه سيترجم إلى لغات العالم جميعها ومنها لغتنا العربية ولم يعن أحد بمعرفة مؤلفه أو بذكره بعد موته ولكن حينما عرف مواطنوه الأسبانيون أنه أصبح له شهرة عالمية أخذوا فى بحث سيرته وتحرى أخبار حياته ووجدوا أنه يستحق الشهرة الواسعة بوصفه إنسانا، فضلا عما يستحقه من الشهرة بوصفه أحد كتاب العالم المعدودين.

كان سرفنتس جنديا وليس من عادة الجنود أن يشتغلوا بكتابة القصص ولكنه لم يكن جنديا فى جيش منظم يتلقى التدريب كل يوم فى الثكنات، وإنما جندى آثر أن يذهب إلى الحرب ويخوض غمارها ويستهدف أخطارها ويتحمل فى صبر وجلد مشقاتها وقد أفاد من ذلك معرفة واكتسب خبرة بالحياة والمجتمع أعانها خياله الخصب وشاعريته وقدرته الفنية.

وقد ولد سرفنتس فى سنة ١٥٤٧ وكان أبوه بيطارا بمدينة قلعة اينارس وكانت هذه المدينة حينذاك مركزا مهما من مراكز العلم المسيحى، فقد أوجد فيها الكاردينال اكزيمنيس جامعة فى سنة ١٥٠٨. ولكن سرفنتس لم يلتحق بهذه الجامعة لان أهله كانوا فقراء ولكنه عمل على أن يتلقى من اللاتينى ما يمكنه من قراءة الآثار اللاتينية الأدبية وقد استدل الذين ترجموا له على فرط ميله للقراءة من قوله انه كان يقرأ كل ما يقع فى يده حتى قصاصات الورق التى يلتقطها من الطريق وقد اعتاض عن الدراسة المنظمة بمعرفة الناس والحياة معرفة يغبطه عليها الدارسون والعلماء.

وقد حاول الكتابة مبكرا ونظم قصيدة وهو فى العشرين من عمره بمناسبة وفاة ملكة أسبانيا وأثنى على القصيدة أستاذه، ومرت سنوات قبل أن يستطيع أن يفرغ للأدب ومعالجة الكتابة والتأليف وكان يشعر بأنه يملك الموهبة ولكن ظروف الحياة القاسية لم تتح له الفرصة لاختبار قدرته وشحذ ملكته وكان مطبوعا على حب المغامرة، فاغتنم أول فرصة لاحت له لممارسة الحياة ومعاناة التجارب.

وبرغم ان سرفنتس كان يعمل جنديا بسيطا فقد أظهر شجاعة استرعت الأنظار وحازت التقدير وقد ألف رواية أسماها «جالتيا» ضمنت له الشهرة ولكنها لم تدر عليه من المال ما يكفى للإقبال على التأليف والإفادة من مواهبه الأدبية.

وأقبل سرفنتس على الكتابة والتأليف وبذل جهده ولكنه عجز عن منافسة

معاصره المؤلف الدرامى الشهير «لوب دى فيجا» فقد كان ذائع الصيت كثير الأنصار والمعجبين وكانت له قدرة على الابتكار لا تبارى ويروى أنه ألف ألفا وثمانمائة مسرحية غير الأشعار التى نظمها والقصص التى كتبها ولم يبق من آثاره إلا القليل. وقد كانت الدرامات الأسبانية هى الأمثلة التى احتذاها كتاب الدراما فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية.

واضطر سرفنتس إلى البحث عن عمل آخر ليعيش منه ويعول أسرته وكانت الحكومة الأسبانية حينذاك تعد أسطولها الأرمادا لمهاجمة انجلترا واستطاع سرفنتس أن يحصل على وظيفة لتوريد الأغذية والأخشاب وما إليهما وبيعها للأسطول وكان هذا العمل مما يضيق عنه ذرعه. وعين بعد ذلك فى الوظيفة المتواضعة وظيفة جابى الضرائب وسرعان ما أبغض هذه الوظيفة وعانى مشكلاتها والتمس من الحكومة أن تعينه فى وظيفة أخرى ولكن التماسه أهمل وظل فى الوظيفة الكريهة وعصره الفقر حتى كان يجد صعوبة فى الحصول على الملبس.

وفى غمرة هذا الشقاء وخلال هذه المثبطات ومواجهة هذه الصعاب شرع سرفنتس فى تأليف كتابه العظيم وروايته الخالدة «دون كيشوت» وفى سنة ١٦٠٥ ظهر الجزء الأول منها وبرغم النجاح الذى لقيته وإقبال القراء على قراءتها والإعجاب بها فإن الكنيسة لم ترض عنها. وكتب «لوب دى فيجا» المؤلف الموفق الناجح يقول عن معاصره التعس الحظ: «ليس هناك شاعر أسوأ من سرفنتس ولا شىء أسخف من امتداح دون كيشوت».

وكانت الناس فى ذلك العصر تقرأ روايات الفروسية التى تروى مغامرات سخيفة مشحونة بالمبالغات التى لا يقبلها العقل عن الفرسان وجولاتهم لاجتذاب الأميرات الحسان واستنزالهن من القلاع والحصون. وقد أراد سرفنتس أن يسخر بهذا النوع من البطولة الزائفة ويكشف ما تنطوى عليه من سخافات وحماقات وتهويلات ومبالغات، ومكنه خياله الخصب وتجاربه المنوعة من أن يقدم لنا فى كتابه صورة شاملة للحياة الأسبانية فى عصره من خلال تصويره لبطله الذى أفسد عليه تفكيره إمعانه فى الاطلاع على أقاصيص البطولة. وتابعه الذى كان يحاول عبثا أن يبصره بالواقع..

سقـراط

٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق. م

الرجل الذى علم الناس الحكمة

يعد سقراط من كبار الفلاسفة وشيوخ الحكمة الذين أثروا فى تطور الفكر البشرى، وتقدم الفلسفة رغم أنه لم يكتب شيئاً، وليست له مؤلفات يرجع إليها ويعتمد فى تحديد مواقفه الفكرية عليها، ولكن ما خلفه تلاميذه الذين أخذوا عنه، واقتدوا به، يعد من أنفس الآثار الفلسفية، وأبقاها على الدهر، وقد قدم سقراط للعالم مثلا نادرا فى سمو التعاليم، والوقوف الى جانب ما اعتقد أنه الحق، والتضحية بالذات فى سبيل حرية الرأى، والاستهانة بالأخطار الراصدة والمخاوف المحدقة.

ولم تتعرض شخصية سقراط للشك الذى تعرضت له بعض الشخصيات التاريخية، فحياته فى أثينا من المسائل المسلم بصحتها ولكن الآراء مع ذلك مختلفة فى تحديد معالم شخصيته، ووصف مواقفه، وتحرى أخبار حياته ونشأته. وفى مدى علمنا أنه يمكن القول بأن البحث التاريخى لم يصل بعد إلى نتائج حاسمة ومقررات نهائية لا يعتورها الشك فى هذا الصدد، وتسمو على المراجعة والتفنيد. والمحاكمة التى ختمت بها مأساة حياته تعد من المحاكمات التاريخية التى طالما غنى بها المفكرون، وشغل بها الناس، مثل محاكمة جان دارك وغيرها من المحاكمات التاريخية المأثورة.

وأهم المراجع التى يعتمد عليها فى تعرف أخبار سقراط ومطالعة آرائه هى «المحاورات» الخيالية التى كتبها أفلاطون، أعظم تلاميذه، وأبعدهم شهرة، وأسماهم مكانة فى عالم الفكر. وقد ولد سقراط سنة ٤٦٩ قبل الميلاد على مقربة من أثينا بعد موقعة سلامير بعشرة أعوام، وهى الموقعة التى انتصر فيها الأثنيون

بمساعدة أسبرطة وقضت على قوة اكسرسيز الفارسى، وفى أكثر الروايات أن أباه سوفرونيسكاس كان مثالا، وأن والدته فيناريت كانت قابلة (مولِّدة). ويروى انه هو نفسه بدأ حياته باتخاذ صنعة أبيه، وانه نحت تمثالا لهرمس وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الاكروبوليس، وكان من الفكاهات التى لا ينفك ينطق بها عن نفسه قوله أنه لم يفعل أكثر من مواصلة حرفة أمه، ولكنه نقلها الى مجال الأفكار فكان يساعد غيره من الناس على أن يخرجوا للعالم أفكارهم الكامنة فى بواطن نفوسهم.

وفى أكثر الروايات انه كان فقيرا، وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه، وكان فى أغلب أيامه قوى البنية، جيد الصحة، وتجلت شجاعته وقوة صبره واحتماله فى أثناء حرب البلوبنيز، وقد حارب فى بوتيديا سنة ٤٣٢ وفى ديليوم سنة ٤٢٤ وفى أمفبوليس سنة ٤٢٢. وأنقذ فى بوتيديا حياة السبياديز وهو من الشخصيات اللامعة فى تاريخ أثينا ومن أشهر تلاميذ سقراط الذين أساءوا الى سمعته وكانوا من أسباب محاكمته ونكبته، وقد نزل له سقراط عن جائزة الشجاعة، وقد بز سقراط الجميع فى قوة الاحتمال والصبر على المتاعب دون أن يشكو، ولم يكن سقراط كلفا بالأسفار والرحلات ولذلك لم يترك أثينا إلا فى الحملات الحربية وأوقات الجهاد.

وكان سقراط يقنع بثوب بسيط رث طوال السنة، ويؤثر أن يسير بغير حذاء أو خف، وكان مثلا شرودا فى امتلاك زمام النفس، والسيطرة على الأهواء، والقناعة والزهد. وبرغم ذلك لم يسلك فى حياته مسلك القديسين، ولم يحرم على نفسه طيبات الدنيا. وكان لا يأبى الدعوة الى ولائم الأثرياء، ولكن دون أن يفرط فى كرامته، أو أن ينزل عن آرائه. وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك. ولم يكن يفارق ميله الى الدعابة ورقة الحاشية، قال عنه أفلاطون «كان بحق أعقل وأعدل وأحسن من عرفت من الناس فى حياتى كلها».

وقد كان سقراط بطبعته ميالا الى النقاش والجدل، وقد عمد إلى دراسة الفلسفة، وأعجب حينا ما بالسفسطائيين الذين تكاثروا فى أثينا أيام شبابه، وقد التقى فى الأغلب بيارمنيدس ويرونا غوارس وغورغياس وغيرهم من فلاسفة

عصره، وليس ببعيد أن يكون قد رأى زينون حينما زار أثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد، ويرجح أنه عرف انكسارغورس.

وقد تحول من علم الطبيعة الذى مال إليه فى مطلع حياته إلى علم الأخلاق، وأخذ يختبر معتقدات الناس ليرى الأسس التى قامت عليها هذه المعتقدات، وكان يطلب ممن يوجه إليهم الأسئلة اجابات دقيقة محددة لا يشوبها التناقض، ويخيف من يعجز عن أن يكون واضحا فى تفكيره، منطقيا فى حديثه. وكان يصارح الناس بأنه لا يعرف شيئا، وانه ليس سوى هاو من هواة الفلسفة، وحينما سأل صاحبه كريفون عرافة دلفى عن من هو أكثر رجال أثينا حكمة، قالت العرافة: إنه ليس هناك من هو أكثر حكمة من سقراط. وقد عزا سقراط وصفه بالحكمة إلى إنه كان لا يعرف شيئا ويجهر بذلك، والفرق بينه وبين غير من الناس انه يعلم جهله، وهم يظنون أنفسهم عقلاء وحكماء، ويعرفون كل شىء. وما قالته الكاهنة بعث سقراط على التفكير العميق، وعده شبه أمر ليعمل به ويقوم بتنفيذه. وهكذا صار سقراط، الفقير الذى لا مال له ولا جاه ولا سيطرة سوى نفوذ بعض أصدقائه من معاصريه الممتازين، صار يعتقد أن له رسالة مقدسة. وكان الرجل يؤمن بالله وبالقيم الروحية، وكان بطبيعته دينى النزعة، ولكنه كان لا يؤمن بحرفية الأساطير الشائعة، ويعتقد أنها وليدة أخيلة الشعراد، ولا يرى مع ذلك بأسا فى انتقالها من جيل إلى جيل. وصار سقراط يعتقد أن عمله فى حياته هو أن يختبر ويحلل ويكشف إذا استلزم الأمر حكمة غيره المزعومة، وكان هذا بدء المتاعب!.

ولم يكن سقراط يميل إلى المشاركة فى الاتجاهات السياسية، ولا يتطلع إلى المناصب الإدارية، وقد شاء القدر أن يكون عضوا فى مجلس الخمسمائة من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد،وكان دائما فى مواقفه السياسية يتحرى جانب الاعتدال والرفق.

واستولى بعد ذلك على الحكم فى أثينا ثلاثون من الالجاركيين، وكان حكمهم إرهابيا.

وازدادت جرائم الالجاركيين، وأمعنوا فى الاضهاد والطغيان مما أدى إلى سقوط حكمهم، وزوال دولتهم. وعاد الحكم الديمقراطى إلى أثينا فى سنة ٤٠٣ ق. م.

ولكن هذه الديمقراطية السمحة لم تلبث أن تورطت فى خطأ من أكبر الأخطاء التى تورطت فيها حكومة من الحكومات، وهذا الخطأ البالغ هو محاكمة الفيلسوف سقراط بعد أن نيف على السبعين وإصدار الحكم بإعدامه.

وكانت التهمة الأولى التى وجهت إلى سقراط هى انه لا يؤمن بآلهة المدينة، ويدعو إلى عبادة غيرها من الآلهة. وكانت التهمة الثانية هى أنه أفسد أخلاق الشباب، وجرأهم على الاستهانة بالتقاليد والخروج على طاعة آبائهم.

وكان من زعماء الحزب المنتصر «انيتوس» وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده انه أفسد عليه ابنه. وأخذ أنينوس على عاتقه رفع الدعوى على سقراط، وأحيلت القضية على محكمة مشكلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع، وليس للكثير منهم نصيب من الثقافة أو المعرفة المستفيضة، وكان عددهم خمسمائة.

وقد أكد سقراط للمحكمة أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر، وأظهر لمتهميه تناقضهم فى اتهامه قائلا لهم: «انكم تقولون أولا أنى لا أومن بالآلهة ثم تتبعون ذلك بقولكم إنى أومن بانصاف الآلهة.. إن مثلكم هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير».

وأشار الى اتهام أرستوفانيز له بالمروق وتأثير هذا الاتهام فى نفوس قضاته، وقال لهم إنه مكلف بالقيام بأعباء رسالة إلهية مضمونها إرشاد الناس إلى الحياة الصالحة، وأنه لا يثنيه شىء عن القيام بما تتطلبه هذه الرسالة، وأنه لا يخشى الموت فى سبيل أدائها. وصارحهم قائلا «إذا قلتم لى، يا سقراط، إنا سنعفو عنك الآن، ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن متابعة البحث والتفكير على هذا النمط، فإننى سأجيبكم قائلا إنى أحبكم يا أهل أثينا، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم، ولن أمتنع مادمت حيا وما دامت لدى قوة عن الاشتغال بالفلسفة، وتعليمها للناس، وعن القيام بوعظ كل من ألقاه على طريقتى الخاصة».

وأعلنت نتيجة المحاكمة بعد إجراء الاقتراع فإذا بالأغلبية تقرر إدانته وتعده مذنبا، وكان القانون يخول له حق مناقشة العقوبة المطلوبة، واختيار العقوبة التى يرضاها لنفسه، ولكن سقراط أصر على رفض أى نوع من أنواع العقوبة لأن قبوله

أية عقوبة يتضمن الاعتراف بالذنب، وهو بحسب تقديره برىء من الذنوب، ومن حقه أن يثاب على ما يبذل من النصيحة وحسن التوجيه، ومن حقه على الدولة أن يعيش على نفقتها. وألح عليه أفلاطون وسائر الأصدقاء والأتباع بأن يضمنوا تعهده، ولكنه كان قد أغضب القضاة، وأثار نقمتهم عليه، فلما أخذ الرأى للمرة الثانية زاد عدد أصوات الذين حكموا بإعدامه!

حينئذ.. عمل تلاميذه على أن يمهدوا له السبيل للفرار.. والراجح ان قضاته كانوا يؤملون أن ينتهى الأمر على هذا النحو، لأن هدفهم الأصيل كان إبعاده عن أثينا والتخلص منه، ولكنه أبى الفرار، وعده نوعا من الخروج على قوانين بلاده التى يحترمها، وقد نشأ وعاش فى ظل تلك القوانين فكيف يرضى لنفسه أن يستهين بها ويخرج عليها؟ وجاءته زوجته باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها فأخذ يواسيها وطلب إلى اكريتون أن يصحبها إلى دارها، ولما قال له أحد تلاميذه المتحمسين «إنك لا تستحق هذه الميتة» أجابه سقراط: «وهل تريد أن استحقها؟».

ولما حان موعد الأجل، وبكر تلاميذه بالحضور. واتفق أن أفلاطون كان مريضا فى ذلك اليوم فلم يستطع الحضور، وكان سقراط يبدو منشرح الصدر، مطمئن النفس، واثقاً كل الثقة أن الموت انتقال من عالم الدثور والفناء إلى عالم الخلود والبقاء. ودار حديث بينه وبين بعض أصدقائه من الشبان أبدوا فيه ما خالجهم من الشكوك عن بقاء الروح بعد فناء الجسد، فأكد لهم أن الروح لا تولد مع الجسد ولا تفنى بفنائه، وإنما تشارك فى الأبدية الحق والخير.

وعند غروب الشمس ودعه حاكم السجن وهو يبكى لأنه لم يجد فى حياته سجينا أرق منه حاشية وأثبت جنانا. وجاء الحارس الذى يحمل جرعة السم، فتناول سقراط الكأس فى هدوء وشرب كل ما فيها دون أن يبدى أى تردد أو تقزز، وهكذا كانت خاتمة هذا الفيلسوف الكبير الذى ظل اسمه على كل لسان منذ خمسة وعشرين قرنا من الزمان، يضرب به المثل فى الحكمة والمعرفة.

سكوت، سير والتر

١٧٧١ ـ ١٨٣٢

من كبار كتاب المدرسة الرومانسية في العالم

حينما تأثر الأدب البريطانى بالنزعة الرومانسية التى سادت فرنسا وألمانيا خلال القرن الثامن عشر غلبت عليه فكرتان عظيمتان، الفكرة الأولى الشعر التاريخى، وجاءت الفكرة الثانية بالشعر الفلسفى، وقد مثل الفكرة الأولى أقوى تمثيل علمان من أعلام الأدب البريطانى وهما ولتر سكوت وسوزى، ومثل الفكرة الثانية ورد زورت وشيلى، وكانت هاتان الفكرتان أوربيتين، مثلهما فى فرنسا فيكتور هيجو ولامرتين ودى موسيه، وفى ألمانيا شيلر وجيتى وهيتى.

وقد ولد ولترسكوت فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٧١ بأدنبره، وكان والده أحد كتبة العقود والمواثيق لأمراء اسكتلنده، وهو منصب قضائى رفيع، وكانت والدته ابنة أحد أطباء ادنبرة، وكان هو تاسع أبناء الأسرة التى بلغ عدد أفرادها اثنى عشر، مات منهم الستة الأوائل فى باكورة طفولتهم.

وكان ولتر ضعيف البنية، وأصيب فى شهره الثامن عشر بصدمة شلل الأطفال أحدثت له عاهة فى إحدى ساقيه، فظل يظلع فى مشيته طوال حياته مثل خلفه ومعاصره الشاعر الكبير بيرون.

وقد وجد من بيئة أسرته وأسلوب تنشئته ودوافع غريزته ما حفز مواهبه، وأثار خياله، فقد كان والده شغوفا بالآثار وبخاصة آثار بلاده، وعالما بتاريخ الكنيسة وقوانين عهود الإقطاع.

وأرسل ولتر وهو فى الثالثة من عمره إلى أحد الضياع ليفيد جسمه العليل من الهواء النقى وعلاج ساقه الضامرة، وقد لف وهو عار من الثياب فى فرو شاة حديثة الذبح وجعل يثب وهو فى هذا الرداء بوصفه علاجا لما ابتلى به، وقد جعله هذا العائق الذى عاقه عن متابعة الحركة يتجه إلى القراءة ويمعن فيها.

وكان منذ نشأته شديد الإصغاء للأقاصيص والأساطير التى تروى له، وقد طبعت فى ذاكرته الواعية أخبار الحروب والوقعات التى حدثت فى اسكتلندة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان له من تلك الذكريات معين لا ينضب حينما عكف على التأليف، وكان وهو فى الثالثة عشرة من عمره يحفظ عن ظهر قلب بعض القصائد الحماسية، ويتغنى بها بصوت عال، ولكنه فى غير ذلك كان كسولا، ويجد صعوبة فى استيعاب الحقائق الجافة، وفى اليوم الذى اطلع فيه على مجموعة القصائد والمقطوعات الشعرية التى جمعها برسى من الشعر القديم نسى الإقبال على الطعام برغم الشهية القوية لابن ثلاث عشرة سنة، وحفظ الكثير من هذه المجموعة، وكان يتلو ما حفظ على مسامع أترابه فى الدراسة وغيرهم ممن يودون سماعها.

وبعد أن عمل كاتباً مع والده كان يملأ درج مكتبه بثمرات الخيال التى استطاع جمعها، وقوى ميله إلى أقاصيص البطولة الخيالية والحقيقية، وأصابه مرض شديد الزمه الفراش طويلا، ومنع من الكلام، فلم تكن له متعة سوى قراءة الشعر والقصص والروايات وكتب التاريخ والجغرافيا والاطلاع على الخرائط التى تصور وتبين مواقف الجيوش، وحينما استرد صحته واستطاع المشى جعل أكثر مشياته فى المناطق التى لها شهرة تاريخية.

ومع موالاته التجوال فى طلب المعرفة ظل خلال سبع سنوات يرحل فى كل سنة الى النواحى المقفرة النائية فى منطقة ليدز ديل الواقعة فى جنوب اسكتلندة يكشف كل جدول ويعرج على كل طلل دارس، وينام فى أكواخ الصيادين، ويجمع الأساطير والقصائد الحماسية التى تصف أعمال البطولة، وكان يقرأ الوثائق والمواثيق والعهود المحلية والأشعار اللاتينية وسجلات الكنائس، وحتى الوصايا والعقود.

وقد التحق سكوت بجامعة أدنبرة سنة ١٧٨٣ وحضر درس اللاتينى واليونانى

ومحاضرات المنطق، ولم يكن ميالا إلى دراسة اللغة اليونانية وتقدم بعض التقدم فى دراسة اللاتينى، وحصل على معرفته للفرنسية والإيطالية والإسبانية وأخيراً درس اللغة الألمانية، وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره بدأ يتدرب على الاعمال القانونية فى مكتب والده، ولم يكن أبوه راضياً عن اتجاهاته الادبية واشتغاله بحفظ الشعر ونظم بعض القصائد، وقام بترجمة بعض أشعار الشاعر الالمانى بيرجر إلى الإنجليزية وترجم بعد ذلك مسرحية «جوتس فون برليخنجن» التى ألفها الشاعر الالمانى الكبير جيتى إلى الإنجليزية.

وكان فى سنة ١٧٩٢ قد استدعى للعمل أمام المحاكم وظل أربعة عشر عاما يمارس هذه الوظيفة اسميا، وفى سنة ١٨٠٥ قدم للطبع «نشيد آخر المغنين» وخطر بفكره أن يكتب رواية تاريخية. وقد نجحت قصيدة «نشيد آخر المغنين» نجاحا لم يكن ينتظره سكوت، وبرغم أنه كان حينذاك فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره فإنه لم يكن قد وثق من ان مجال سبقه وتفوقه هو ميدان الأدب، ونظم بعد ذلك «مارميون» و«سيدة البحيرة» وعدة قصائد أخرى، ونجحت «سيدة البحيرة» نجاحاً تجاوز ما كان يؤمله، ورفعت مكانته، وصار فى طليعة شعراء عصره، وكان قد حاول قبل ذلك أن يكتب قصة نثرية، ولكنه أعرض عن المضى فى هذا السبيل حينما عرض بعض فصولها على أحد أصدقائه من النقاد، فأشار عليه بتركها لأنها تنم على عجزه فى كتابة القصة واحتفظ بها سكوت فى أحد أدراج مكتبه حتى وقعت عليها عينه مصادفة فى سنة ١٨١٢ وهو يبحث عن بعض أدوات الصيد فى مكتبه، فأعاد قراءتها، وعقد العزم على إتمامها وتقديمها للطبع.

ولقيت رواية «ويفرلى» نجاحا منقطع النظير، رسم لسكوت اتجاه حياته الأدبية بعد ذلك أخذت تتتابع رواياته التاريخية، وكانت تظهر فى أول الأمر خالية من اسم المؤلف وكأنما فتح له بها كنز ثمين.

وبدا يشترك سرا مع أسرة بلانتين أصحاب دار الطباعة، وقد نجم عن هذا الاشتراك بعد سنوات الكارثة المالية القاصمة التى ذهبت بكل ما جمع من مال واقتنى من ضياع، وركبه من جرائها دين ضخم جاهد السنوات الباقية من حياته فى سبيل تدبير المال الكافى لسداده، فأرهق نفسه، وأتلف صحته، وحملها ما لا يطاق من الجهد حتى قضى نخبه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٣٢.

وقد تناول فى رواياته التاريخية تاريخ أنجلترا وفرنسا وألمانيا والشرق الأدنى، ولكن تفوقه كأن يظهر حينما يتناول تاريخ اسكتلندة القريب العهد من عصره بوجه عام.

وقد وضع سكوت الأساس الذى بنى عليه كتّاب الرواية التاريخية بعده، ويقول المؤرخ البريطانى المعروف الدكتور تريفليأن «لقد صنعت الرواية التاريخية الكثير لجعل التاريخ شائقا مقبولا ولتمنحه قيمة، لأنها حركت الخيال التاريخى، والحقيقة أنها فى مدى مائة سنة غيرت تصورنا للماضى حينما بدا سكوت بقصائده الشعرية التاريخية ورواياته يحدث ثورة فى التاريخ».

والظاهر أن العنصر الأدبى لازم فى كتابة التاريخ، فإذا أبعد من ناحية احتال على الدخول من منفذ آخر، والشعور بالحاجة الماسة إلى هذا العنصر الأدبى هو الذى ساعد على ميلاد الرواية التاريخية، وكأن من أهم عوامل الرواج الذى ظفرت به روايات ولتر سكوت، وقد استطاع سكوت بخياله القوى وعطفه الشامل أن يعرض على قرائه صورا تاريخية نابضة بالحياة مكونة باللون المحلى حتى ساد الاعتقاد بأن التاريخ الذى يتعلمه الناس من روايات ولتر سكوت أصدق تصويرا، وأصح تحقيقا وأقوى فى النفوس تأثيرا من التاريخ الذى تحتويه الكتب الجافة المملة التى يخرجها المؤلفون المتخصصون بعد الإمعأن فى التحقيق، والتحذلق فى عرض الموضوع، وادعاء العلم الواسع والبحث العميق.

وفى روايات ولتر سكوت نرى النورمأنديين والأنجلو ساكسون والأسكتلنديين والإنجليز والصليبيين والمتطهرين قد أنتفضوا من قبورهم واستردوا حياتهم القومية العارمة وعواطفهم الجائشة الطاغية، وقد استرعى ذلك نظر المؤرخين، وجعلهم يعيدون النظر فى كتابتهم فقد كأنوا يغفلون فى كتاباتهم العناية باللون المحلى وإبراز خصائص العصور المختلفة، وكأن من أثر ذلك أن أصبحت كتابتهم غثة مملة جدباء خالية من الحياة، فلماذا لا ينتفعون بهذا العنصر الذى أدرك أهميته الروائيون وفى طليعتهم ولتر سكوت؟

وبرغم المكأنة العالية التى يلفها أدب ولتر سكوت وتأثيره البعيد المدى فى الأدب الأوروبى بوجه خاص والشهرة القليلة النظير التى حظى بها فى حياته، وتقدير الكثيرين من كبار النقاد وأعلام الأدب لأدبه، وعلى رأسهم شاعر ألمانيا

وأديبها العظيم جيتى، فإنه لم يسلم من النقد، وبعض هذا النقد كان غاية فى الشدة والقسوة، وإن كان أكثره قد أصاب الهدف وأطلعنا على نواحى الضعف والتهافت فى أدب سكوت، ومهما يكن من الأمر فإن تقدير النقاد لأدب سكوت بوجه عام لا يضعه فى المكانة العالية التى رفعه إليها معاصروه الذين كانوا يرون أن عبقريته وإنتاجه فى الشعر والرواية يؤهلانه لأن يوضع إلى جانب الشاعر البريطانى العظيم وليام شكسبير.

وفى أعقاب وفاته كتب عنه الناقد الفرنسى سانت بيف يقول من مقال موجز «كان سكوت فى وصفه للأخلاق غير متحيز ويعكس الحياة كما هى، ويصف الناس بأهوائهم وميولها والبيئة التى احتوتهم دون أن يقحم مشاعره أو أن يدخل شخصيته».

ومن كتاب القرن التاسع عشر الذين أنصفوا سكوت وأحسنوا تقديره الكاتب الأمريكى الكبير أمرسن، قال عنه «رأى النقاد أن شعر سكوت ليس سوى نثر منظوم، وإذا كانت أشعاره قد نجحت نجاحا جزئيا فأن رواياته قد نجحت نجاحا كليا، وقد كان من الطبقة الأرستقراطية، وكانت فيه فضائل تلك الطبقة ومفاتنها، ولكن إنسانيته العالية وإقباله على العمل جنباه عيوبها وأنقذاه من مساوئها، كان يخالط صغار المزارعين من جيرانه وصغار التجار والناس العاديين والرعاة وصائدى الأسماك وبنات المزارعين والسيدات العجائز، وهو فى تعدد شخصيات رواياته وتنوعها يقترب من شيكسبير، وبعض مصورى الشخصيات فى الشعر والنثر قدموا للأدب طرزا قليلة من الطبائع والاخلاق مثل سرفنتيز وديفو وريشلادسون جولد سمث وستيرن ومنايدبخ، ولكن سكوت كان يصور بقوة ونجاح كل شخصية فى الجمع الحاشد الذى يطالعنا فى رواياته، وقد أنقذه حسن تقديره من أخطاء الشعراء وضعفهم ومن أنانيتهم وشدة غيرتهم، وكان رجلا فى تصرفاته وأخلاقه، كان رجلا عاقلا مستقيما كبير القلب جباراً قديرا على منازلة الحوادث لا تزعزعه الخطوب، ولا تفل عزمه النوازل بل تزيده قدرة على الكفاح».

ويعلل فورستر بقاء شهرة سكوت بأنه كان يعرف كيف يروى القصة ويثير طبيعة القارئ.

سميث، آدم

١٧٢٣ ـ ١٧٩٠م

أبو الاقتصاد الحديث

يعتبر آدم سميث من أئمة الاقتصاد فى القرن الثامن عشر، وقد سماه البعض «أبو الاقتصاد الحديث» وإن كانت الموضوعات التى طرقها هذا المفكر غير جديدة على الجنس البشرى ـ اذ إن المعاملات الاقتصادية قد نشأت منذ أن وجد الأنسان على وجه البسيطة ـ فإنه قد تناول هذه الموضوعات من زاوية جديدة فكانت معالجته لها فاتحة عهد جديد فى تاريخ علم الاقتصاد.

فآدم سميث هو حقا مؤسس المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى ظهر فيها مفكرون وفلاسفة اتسموا بخط فكرى يكاد يكون موحدا أساسه حرية الفرد فى نشاطه السياسى وحريته فى أن يمتلك ما شاء له أن يمتلك من الثروة المادية التى تنقله إلى أعلى درجات المجتمع، وحريته فى أن يمارس التجارة الداخلية والدولية دون ثمة تدخل من جانب الحكومة.

كذلك فإن المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى هى وليدة آراء آدم سميث ثم ريكاردو من بعده هى أيضاً وليدة الثورة الصناعية واكتشاف قوة البخار فى تسيير العِدد والآلات، وهى وليدة المصانع الكبيرة والمنافسة الحرة بين الوحدات الاقتصادية المختلفة. وفى كلمة موجزة فإن المدرسة الكلاسيكية وليدة الرأسمالية المبكرة التى غلفت العالم الغربى منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن!

والمعروف ـ علميا ـ عن المدرسة الكلاسيكية أنها من تلك المراحل التاريخية التى نعم الناس فيها بالاستقرار وسكينة النفس وراحة البال، لا لشىء إلا لأن هناك توافقا بين المكتوب من جهة والواقع الاقتصادى الذى يعيش فيه الناس من

جهة أخرى.

ولد آدم سميث فى ٥ يونية ١٧٢٣ فى مدينة كيركالدى بأسكتلندا. وفى سنة ١٧٣٧ التحق بجامعة «جلاسجو»، حيث تميز عن أقرأنه فى دراسة الرياضيات والفلسفة.

وفى سنة ١٧٤٠ أوفد إلى أكسفورد لكى يعد لسلك القساوسة، وهناك درس اللغات وتذوق روائع الشعر الإنجليزى بجوار آداب اللغة اليونانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية. وبعد أن أقام سبع سنوات فى أكسفورد، لم يلق خلالها معاملة طيبة لشغفه بالاطلاع وتحرر فكره، تركها، رغم نصيحة أصدقائه، وعاد إلى كيركالدى ليعيش فى كنف أمه، وعدل عن اختيار سلك القساوسة. وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين أنتقل إلى أدنبرة وألقى محاضراته فى الأدب والبلاغة.

وفى سنة ١٧٥١ عين أستاذا للمنطق فى جامعة «جلاسجو» ونقل فى العام التالى أستاذا للفلسفة الأخلاقية فى نفس الجامعة خلفا لأستاذه فرنسيس هتشو. وكأن الاقتصاد السياسى يدخل ضمن دراسة الفلسفة.

وفى سنة ١٧٥٩ نشر كتابه الشهير «نظرية المشاعر الأخلاقية».

وبعد أن نشر سميث هذا الكتاب الذى أذاع اسمه فى أوروبا كلها، ولكن لم يطل المقام بآدم سميث فى جامعة جلاسجو ليحقق آماله فى البحث الفلسفى القانونى، اذ ترك الجامعة سنة ١٧٦٣ بعد سنوات أربع من إخراجه لكتاب «العواطف الأخلاقية» ورحل إلى فرنسا كمرافق ومعلم لدوق «بكليه». ولكن ما ترامى إلينا من دروس آدم سميث فى أواخر أيامه فى جامعة «جلاسجو» قبل رحيله إلى فرنسا، يدل على أنه قد رسم فى هذه الدروس الخطوط العريضة لكتابه الثانى «بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم» المعروف عادة باسم «ثروة الأمم».

أقام سميث فى «تولوز» ثمأنية عشر شهرا تمكن خلالها، بسبب علاقاته ببعض رجال السياسة من التعرف على النظم السياسية والاقتصادية السائدة فى فرنسا، وبعد رحلة له فى جنوب فرنسا وإقامة شهرين فى «جنيف» بلغ باريس حيث اتصل بمشاهير الفلاسفة السياسيين من «الفيزيوقراطيين» الذين كأنوا يسمون «بالاقتصاديين» ومنهم «كيناى» و«ترجو».

ثم عاد إلى «كيركالدى» ليعيش عشر سنوات يقضى معظمها فى البحث والتأمل ليتم كتابه الكبير «ثروة الأمم». ولقد كأن لإقامة آدم سميث فى «تولوز» أثرها فى تبلور أفكاره وتحديدها. أما إخراج الكتاب فى صورته النهائية فقد استغرق عشر سنوات طويلة قضى سميث معظمها فى عزلة وتأمل، وأن تخللتها زيارات للندن وأدنبرة أفادت فى تزويده بمعلومات وحقائق أفادته فى إخراج الكتاب على النحو الذى نعرفه.

وقد قسم سميث كتابه «ثروة الأمم» خمسة أجزاء أو خمسة موضوعات أساسية:

يعالج فى الجزء الأول أسباب تحسن القوى الإنتاجية العمالية وتوزيع الثروة على من أسهم فى إنتاجها.

ويخصص سميث الجزء الثأنى من كتابه لدراسة رأس المال ودوره فى العملية الإنتاجية فينادى بضرورة زيادته وتجميعه.

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد خصصه سميث لدراسة التنمية الاقتصادية والظروف الملائمة لها.

ويعمد سميث فى الجزء الرابع من مؤلفه إلى نقد بعض المدارس الفكرية التى سبقته.

أما الجزء الخامس فقد خصصه لرسم سياسة مإلية واقتصادية أمثل لزيادة الإيرادات المالية فى الدولة وترشيد الإنفاق.

وهو فى هذا لا يباعد بينه وبين الحرية الاقتصادية، وأنما يعمد إلى اقرار هذه الحرية فى ظل التجارة الدولية الحرة بين الدول على أساس تخصص كل دولة فيما هى أهل له فى الإنتاج ومبادلته بشكل حر مع إنتاج آخر لدولة أخرى تتمتع فيه بميزة إنتاجية مطلقة.

فكأن آدم سميث قد قضى أكثر من عشرين عاما فى الاستقراء والبحث والتفكير والتأمل ليخرج كتاب «ثروة الأمم» فى أوائل سنة ١٧٧٦. وقد ساعدته اقامته فى البيئة التجارية التى اشتهرت بها مدينة جلاسجو واتصالاته برجال الأعمال على تكوين فكرة حقيقية عن النشاط الاقتصادى. كما أن سفره إلى فرنسا واتصاله «بالفيزيوقراطيين» كأن له أثره فى تأكيد فكرته عن مزايا الحرية

الاقتصادية وأصالة النظام الطبيعى.

وبعد أن أخرج سميث كتابه بسنتين عين مراقبا للجمرك بأسكتلندا، وهى وظيفة ذات أهمية كبرى. وأنتخب فى سنة ١٧٨٧ مديرا لجامعة جلاسجو.

وقد قضى سميث الفترة الأخيرة من حياته مريضاً، واستطاع فى مرضه أن يعيد طبع كتابه «نظرية المشاعر الأخلاقية» بعد إدخال بعض الإضافات عليه. ولم يترك لنا آدم سميث شيئا آخر غير كتابيه الكبيرين فيما عدا بعض الأبحاث الفلسفية التى نشرت بعد وفاته سنة ١٧٩٥.



سوفوكليس

٤٩٦ ـ ٤٠٦ ق. م
شاعر المأساة اليونانية

فى عام ٤٦٨ ق. م أنتزع الجائزة الأولى للمأساة من اسكلس قادم حديث فى سن السابعة والعشرين يسمى سوفوكليس أى العاقل المكرم. وكأن سوفوكليس هذا أسعد الناس حظا ويكاد أن يكون أشدهم تشاؤما. وكأن موطنه الأصلى ضاحية كولونس إحدى ضواحى أثينا وكأن ابن صائع سيوف، ومن أجل هذا فأن الحروب الفارسية والبلوبونيزية التى أفقرت الأثينيين كلهم تقريبا جاءت لهذا الكاتب المسرحى بثروة طائلة. وكأن فضلا عن ثرائه رجلا عبقريا وسيما جيد الصحة نال جائزتى المصارعة والموسيقا ـ فجمع بذلك بين كفايتين لو شهدهما أفلاطون لاغتبط أشد الاغتباط بوجودهما فى رجل واحد وقد أمكنته مهارته فى لعب الكرة وفى العزف على القيثارة من أن يقيم حفلات عامة فى الفنين وكأن هو الذى اختارته المدينة بعد واقعة سلاميس ليقود شبأن أثينا العراة فى رقصة النصر ونشيده. وقد ظل محتفظا ببهاء طلعته إلى أواخر أيامه ويظهر تمثاله المحفوظ فى متحف لاترأن شيخا ملتحيا بدينا ولكنه قوى طويل القامة وقد نشأ فى أسعد عهود أثينا، وكأن صديقا لبركليز وشغل فى عهده أعلى مناصب الدولة فكأن فى عام ٤٤٣ أمين بيت المال الإمبراطورى، وفى عام ٤٤٠ كأن أحد القواد الذين تولوا قيادة قوات أثينا فى الحملة التى سيرها بركليز على ساموس وأن كأن من واجبنا أن نضيف إلى هذا أن بركليز كأن يعجب بشعره أكثر من إعجابه بخططه الحربية وعين بعد الكارثة التى حلت بأثينا فى سرقوصة عضوا فى لجنة الأمن العام واقترع بحكم منصبه هذا على عودة الدستور الالجركى فى عام ٤١١ وكأن الشعب يعجب بأخلاقه أكثر من إعجابه بسياسته فقد كأن ظريفا لبقا متواضعا محبا للهو وهب من قوة الجاذبية ما يكفر عن جميع أخطائه وكأن شديد الصلاح، وقد شغل

مرارا منصب الكاهن.

ولد سوفوكليس فى كولون عام ٤٩٦ ق. م وكأن والده سوفيلوس من أصحاب مصأنع الأسلحة فى أثينا ولما شب استقبل الحياة بقلب مرح وكأن من ذوى الفطر المرنة التى تنثنى ولا تتحطم وتقدر على أن تتلون بألوأن البيئات المختلفة التى تندمج فيها ولهذا لم تلبث مدينة أثينا أن صورته على الصورة التى أرادته عليها فكان أثينيّاً لحما ودما وقلبا وشعورا وذوقا وعقلا.

كلف منذ طليعة شبابه بالموسيقا فأخذ يدرسها ويختلف إلى مواطن توقيعها ويرافق حذاقها وذوى النبوغ فيها وكذلك شغف بالرياضة البدنية فعكف عليها فى نشاط حتى أجاد أهم تمريناتها.

ولما كأن جميل مليح التقاسيم خفيف الروح رشيق الحركات - فقد لفتت إليه هذه الميزات أنظار الجميع ولهذا عندما احتفلت أثينا فى سنة ٤٨٠ ق. م بأنتصارها فى موقعة «سالامينا» وقع الاختيار عليه ليرأس الجوقة المؤلفة من الشبأن للتوقيع على القيثارة ولم يكن بعد قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره فقام بهذه المهمة قياما يبشر بمستقبل زاهر فى عالمى الموسيقا والتمثيل، وبعد ذلك التاريخ بقليل لم يرهب أن يمثل دور «نوسيكا» ابنة ملك الفابكيأن فى الأوديسا ودور الشاعر الجوال ثاميريس الذى كأن يخاصم عرائس الشعر فى التوقيع على القيثارة.

على أن أهم العوامل التى كأنت تحتل رأسه احتلالا تاما هو التأليف المسرحى فأخذ يجد ويطلق العنأن لموهبته فى عالم الأقاصيص الغابرة يستلهمه الفن ويستوحيه القريض حتى استطاع أن يتقدم للمسابقة للمرة الأولى فى سنة ٤٦٩ ق.م ولم تكن سنه قد تجاوزت الثامنة والعشرين ففاز فيها بالأولية وهزم ايسخيلوس الشيخ.

ومنذ ذلك الحين إلى وفاته جعل يتقدم إلى المسابقة بأربع مآس مرة كل سنتين حتى روى أنه لم يفز أى شاعر بمثل ما فاز به من الأنتصارات لا فى الكم ولا فى الكيف إذ بلغ عدد المسابقات التى ظفر فيها بالأولية ثمأنى عشرة مسابقة فيما يروى ديودوروس وعشرين فيما تدعى الرسالة المجهولة المؤلف وأربعا

وعشرين فيما يحدثنا به سويداس وأيا ما كان فإنه - فيما خلا هذا العدد من المسابقات - لم ينزل فى أية مسابقة فى حياته عن الصف الثانى.

كان هو الذى يقوم فى شبابه بتمثيل الأدوار الأولى من مآسيه حسب التقاليد القديمة ولكنه لما تقدمت به السن وضعف صوته أسند هذا الدور الى حذاق الطبقة الأولى من الممثلين.

كان عهد نضوج سوفوكليس وسطوع كوكبه أسمى عهود أثينا فقد بلغت فيها قوتها الأوج، ووصل مجدها إلى القمة وتحولت فيها الحياة إلى جنة يانعة الأزهار دانية الثمار ولذلك شاهد هذا الشاعر فيما بين الثلاثين والستين من عمره سلطان كيمون يسمو ويتألق ثم ينطفى فيعقبه سلطان بيريكليس الذى يساهم فى تحقيق سؤدد هذه المدينة وإتمام علاها.

وأخيرا وبعد هذه الحياة الطويلة المليئة بالنشاط والإنتاج والظفر والسعادة والشقاء والمرح والأسى توفى فى سنة ٤٠٦ ق. م وكانت سنه تسعين عاما فرسم أحد الفنانين على قبره صورة إحدى عرائس البحر ذوات الأصوات الساحرة رمزا الى أثر شعره فى النفوس وليس هذا فحسب بل إن أثينا بنت له معبدا جعلت تقدم إليه فيه الضحايا فى كل عام على نحو ما تفعل لعظماء الأبطال.

لا يدرى أحد كم ألف سوفوكليس من المآسى بالضبط فقد أقر الناقد الإسكندرى «أريستوفانيس البيزنطى» مما نسب إليه منها مائة وثلاثا وعشرين مسرحية ووافقه «سويداس» على هذا العدد: ولكن الباحث الألمانى «داندروف» لم يثبت فى قائمته إلا مائة وخمسة عشر عنوانا.



سويفت

١٦٦٧ ـ ١٧٤٥م
صاحب الرحلات الخيالية

الطابع العام لأدب سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكره النافذ، وجرأته على جميع الأوضاع والقيم وإخضاعها للنقد العقلى. حتى لقد قيل إن نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة، يهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد، والواقع أن إطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضبا جائحا لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه. ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بنقد شديد، يخيل للناس فى أحيان كثيرة أنه يقطر مرارة. ولهذا السبب أيضا لا يوجه اهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء.

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى أنه طالب حقيقة، شديد الحماسة مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة متجلدا فى سخط لجميع الويلات التى تصيبه فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس. وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى سبيل شرف الإنسان باعتباره كائنا عاقلا، لا يهدر شرفه كل تكبيل وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ.

وفى كل مجال من المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفا معينا وموضوعا محددا ولا يخرج على هذه القاعدة إلا فى كتاب واحد ألا وهو «رحلات جليفر»، ففيه يتسع هدف سويفت اتساعا غير مألوف لديه، فهو دراسة السلوك البشرى من طرفيه المتناقضين ضآلة وضخامة. وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شيء كثير من السخرية التى لا تبعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة متناولا بالنقد السلوك الاقتصادى والتفكير العلمى ومناجع البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه.

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر. وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مسئم يعاوده.

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده ـ فمع أنه ولد لأبوين انجليزيين، فقد ولد فى أيرلندا وقضى هناك معظم حياته. وبدا فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج: أثر أسلافه وأثر بيئته. فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب. فقد أباه وسنه ستة شهور فإذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته. فهى لا تكاد تسمع بموت عم لها أخلفها تراثا فى انجلترا حتى تبحر فى سفينة دون أن تخطر سيدتها وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها. ولم يعد جوناثان الى أمه إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث، وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير للانجيل وكلف شيطانى باللهو والمزاح.

وفى السادسة التحق بمدرسة كلكنى والتحق فى الرابعة عشرة بكلية ترنيتى بدبلن وهنا أظهر شغفا بالمطالعة وانتفاضا على النظام. ولم ينل البكالوريوس إلا بشق الأنفس ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية لخلافه مع مساعد العميد فعاد إلى بلدته يجلله العار.

ولكنه وفق رغم ذلك فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل. وهو من أوساط الأدباء. وكان مستشارا مقربا إلى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لغط حاقد مريب الأب الطبيعى لجوناثان نفسه، وأتاح له المنصب عشرين جنيها فى السنة ومكانا على المائدة الثانية مع الخدم. فغنى السكرتير الألمعى جيبا

واضمحل شأنا. فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى. فإذا فرغ لنفسه - وقليلا ما كان يحدث ذلك - نسخ خواطره بالشعر غالبا.

ثم تغير عمل جوناثان سويفت. فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن. وسُر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى. ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيسة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيسة الانجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأيرلندى. ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب مهم فى كنيسة انجلترا، كانت الشىء الوحيد الذى ينكره عليه رؤساؤه أشد الإنكار. فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية، فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها فقد يلقى بأية قنبلة فى أية لحظة على عقيدة إخوانه فى الكنيسة. وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا، وان لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل).

ولم تنشر قصة البرميل إلا بعد ان مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف. وهذه القصة وإن يكن المقصود بها أن تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها، فإنها قد فشلت مع ذلك فى إرضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار أساقفتها، لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى. لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته إلى عيوب كنيسته. وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته وأنه بحاجة إلى أن يدارى وإلى أن يراقَب.

كان سويفت لا يبغى بعمله مالا. بل يبغى وظيفة كبيرة. وهذا ما عجز دائما عن بلوغه سواء من هارلى أو من سواه، غير إن اقامته بلندن وان فشلت سياسياً فقد كانت نصرا فكريا، فغدا سويفت الفارس المعلم فى مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للتبارز باللسان وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين جميعا. وإن لم يكن أكيسهم دائما. كان يضرب ضربات حادة فاصلة، وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد إلى الأيام حقا. قال أحد كُتاب سيرته:

«لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل. وقلة حظه من المرونة والكياسة».

كان ذهنه فذا فى الأذهان ولا يتلطف فى تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة.. وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال إلى سخف الواقع.

كذلك كان العميد سويفت ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس ذلك الأديب الذى يصفق لعبقريته والواعظ الذى يزدرى لصراحته والمعلم الذى يستشهد بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد. عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا. إنه لجبار عملاق مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام.

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية، رحلات جليفر، وبعث بمخطوط القصة فى ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ إلى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع ريتشارد سمبسون، زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال: لقد ائتمننى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط فى وصف رحلاته.. وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز. وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها أن هناك شيئا من التهكم فى موضوع أو موضوعين. ولكن الرأى متفق على أنها لا تجرح أحدا. ثم يمضى مستر سيمبسون فى خطابه فيعرض مائتى جنيه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ إلى الناشر.

ونشر الكتاب فى خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى فى أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جليفر على غباء الجنس البشرى الهمجى، فقد حسب كل امرئ أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب إنما المعنى جاره. فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل. لقد فشل فى تحقيق ما هدف إليه «أردت أن أغيظ الناس وأستثيرهم، لا أن أرفه عنهم وأسليهم». وقصة رحلات جليفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملىء بالباطل والزهو. ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه. اذن لقل الجشع وزادت الدماثة. وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس. وقلت القسوة وزادت الرحمة وقل البهرج وزاد المجد. وقلت الوقاحة وزادت الحكمة. كتب سويفت إلى اسكندر بوب يقول: «طالما حاولت أن أنشئ صداقة بين عقلاء الناس جميعا، وهم قل أن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة فى كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا العالم

أمامهم سوقا».

وقبل وفاته عام ١٧٤٥ كتب دعاء وجد بعد موته فى أوراقه التى لم تنشر «اللهم إنك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شىء... فوجه اللهم أفكارنا إلى ما نصبوا إليه من نعيم واصرفهم عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك أن نمنى به». كان دائم التفكير فى هناء الإنسان.. ذلك الساخر الذى واجه بنى الإنسان بالعداء والشحناء.



شاتوبريان

١٧٦٨ ـ ١٨٤٨م
زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى

كان الكاتب الفرنسى الأمع فرانسوا رينيه دى شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى من كبار الكُتاب العالميين، وقد امتاز فى عصره ببلاغه الأسلوب وبراعة الأداء وعمق الشاعرية والقدرة الباهرة على تصوير المشاهد والمشاعر وتعدد جوانب الشخصية بين مميزات الكاتب القدير المخلص فى أداء رسالته والتعبير عن آرائه ومعتقداته، وبين السياسى والدبلوماسى البارع الحريص على كرامته إلى الحد الذى حمل فيكتور هوجو على أن يقول عنه إنه فى الوقت الذى انحنت أوروبا جميعها أمام نابليون، كان شاتوبريان أحد الشعراء والمفكرين القلائل الذين وقفوا منتصبى القامة حينما ركع العالم جميعه على ركبتيه أمام البطل المنتصر ولم يكتف نابليون بغزو الدول التى غزاها وانتصر عليها، بل حاول كذلك غزو شاتوبريان ولكنه عجز عن ذلك، ولم يكن شاتوبريان يجهل عظمة نابليون أو ينكر بطولته ولكنه أبى مسايرته والانضمام إلى حاشيته حينما أبطرته السلطة، وأحالته حاكما مستبدا طاغية وقد تقلبت به الحياة بين الشدة واللين والعسر واليسر وظل فى الأحوال المتعارضة وفيا لآرائه ومعتقداته معتزاً بشخصيته وإبائه وكرامته، حتى رمى بفرط الكبرياء والاعتداد بالنفس، وأعانته تجاربه ورحلاته على إنتاج غرر التصانيف وروائع الأسفار طوال حياته الثرية المنوعة.

وقد ولد فرانسوا رينيه شاتوبريان فى سان مالو سنة ١٧٦٨ فى ليلة اشتد فيها عصف الرياح من ليالى شهر سبتمبر، بمقاطعة بريتانى الفرنسية ونشأ فى

قصر كومبور مهد أسرته العريقة وكان والده الكونت دى شاتوبريان من طبقة الأشراف الشديدة التمسك بالتقاليد وكانت والدته يغلب عليها الحزن ولا تكاد تعلو ثغرها ابتسامة؟

ولم يكن يقيم فى هذا القصر الموحش سوى والديه وأخته لوسيل وخادمتهم وكان بطبيعة الحال لهذه النشأة أثرها فى بث الاكتئاب الذى كان غالبا على مزاج شاتوبريان. ويقول شاتوبريان عن نفسه إنه أمضى طفولته على الشاطئ مع أستاذيه: الرياح والأمواج، وقد أرسل فى بادئ الأمر الى مدرسة دول ثم الى مدرسة الجزويت فى رنز وتبع ذلك فترة من التردد درس فيها فى برست ليعمل فى البحرية، ثم ألحق بكلية دينان ليكون من رجال الدين ثم ترك المشروعين وأعرض عن المحاولتين وأمضى عامين فى ضيعة الأسرة الاقطاعية فى كومبورج (١٧٨٤ - ١٧٨٦) مع والدته المريضة ووالده القليل الحديث وأخته لوسيل اللامعة الذكاء والعصبية المزاج. وكان للعامين اللذين أمضاهما فى هذه العزلة تأثير كبير فى تطور تفكيره وتكوين شخصيته، فقد عمقت عزلة الأسرة فى كومبورج نزعة الحزن الغالبة عليه، كما قوت جولاته المنفردة فى الغابات المحيطة بالمنطقة التى كان بها القصر الواسع الأرجاء، ميله الى الطبيعة وشجعته أخته لوسيل على كشف موهبته.

وفى سنة ١٧٨٦ ترك كومبورج فى شهر أغسطس لينضم الى فرقة نافار بوصفه ملازما ثانياً واستمتع بالحياة فى الجيش، لأنها كانت تتيح له فرص الاجازات التى كان يقضيها مع شقيقاته المتزوجات بمنازلهن فى مقاطعة بريتانى وفى فرساى حيث قدم البلاط وفى باريس حيث كان يجتمع بالكُتاب أمثال فونتين ولاهارب. واكتسب صداقة والد زوجة أخيه القاضى والوزير مالزرب وبتشجيع من مالزرب، عقد العزم على أن يقوم برحلة كشفية فى العالم الجديد. وفى ٧ أبريل سنة ١٧٩١ أبحر على السفينة سان بير ذات القلعين الى أمريكا.

وكان دافعه إلى مبارحة فرنسا والقيام بهذه الرحلة ضيقه بالأحوال من ناحية وطموحه من ناحية أخرى، ولم يكن راضيا عن اتجاه الثورة التى بدأت فى سنة ١٧٨٩، وخال أنه يستطيع أن يظفر بالشهرة والمال والمجد لفرنسا اذا استطاع أن يكتشف الطريق الشمالى الغربى بين أمريكا وآسيا وكتابه ملحمة عن المستوحش

النبيل، الذى كان يتوقع وجوده وهو يعيش فى حالة الطبيعة التى لم يشبها الفساد؛ ولكنه عجز عن تحقيق ما كان يحلم به: فحالما وطئت قدماه الأراضى الأمريكية وجد أنه تنقصه التجربة ويعوزه المال والأهبة والاستعداد للقيام بالرحلة الكشفية. وكان أول من لقيهم من المستوحشين فى إحدى الغابات يتلقون دروسا فى الرقص من أحد الخدم السابقين، والرحلات التى قام بها فى أمريكا منذ وصوله إلى بالتيمور فى ١١ يوليو سنة ١٧٩١ إلى عودته من فيلادلفيا فى ١٠ ديسمبر من السنة نفسها عرضة للشك ويبدو أنه رأى شلالات نياجرا والبحيرات العظمى وبتزبرج وليس من الأمور المؤكدة انه رأى أوهيو والمسيسبى وفلوريدا كما أكد بعد ذلك، ولكن مما لا شك فيه أنه أفاد من هذه الرحلة حصيلة من التأثر بالمناظر الطبيعية الأمريكية عظيمة القيمة وقد انتفع بها وأحسن الاستفادة منها فى قصتيه المشهورتين «آتالا» و«رينيه».

ويرجح أنه بدأ تأليف كتابه «الناتشيز» وهو فى أمريكا.

وأعفى من الجيش لما أصابه من مرض وجروح دامية مع التقدير لما أبداه من إقدام وشجاعة وذلك فى أكتوبر سنة ١٧٩١، وشق طريقه فى صعوبة وهو يعانى الألم إلى إنجلترا، حيث وصل فى مايو سنة ١٧٩٣ واستعان على تحصيل ما يقيم أوده بإعطاء دروس فى اللغة الفرنسية، والقيام بالترجمة وفى الوقت نفسه بدأ تأليف كتابه عن «الثورات القديمة والحديثة» وفى سنة ١٧٩٤ عين بوظيفة مدرس فى سفولك.

واضطر للذهاب إلى لندن وبها أخذ يتسلى فى عزلته ويعالج ما أصابه من الحزن والأسى وخيبة الرجاء بكتابة قصة «رينيه».

ولكن أول كتاب قدمه للطبع لم يكن الملحمة النثرية وإنما كان الكتاب الذى ألفه عن الثورات، وقد ظهر سنة ١٧٩٧ وأذاع اسمه فى أوساط المهاجرين فى لندن، وحينما ظهر كتاب «حرب الآلهة»، وهو قصيدة إلحادية من نظم الشاعر بارنى، حفز ذلك شاتوبريان إلى النهوض بالدفاع عن المسيحية فكتب رسالته عن النواحى الشعرية والأخلاقية الجميلة فى الديانة المسيحية، وكانت هذه الرسالة هى الأساس الذى أقام عليه كتابه الذى اشتمل على مجلدين عن «عبقرية المسيحية».

ويرى المؤرخ البريطانى الكبير جـ . ب جوش أن سنوات حكم نابليون، كانت سنوات جدب أدبى وأن كتابات شاتوبريان كانت تطلق ينابيع العواطف وتوسع آفاق الخيال وتثير الحماسة التاريخية، وأن ازدهار الدراسات التاريخية فى فرنسا بعد عهد الثورة يرجع الفضل فيه إلى شاتوبريان قبل أى انسان آخر وقد أكمل فى الأدب رسالة روسو وبيرناردين دى سان بيير، وأعظم ما أداه للتاريخ هو أنه فتح أبواب العصر الوسيط.

وفى ١٨١١ اختير شاتوبريان عضوا فى الأكاديمية الفرنسية؛ ولكنه فى الخطاب الذى أعده للإلقاء عند استقباله أشار إلى ذكريات عن الثورة ضايقت نابليون ولما رفض أن يقرأ الخطاب، تأخر دخوله الأكاديمية إلى عهد عودة الملكية.

وفى سنة ١٨١٤ كتب رسالة شديدة اللهجة عن نابليون والبوربون، واختاره لويس الثامن عشر وزير دولة ولم يمنعه ذلك من كتابة رسالة فى نقد النظام الملكى. ولم تتحسن العلاقات بينه وبين النظام الملكى الا فى سنة ١٨٢٠ بعد موت الدوق دى برى وقد اختير فى السنة نفسها سفيرا لفرنسا فى برلين ثم سفيرا فى إنجلترا سنة ١٨٢٢، وقد أسهم فى إنهاء الحرب الإسبانيه بوصفه وزيرا للخارجية، وفى سنة ١٨٢٤ عاد إلى صفوف المعارضة وأعلن خصومته لوزارة فيلليل وكتب فى جريدة الديبان مدافعا عن حرية النشر واستقلال اليونان واكتسب بذلك شعبية وأعيد طبع كتابه «الناتشيز» وكتاب «آخر أيام بنى سراج» ورحلاته فى أمريكا.

وحينما سقطت وزارة فيلليل اختير سفيراً فى روما فى سنة ١٨٢٨؛ ولكنه قدم استقالته حينما جاءت وزارة بولنياك وبعد ثورة ١٨٣٠ دفعه وفاؤه لشارل العاشر إلى أن يقف موقف المعارض للملكية الجديدة. ومن هذا الوقت بدأ يعيش حياته الخاصة مكتفيا بكتابة بعض مقالات فى الصحف، ناقدا الحكومة الجديدة وموزعا وقته بين بعض الأعمال الأدبية وزيارته لصديقته القديمة مدام ريكامييه وقام بترجمة الفردوس المفقود التى نظمها ميلتون إلى اللغة الفرنسية، وأتم كتابه الذى اشتمل على ترجمة حياته، وهو كتاب «مذكرات ما وراء الرمس» وقد توفى فى ٤ يوليو سنة ١٨٤٨ ودفن حسب وصيته فى جزيرة جران بيه الواقعة أمام سان مالو.

شكسبير

١٥٦٤ ـ ١٦١٦م

أعظم كاتب مسرحى فى العالم

بلغت انبعاثات عصر النهضة فى إنجلترا ذروة ازدهارها أثناء حكم الملكة اليزابيث الأولى الذى امتد من عام ١٥٥٨ حتى عام ١٦٠٣، فقد خرجت إنجلترا اذ ذاك من ظلام العصور الوسطى، ومن عزلتها وأصبحت فى عداد الدول العظمى خصوصا بعد هزيمة الأرمادا الإسبانية.وإبان هذا التحول الخطير تألقت عبقرية رجل أصبح اسمه يطرق كل سمع فى إنجلترا بل صار فى الصف الأول بين الأدباء العالميين، وقدر له أن يكون أحد مفاخر بريطانيا ومن أبرز أعمدة تراثها القومى.

فمنذ حوالى أكثر من أربعة قرون واسم وليام شكسبير يلمع كأكبر كاتب مسرحى، وتحتل مسرحياته مكانا مرموقا فى دور التمثيل ويزداد يوما بعد يوم عدد المستمتعين بمسرحياته التى ترجمت إلى معظم لغات العالم.

ويرجع الفضل فى دوام شهرته إلى أن مسرحياته زاخرة بالمواقف الصادقة والشخصيات الحية، كما أن لغته صالحة للقراءة أو الاستماع إليها، وكذا الأداء التمثيلى... والأهم من ذلك أن شكسبير يعد كاتبا إنسانيا عالميا تعمق فى دراسته للمجتمع وتفهمه.

فكوميدياته حافلة بمواقف الغرابة وشخصياتها مرحة، أما الحوار فيمتاز بملاحة النكتة وسرعة الخاطر، ويؤثر تأثيرا قويا على مشاهديها وينقلهم إلى عالم مفعم بالفرح والسرور.

وتراجيدياته وإن كانت تدعو إلى الحزن والأسى فإنها تأخذ بمجامع القلوب وتحرك المشاعر وتهزها هزا عنيفا وتوقظ فى النفوس والعقول التأمل والتفكير

العميق فى جوانب الحياة حلوها ومرها.

ولد وليام شكسبير أعظم شعراء إنجلترا فى بلدة «ستراتفورد» على نهر أفون بإنجلترا فى السنة السادسة لحكم الملكة اليزابيث الأولى يوم ٢٣ أبريل ١٥٦٤، وكان الطفل الثالث لأبويه بعد بنتين ماتتا قبل ولادته ثم رزقا من بعده ثلاثة صبية وبنتين، مات معظمهم فى سن الصبا وقد نجا شكسبير نفسه بأعجوبة من وباء الطاعون الذى أصاب ستراتفورد بعد سنة من مولده.

كان والده «جون ريتشارد شكسبير» وهو من خاصة الناس يعمل فى التجارة والزراعة فى ستراتفورد التى اتخذ منها موطنا له منذ عام ١٥٥٢، وكان يشغل مركز شيخ البلد منذ عام ١٥٦٥ ثم ارتقى إلى وظيفة العمدة عام ١٥٧١، وقد حالف الرجل سوء الحظ منذ عام ١٥٨٦ فكسدت أعماله وتدهورت حالته المالية، وتخلى عن وظائفه وأشرف على الافلاس بعد أن فقد معظم ثروته فى أخريات حياته التى اختتمها عام ١٦٠١ وترك لابنه وليام أملاكا ضئيلة مما اضطره إلى أن يعول نفسه وهو ما يزال فى سن مبكرة.

أما والدته «مارى روبرت آردن» فقد انحدرت من أسرة شريفة ينتهى نسبها إلى الملك ألفريد الكبير، وهى أرقى من أسرة زوجها وكان والدها من أصحاب الأملاك الواسعة وقد خلف لها معظم ثروته، بيد أن هذه الثروة ضاعت فيما بعد أيضا.

التحق شكسبير وهو فى السابعة من عمره بمدرسة ستراتفورد التى اشتهرت باسم «مدرسة الأجرومية الحرة» وبقى فيها حتى سن الثالثة عشرة حيث درس العلوم الأولية واللغة الإنجليزية وعلم البيان والمنطق والتاريخ واللغة اللاتينية وقليلا من اليونانية وجانبا من الآداب القديمة اليونانية واللاتينية.

ويُعتقد أن شكسبير حصل على معلومات واسعة فى علم الإحياء وعن الألعاب الرياضية والتجارة والمبادلات وحياة أهل الريف والحضر وهواية الصيد والقنص وفنون الرقص والموسيقى وغير ذلك من فروع الرياضة والفنون، كما درس الكيمياء والفلك والطب والقانون، فاجتمعت له ثقافة مستفيضة سواء من قراءاته الحرة أو ملاحظاته الثاقبة للعالم المحيط به. كما كان للمناظرالطبيعية فى مسقط رأسه من

ريف جميل وحدائق وغابات وأنهار تأثيرها القوى فى نفسه. إذ ظهر أثرها جليا فى شعره فيما بعد.

وتكتنف حياته الغموض فيما بين عام ١٥٨٣ و١٥٩٢ ويقال إنه عمل خلالها معلما بإحدى المدارس الريفية وبمكتب أحد المحاميين وبأملاك أحد الأغنياء أو انضم إلى فرقة تمثيلية جوالة.

ومما يقال كذلك إنه سافر فى رحلات خارجية إلى أوربا والشرق، ويحتمل أنه كان يتردد على جامعة أكسفورد للدراسة خلال هذه الفترة من حياته.

ومن المؤكد أنه كان مقيما فى لندن عام ١٥٩٢، وانه صار معروفا للجمهور كممثل وكاتب مسرحيات فى فرقة الايرل أوف لستر، وأصاب نجاحا سريعا، وكانت سنه آنذاك ثمانية وعشرين عاما.

وفى الفترة بين عام ١٥٩٢، عام ١٥٩٤ أغلقت مسارح لندن بسبب انتشار وباء الطاعون فكتب شكسبير خلالها بواكير أعماله الشعرية من النوع المعروف بالسرنيت فلما لاقت نجاحا باهرا تفتقت عبقريته عن قصيدتين قصصيتن طويلتين من الشعر الوجدانى الأولى هى «فينوس وادونيس» عام ١٥٩٣ والثانية هى «اغتصاب لوكريس» عام ١٥٩٤. ومنذ أن ظهرت هاتان القصيدتان توطدت مكانته كشاعر.

وقد منح والده - تقديرا لخدماته - رتبة عام ١٥٩٦ رفعته إلى طبقة السادة والنبلاء وكان لها أثر بالغ الأهمية بالنسبة لشكسبير كممثل، فقد كان الممثلون فى تلك الأيام يسلكون فى طبقة المجرمين والمتشردين، وكان حصول والده على هذا التكريم بمساعى وليام الذى صار له أصدقاء كثيرون من النبلاء وفى حاشية الملكة اليزابيث، وقد كانت هى نفسها مغرمة بشعره يرويه هو نفسه لها، وبمشاهدة تمثيلياته التى تقدم على مسرح البلاط.

وفى عام ١٦٠٧ أصبح شكسبير عضوا فى جماعة كُتاب العصر العظماء وهذا النادى الأدبى أسسه السير «والتر رالى» وكان رئيسه الروحى هو «بن جونسون» وكان شكسبير ألمع أعضائه لدماثته ونبوغه وكثيراً ما كانت تنشب مساجلات بينه وبين بن جونسون الذى دأب على نقده بقسوة ومع ذلك فقد كان يكن له أبلغ تقدير

وقرظه بقصيدة مشهورة مفعمة بأحاسيس وعواطف صادقة.

ومن العجيب أن يوم وفاته كان مطابقا لتاريخ مولده - ٢٣ ابريل ١٦١٦ - بعد أن مرض مرضا قصيرا عن اثنين وخمسين عاما.

وقد حزنت الأوساط الأدبية آنذاك لفقده وعبر عن كامل الإعجاب به والتقدير له معاصره الأديب «بن جونسون» فقال «... إنه كان ذا طبيعة رحبة، وذا خيال ممتاز وأغراض شريفة، وتعبيرات رشيقة وكان ذكاؤه طيعا لإرادته».

وبعد خمسة وستين عاما على وفاة الشاعر سجل حياته المؤرخ الانجليزى «جورج اوبرى» أول المترجمين لسيرته فوصفه بأنه «مليح الوجه ذو هيئة حسنة، حلو المعشر، وديع النفس، رضى الخلق، حاضر النكتة، لماح البديهة، خصب القريحة». ثم ظهرت سيرة دقيقة لحياته بعد وفاته بمائة عام من قلم المؤرخ البريطانى نيقولاس راو.

كما قرظه غيره من كبار رجال الفكر فى بريطانيا منهم.. جون ملتون، وجون دريدن، والكسندر بوب، وصمويل جونسون، وتشارلس لام، وتوماس كارليل وماكولى، ومن الألمان لسنج وهريدر وجوته وشليجل الذى وصفه بأنه «المارد المسرحى الذى يقتحم السماء».

ويرجع الفضل فى ذيوع صيته وانتشار أعماله فى العالم إلى ما قام به «فولتير» بدءا من عام ١٧٣٣ من توجيه الأنظار اليه فيما وافى عام ١٧٤٦ حتى طبقت شهرته الآفاق خارج وطنه. وحتى وقتنا هذا يتوالى صدور كتب لدراسته لا تقع تحت حصر.

ومع أن شكسبير يعد خاتمة أعلام عصر النهضة فى إنجلترا، إذ أنه ظهر فى الحقبة الأخيرة لهذا العصر الا أنه أعظمهم على الإطلاق فبفنه تبلور التراث الأدبى لعصر النهضة وتركز فى المسرحية التى جعلها فنا مستقلا بذاته وبها تألق الأدب الانجليزى وسبق غيره من الآداب الأوربية التى لمستها عصا النهضة السحرية فى هذا المضمار بل سبق غيره من فنون الأدب كالشعر والنثر والقصة التى تأخر ظهورها فى إنجلترا إلى القرن الثامن عشر، فهو بذلك عملاق الأدب الإنجليزى فى عصر النهضة ورائد المسرحية الحديثة فى العالم بأسره على الإطلاق.

المؤلفات الشكسبيرية

كتب وليم شكسبير - الذى أجمع النقاد فى كل بلاد العالم على انه سيد كتاب المسرحية الشعرية فى كل العصور - سبعا وثلاثين مسرحية: بعضها من الملاهى أو الملهيات - كما يقول البعض - وهى: «ترويض الشرسة» و«العبرة بالخواتيم» و«الليلة الثانية عشرة» و«حكاية الشتاء» و«العاصفة»و «سيدان من فيرونا» و«زوجات وندسور المرحات» و«صاع بصاع» و«ملهاة الأخطاء» و«جعجعة ولا طحن» أو «لجاج فى غير طائل» - و«حلم منتصف ليلة صيف» و«عناء الحب الضائع» و«تاجر البندقية» و«كما تهوى».

وبعضها من المسرحيات التاريخية، وهى:

«حياة الملك هنرى الخامس» و«الملك هنرى السادس» جزء أول وثان وثالث، و«حياة الملك جون وموته» و«حياة ريتشارد الثانى وموته» و«الملك هنرى الرابع» جزء أول و«حياة ريتشارد الثالث وموته» و«حياة هنرى الثامن» و«هنرى الرابع» جزء ثان.

ويقول المؤرخون أن مسرحيات شكسبير جميعا - سواء ما كان منها تاريخيا، وما كان من نوع المأساة، أو من نوع الملهاة - مأخوذة عن أصول معروفة أو مجهولة، وأنه لم يكن له فضل ابتكار موضوع واحد من موضوعاتها.. غير أن هذا لا يقلل من قدر شكسبير كمؤلف مسرحى يعد فى القمة بين من ألفوا للمسرح فى جميع العصور والأزمان. ويرجع هذا إلى أن شكسبير كان يتناول الموضوع من أى مصدر من المصادر، كما يتناول البناء مواد البناء فيشيد منها بناء ضخما منيفا من تصميمه هو، ومن صنع يديه وحده.

كان يتناول الأسطورة أو القصة أو النادرة التى قرأها أو سمعها، فيصنع منها مسرحية جديدة تمتاز بأسلوب انفرد به وحده دون كل المؤلفين. وكان يتناول الشخصية التى رسمها غيره مهزوزة أو ناقصة أو غير متكاملة، فيقومها ويبث فيها الحياة، وينطقها بعبارات حية نابضة، فإذا بها بشر سوى له طباعه وشخصيته وأسلوبه فى حياته.

وشخصيات مسرحيات شكسبير كلها، أو جلها، لا تتبادل الحديث إلا شعرا، ولكنه شعر لا مثيل له فى حيويته وفى تلونه. ولما كان المسرح الاليزابيثى لم يعرف المناظر المرسومة التى تصور المكان الذى تجرى فيه حوادث المسرحيات، فقد استخدم شكسبير شعره فى وصف تلك المناظر، وأجرى على ألسنة شخصيات مسرحياته عبارات شعرية وصفية كانت تنقل إلى مخيلات المتفرجين صورا قوية واضحة للأمكنة التى تدور فيها الحوادث. وكم من موقف فى أكثر من مسرحية استطاع فيه شعر شكسبير القوى المعبر أن ينقل مخيلات المتفرجين إلى غابات وحدائق تشبه الجنان، كما فعل فى ملهاة «حلم منتصف ليلة صيف» عندما وصف المكان الذى تقضى فيه «تيتانيا» جزءا من الليل.

وفى كثير من الأحيان كان شكسبير يستخدم الشعر لغرض خلق جو خاص لموقف من المواقف، كما فعل عندما أجرى على لسان الملكة «جرترود» وصفا حيا مؤثرا لموت «أوفيليا» فى مأساة «هملت»، وكما فعل فى مسرحية «حكاية الشتاء» عندما أراد تصوير الفرحة التى تشبه الربيع، فأجرى على لسان برديا حديثا عن الزهرة يكاد يرقص رقصة الفرح والحبور.

ولم يقتصر استغلال شكسبير لملكته الشعرية الخصبة على هذين الغرضين، بل جعله أداته إلى تعريف شخصيات مسرحياته نفسها، وإلى الكشف عن أفكارها الداخلية وحقيقة مشاعرها... انه يبيح لهذه الشخصيات دائما التفكير بصوت عال، وفى أثناء هذا التفكير الناطق يتيح للمتفرج فرصة فهمها وتحليلها من خلال إستماعه إلى أبيات الشعر المرسل البليغ الذى تردده، كما فعل عندما جعل «مكبث» يفكر بصوت عال، مصورا للمستمع كيف أثرت جرائمه فى نفسه حتى سلبته لذة الشعور بمعنى الحياة، وكما فعل فى مواقف كثيرة من مسرحية «هملت».

وقد برع شكسبير براعة غير محدودة فى رسم النماذج البشرية على أسس من الخبرة والتجربة لا تتاح الا لعبقرى موهوب، ولا نقول على أسس من علم النفس، لأن ذلك العلم لم يكن قد عرف بعد فى عهد شكسبير، وان كان هو قد عرفه، وبرع فيه... حتى أن بعض الشخصيات الشاذة أو المنحرفة التى صورها أصبحت فيما بعد أساسا من الأسس التى قام عليها علم النفس الحديث... من

هذه النماذج المدروسة فى دقة وعمق شخصيات «هملت» و«الملك لير» و«ليدى مكبث» و«عطيل» وغيرها.

قال «توماس كارليل» فى حديثه عن شكسبير:

«لو خيرت إنجلترا بين التخلى عن أقطار الهند أو مؤلفات شكسبير، لو أكرهتها الأحداث على هذا التخير، لما ترددت فى أن تستبقى آثار شكسبير وتتخلى عن الهند».



شو، برنارد

١٨٥٦ ـ ١٩٥٠

أعظم الكتاب المسرحيين الإنجليز

مع إشراقة شمس كل يوم.. يولد ملايين الناس فى مختلف أنحاء العالم.. ويعيشون حياتهم.. ثم يمضون.. دون أن يحس بهم أحد، ودون أن يخلفوا وراءهم شيئا يذكرهم به الناس أو يتركوا أية «بصمة» أو علامة مميزة على وجه الحياة.. وبين الحين والآخر، يولد بعض الناس وهم على موعد مع القدر، ليكون مولدهم إيذانا بفترة خصبة فى مسيرة البشرية.. حافلة بالخلق والإبداع والعطاء.. وتبقى ذكراهم بعد رحيلهم حية ماثلة فى أذهان الناس، وتبقى أعمالهم وإنجازاتهم خالدة على مر الأجيال.. تذكر الناس بهم، وتؤكد تفوقهم وتميزهم.

إن العظيم لا تنتهى حياته بموته.. ولا يسدل الستار على سيرته بمجرد أن يكف قلبه عن النبض والخفقان وتسكت أنفاسه، ولكنها تمتد فى ضمائر الناس جيلاً بعد جيل، متمثلة فى عطائه وإنجازه المبدع، الذى يحمل كل مقومات الخلود والبقاء.

والأديب.. والفيلسوف.. والكاتب الكبير جورج برنارد شو واحد من هؤلاء العباقرة الذين كتبوا لأنفسهم الخلود، بما أبدعت أذهانهم، وجادت به قرائحهم، وبما خلفوا من تراث رائع ونتاج عظيم، وفكر مؤثر فى مسيرة البشرية.

ولد برناردشو فى دبلن عام ١٨٥٦ وعاش فى لندن منذ عام ١٨٧٦ ثم توفى عام ١٩٥٠.

ولقد بدأ حياته الأدبية ككاتب للقصة، ولكنه لم يحرز نجاحا فى هذا الميدان، فكان من الطبيعى ليكسب عيشه أن يتجه اتجاها آخر، ومن ثم فقد بدأ شهرته كناقد أدبى يوجه نقده على صفحات الجرائد متناولا فيه الكتب والموسيقى والرسم والمسرح.

وفى عـام ١٨٩٢ بدأ شـو اتجـاها جـديدا وهو التـأليف المسـرحى، وشـقت مسرحياته طريقها إلى المسرح بالكيفية الآتية:

فى عـام ١٨٨٩ عـرضت مسـرحـية: «بيت الدمـيـة» للكاتب النرويجى «هنريك ابسن» ثم تلتهـا مـسـرحـيـة الأشبـاح لنفس الكاتب ثم بدأ «المسرح المستـقل» وهو المسـرح الذى كـانت تعـرض عليـه هـذه المســرحـيـات فـى البـحث عن مـؤلفـات إنجليزيةالجنسية، غير أنه لم يوفق فى العثور على أية مسرحية كتبها قلم إنجليزى لحما ودما حتى عام ١٨٩٢.

وكان شو بالنسبة لاتصالاته الأدبية كناقد فى هذا المجال، على علم بما يجرى فى هذا الشأن، فبادر بعرض استعداده لتقديم مسرحيات من مؤلفاته. وبعد أن حصل على الموافقة بدأ يعيد النظر فى كتاباته التى ألفها ولم تر النور. ثم وقع اختـيـاره على مسـرحـيـة «بيت الأرامل» التى كـانت سـبـبـا فى ذيوع اسـمـه ككاتب مسـرحى، فهذه المسرحية صفق لها الاشتراكيون والمستقلون لمناصرته مبادئهم. وغضب الجانب الآخر لمناوأته لهم. وكان عرض هذه المسرحية كما يقول برناردشو نفسه فى المقدمة التى افتتح بها مسرحياته الثلاث التى أسماها Play Unpleasant «اننى لم أحرز نجاحا ولكننى أثرت ضجة».

وكانت المسرحية التالية التى كتبها شو «مهنة مسز وارن».. التى بناها على مشكلة اجتماعية فى منتهى القسوة. فبطلة هذه المسرحية «مومس».. وقد أثارت هذه المسرحية اشمئزاز المتظاهرين بالمثالية الاجتماعية فى حين أنها كانت ضربة فى الصميم لمجتمع يسوده الفقر الذى يدفع لأبشع الجرائم سعيا وراء المال الذى هو صلب الحياة فى المجتمع البشرى.

وبسبب الموضوعات التى تدور عليها مسرحيات شو لم تخف حدة المعارضة التى تقابل بها مسرحياته. قبل اثنى عشر عاما من بدء عرضها، لم يكن اختيار شو لتلك الموضوعات مجرد نقاش لمشكلات موجودة، وإنما إيمانا بمبدأ معين لا يفصح عنه للقارئ بطريقة مباشرة، وإنما يبلور الأخطاء التى تنتج عن الإيمان بضد هذا المبدأ والسير فى الطريق المضاد.

ويسير شو فى هذا الاتجاه الاشتراكى الذى يتعارض مع مجتمعه الرأسمالى ويندمج فى الحركات الاشتراكية التى ظهرت فى ذلك الوقت إلى أن أصبح أحد القادة العاملين على تعريف المجتمع الاشتراكى فى لندن، وهو لم يكتف لنشر مبادئه فى هذا الميدان بالخطابة ونشر الكتيبات وإنما كان فى الوقت نفسه رجل اقتصاد وفيلسوفا خطيرا.

وحينما نحاول أن نتحدث عن مسرحيات شو الفكرية، يجدر بنا أن نتحدث عن آخر محاولاته وهى مسرحية «كانديدا» التى كانت الحد الفاصل بين هذا النوع من المسرحيات، ومسرحيات المناقشة Gram Discussion التى تلتها.

ومما يقوله برنارد شو عن نفسه، ويتضح فى انتاجه الأدبى، أنه لا يتذوق ما يسمونه بالأدب الشعبى، ولا يحترم القيم الاجتماعية، ولا يؤمن بالدين كما يسود فى المجتمع، ولا يعجب بالأبطال المعروفين. وهو كآدمى يكره العنف والقتل، سواء كان فى الحرب أو الرياضة أو عند الجزار، ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نشير إلى أن شو عاش طيلة حياته نباتيا لم يذق فيها طعم اللحم.

ومما يقوله شو عن نفسه أيضاً إنه رجل اشتراكى، يحتقر التكالب على المال، ويؤمن بالمساواة على أنها الأساس الوحيد الناجح فى مجال التنظيم الاجتماعى، ويؤمن كذلك بالنظام، والأخلاق الحميدة، واختيار الشخص الكفء للمنصب الهام، ولهذا فقد كان شو يرى أنه من المستحيل أن يتناول فى كتاباته الموضوعات التى يعجب بها الناس، بل إننا نلمس روح التحدى للمجتمع الذى لا يرضى عنه شو واضحة فى اختياره لموضوعاته، وليس فقط فى طريقته الأدبية لمعالجتها.

لم يتقبل شو أيا من القيم الأدبية المتبعة فى عصره، فكان مما كتبه فى هذا الشأن ما تضمنه كتابه عن «هنريك ابسن» الذى يرى فيه أن كُتاب المسرح الذين اعتادوا تقدير المسرحية بمدى ما تثيره من دموع أو ضحكات يقومون ببذل أقصى جهد ممكن. وهم يجازفون باستبدالهم الكوارث والأحداث التاريخية بالمفاجآت والقتل والمبارزة والمؤامرة التى أصبحت مبتذلة فى المسرح. ويروى شو أنه لم تعد هناك فرصة للنجاح أمام أية مسرحية لا تتخللها الموسيقى سوى المسرحية الفكرية. وما يعنيه شو بالمسرحية الفكرية ليس تجريد المسرحية من عناصرها

الأساسية وجعلها قائمة فقط على الحوار السليم، وإنما يعنى على حد قوله استبدال التكنيك المستعمل، والذى لا يصلح سوى لقاعة محكمة أو مناقشة عامة يتم فيها تبادل الاتهامات باستعمال كل ما فى جعبة الخطيب من فن.

ولهذا فإن نظرية شو المسرحية تبدو من الناحية الإيجابية دفاعا عن المسرحية التى تعتمد على الحوار، ومن الناحية السلبية هجوما على جميع أنواع المسرحيات الأخرى، وذلك لأن شو تجرى فى دمائه روح النقد الأدبى القديرة على ايجاد أخطاء لكل مالا يتفق مع اتجاهاته.

وتتلخص نظريته فى أن جميع عناصر المسرحية التقليدية القديمة يجب أن تلقى جانبا ما عدا الحوار، أى الكلام الذى يدور بين الشخصيات، وما تبقى بعد ذلك يسمى «المسرحية الحديثة».

ويرى شو أن أرفع أنواع المسرحيات ما تكون من وحدة واحدة، وغالباً ما تتكون تلك الوحدة من حادث واحد معقد للغاية. ولهذا نجد أن معظم مسرحياته ليست مسرحيات بالمعنى الكلاسيكى ولكنها أخلاقيات تقدم الأفكار المتعارضة والمثل المتضاربة فى ذلك العهد. وما يهتم به شو ليس الأحداث وإنما رد فعل الأفراد لتلك الأحداث. ومعظم مسرحيات شو عبارة عن الانتقال من موضع لآخر، انتهاء بالإيمان القديم وميلاده الحديث.

ولا يجهل أحد أسلوب شو فى معالجة ما يتناوله من موضوعات، وهو أسلوب ساخر لا يتخلى عنه، ولا يفتقده القارئ فى أى فقرة من مسرحياته.

إن شو ينقل المأساة الاجتماعية مبتعدا عن تصوير حدة ألم المعاناة، فهو ينقل الصورة بطريقة المتفرج الذى لم يتأثر لدرجة فقدان الروح المرحة. ولهذا نجد أن مسرحياته مزيج من الفكاهة والسخرية، وهو قاس على الطبيعة البشرية، ولكنه مندمج فيها.

وأخيرا فبرنارد شو لا يمجد الإنسان فى مسرحياته، وإنما يحثه على فحص نفسه واحتياجاتها وعواطفها وضميرها.

شيشـرون

١٠٦ ـ ٤٣ ق. م
المعلم للأجيال القادمة

يعد اسم «ماركوس توليوس كيكيرو» Marcus Tullius Cicero المعروف لنا باسم «شيشرون» رمزا للفصاحة وذلك كما يرمز اسم «هوميروس» للشعر الملحمى واسم «شكسبير» للدراما.

ويمتدح البحاثة «فيريو» شيشرون لتأسيسه سلالة من الخطباء والمحامين والأساتذة مثل سلالة قيصر ورغم أخطاء هذه السلالة فقد كان لها ولا شك تأثير كبير على مصير أوربا لا يقل عن تأثير القياصرة لفترة تقرب من ألفى عام.

وعاش شيشرون فى عصر أخذت فيه روما مكانة بلاد اليونان باعتبارها مركزا للثقافة وكان لها المراكز الأول بين أمم العالم.

ولم يكن لشيشرون مكانة أدبية ممتازة فى عصره فحسب، بل كان نموذجا ومعلما للأجيال اللاحقة.

ومعظم شهرة شيشرون مرجعها خطبه ورسائله، ولقد كانت أسس النقد الأدبى الرومانى توضع دائماعلى أساس أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله، ذلك الأسلوب الذى اعتبر فى عصره والعصور التالية نموذجا للنثر الأدبى الرفيع للغة اللاتينية النقية.

وقد قلد الإنجليز أسلوب «شيشرون» فى عهد الملكة «اليزابيث الأولى» وكذا فى العصور المتأخرة، فمثلا كان أسلوب القسيس الأكبر «ريتشارد هوكر» يشابه أسلوب شيشرون، ومن الذين تأثروا بأسلوب شيشرون من الإنجليز ميلتون وإن كان أسلوب ميلتون أكثر تفككا، وكذلك أثرت لغة شيشرون فى القرن السابع عشر فى كتابات الشاعر الإنجليزى «بوب».

هذا من ناحية أسلوب شيشرون فى خطبه ورسائله، أما من ناحية المبادئ الأخلاقية التى نادى بها فقد كان لها صدى قوى فى نفوس الجماهير. فقد أخرجها للناس فى شكل واضح مبين، ويمكن اجمال هذه المبادئ على حد تعبير شيشرون نفسه فى كلمة الإنسانية Humanitas هذه الكلمة التى تتبلور فيها مبادئ وخصال الرجل المتحضر.

وأهم ما تتميز به الإنسانية من مبادئ هو «العطف» فلابد من أن يكون أساس معاملة الإنسان لأخيه الانسان هو العطف والشفقة والحنو لأن الإنسان نفسه جدير بالاحترام اذ يحمل فى نفسه بعض القيم الموروثة. وقد بنى شيشرون رأيه هذا على المبادئ الرواقية التى تنادى بأخوة الإنسان للإنسان دون النظر إلى موطنه أو جنسه أو مكانته، وقد كان شيشرون هو الداعية لهذا المبدأ. وقد نالت أبحاث شيشرون شهرة كبيرة فى حياته وعقب موته، وكان غرضه من أبحاثه تلك أن يقرب الفلسفة الرواقية إلى الفكر الرومانى، وقد أحرز فى ذلك نجاحا كبيرا فلقد ساعدت أبحاثه على نشر المبادئ الرواقية بين الرومان وخاصة الطبقة المثقفة فيهم، حتى أن أباطرة الرومان، أنفسهم أصبحوا يميلون إلى الفلسفة الرواقية، وكان أولهم الإمبراطور أوغسطوس.

وكانت كتاباته الفلسفية رائد النهضة الايطالية فى سعيها لتحرير الإنسان الغربى من مفاسد واضطرابات العصور الوسطى.

وكان شيشرون فى نظر علماء النهضة بطل الفكر الحر والإرادة الحرة والحرية الشخصية تلك المبادئ التى كانت النهضة تنادى بها. وقد احتل شيشرون هذه المكانة فى نفوس علماء النهضة نظرا لمناهضته للأوتوقراطية ونظرا لتلك الروح المضيئة التى لمسوها فى أبحاثه الفلسفية.

كما كان لهذه الأبحاث أثرها فى القرن الثامن عشر ويظهر هذا الأثر فى إعلان الأمريكيين لحريتهم وحقوقهم كما يظهر أيضا فى برنامج الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى.

إن «فولتير» وفلاسفة بريطانيا أمثال «لوك» و«هيوم» يدينون بالكثير لفلسفة شيشرون.

ولد ماركوس توليوس شيشرون فى أربينوم سنة ١٠٦ ق.م وتلقى العلم فى روما، حيث استمع إلى محاضرات فيدروس الأبيقورى حوالى سنة ٩٠ ق. م وفيلون الأكاديمى حوالى سنة ٨٨ ق. م. إلا أن أهم معلميه إبان شبابه هو ديودوتس الرواقى، الذى أقام ضيفا فى منزل والده منذ حوالى سنة ٨٥ ق. م. وفقد ديودوتس بصره وتوفى فى منزل شيشرون سنة ٥٩ ق. م. وقد كان شيشرون محاميا عظيما، وكان أعظم خطيب رومانى، ومن أعظم الكُتاب اللاتين. وفى سنة ٧٩ ـ ٧٨ ق. م أرغمته صحته على التجول، فاستمع فى أثينا إلى محاضرات الفيلسوف الاكاديمى أنطيوكس العسقلانى والفيلسوف الأبيقورى زينون الصيداوى. وكذلك استمع إلى بوسيدوتيوس فى رودس، رغم أن علاقته الرئيسية به نشأت فى روما بعد ذلك بأمد طويل، حوالى سنة ٥١ ق. م. وإكمالا لقائمة معلميه نذكر أنه حضر فى السنة نفسها أى ٥١ ق. م تقريبا وفى المكان نفسه أى روما، محاضرات الفيلسوف الاكاديمى أريستوف العسقلانى، والفيلسوف الأبيقورى باترون. وقد أثر فيه أسلافه أثرا بالغا وسخر مؤلفاتهم لمآربه الخاصة، مثلا، أفلاطون فى كتابه الجمهورية، وأرسطو الذى أوحت محاورته المحرض بكتابه هورتانسيوس، والفيلسوف الأكاديمى كارنياديس البرقاوى، الذى نسج شيشرون فى كتاب الجمهورية على منوال إحدى رسائله وباناتيوس الرواقى (توفى ١٠٩ ق.م) الذى اقتبس من آثاره مادة كتابه (فى الواجبات) وهيكاتون الرودسى، تلميذ باناتيوس. وقد استمد كتابه (حكم سكيبيو) من بوسيدونيوس.

ولم تكن فلسفة شيشرون مبتكرة، بل كانت عرضا واضحا جدا لآراء يونانية شدد عليها تشديدا مبتكرا. إن الفكرة نادرة جدا ومعظم ما صنعه الفلاسفة خلال العصور أنهم ركبوها تركيبا جديدا. أما ما صنعه شيشرون فهو اختيار ما حسبه خير نواحى الفلسفة اليونانية ولاسيما الآراء التى كانت تدرس فى الأكاديمية الجديدة وفى الرواق.

وأما أثره الرئيسى فى التراث الرواقى فينحصر فى نبذ الهراء والشعوذة، وكان ذلك يتطلب صفاء وشجاعة فى ذلك العصر القائل بالخرافات.

ومهما تكن المساوئ والأخطاء التى نجمت عن طموحه وغروره، إبان سنيه الأولى، فمؤلفاته فى الفلسفة والدين بعد معركة فارسالوس تثبت أنه كان رجلا عظيما، مثل قيصر وبروتوس. ولم يكن بومبيى وأنطونيوس من العظمة بمنزلة هؤلاء الثلاثة، حتى ولا أغسطس الذى جنى ثمار جهودهم.

قلم شيشرون

وقد كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهىء السبيل إلى الأدب الرومانى، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الاتيكية، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه، فكتب عدة رسال طويلة فى فن الخطابة، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الإيقاع والإلقاء. ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن أسلوبه (آسيوى)، وقال إنه قد حذا فيه حذو دومستين واتهم «الأتيكيين» بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم.

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت الينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ اليها الخطباء الناجحون، فهى توفى على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضا يفيض حرارة وحماسة، وفى إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر، وفى إثارة كبريائهم وأهوائهم وعواطفهم ووطنيتهم، وتقواهم، وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء من يواليه سواء كانت صحيحة أو مما يرويها الناس عنه، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه، وبحذقه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية، ثم يكيل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط، وتيارهم الجارف يغمر المستمعين.

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية. لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره، ولم يراجعها بنفسه، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها

إنها ستنشر على الملأ، ومن أجل هذا فان الناس لم تعرض عليهم نفسية انسان وسريرته كاملتين، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته، وفى ذلك يقول نيبوس «ولا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام»، ذلك أن فى وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها، والستائر كلها مرفوعة عنها، وأسلوبها فى الغالب صريح قديم، خال من الفن والتكلف، ملىء بالملح والفكاهات، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية، وسلاسة اللغة الدارجة. وهى أكثر ما بقى من آثار شيشرون بل من النثر اللاتينى كله طرافة ومتعة».

وهو يقر مبتسما بأن «تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدرا عندى». ويؤكد لنا فى سذاجة ساحر: أنه «اذا كان فى الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا».

ولكن هل فى الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة؟ والحق أن الإنسان إذا أمعن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل.. إنه فى واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط، ولعله لم يكن من الغرور، أكثر مما لنا، ولكنه أخطأ إذا خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور فى نثر أوفى على الكمال. وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملا مجدا، وأبا رحيما، وصديقا وفيا.

مؤلفات شيشرون

دعنا نتناول الآن مؤلفات شيشرون الفلسفية بحد ذاتها. فإذا أدرجنا فى عدادها رسائله فى الفلسفة السياسية قلنا إنه شرع فى تأليفها بعد الخمسين من عمره.

١ ـ كانت (الكتب الستة) التى تتألف منها «الجمهورية» وهى محاورة مبنية على محاورة أفلاطون.

٢ ـ (فى القوانين) شرع به سنة ٥١ ق.م، ولكنه لم ينشر إلا فى أعقاب وفاته.

٣ ـ (كاتو الأكبر أو فى الشيخوخة) بدأه سنة ٤٤ ق. م لصديقه أتيكوس.

٤ ـ (فى الواجبات) ألفه سنة ٤٤ ق. م لابنه ماركس، وهو يقع فى ثلاثة كتب.

٥ ـ (لايليوس) أو (فى الصداقة) حوالى سنة ٤٤ ق. م.

٦ - (في المجد) سنة ٤٤ ق. م. وهو مفقود، بترارك كان يملك مخطوطا منه.

٧ - (في العزاء) أو (في الحزن المتناقض).

٨ - (الأكاديميات)حوالي سنة ٤٥ ق. م.

٩ - (في غايات الأخيار والأشرار)، ألفه سنة ٤٥ ق. م. وهو عبارة عن بحث في الخير الاسمي والشر الاسمي. في الرد على الأبيقوريين والرواقيين.

١٠ - (المناقشات التوسكولانية) (حوالي سنة ٤٥ - ٤٤ ق. م). وهو خمس محاورات تدور على مسائل عملية. أقيمت في توسكو لانوم.

١١ - (مناقضات) سنة ٤٥ ق. م.

١٢ - (هورتانسيوس) وهو اقتباس لمحاورة أرسطو في المحرض. وقد ألفها سنة ٤٥ق. م.

١٣ - (تيمايوس).

١٤ - (في طبيعة الآلهة) وهو في ثلاثة كتب (حوالي سنة ٤٥ ق. م).

١٥ - (في الكهانة) ألفه سنة ٤٤ ق. م.

١٦ - (في القدر).

لا يكاد يصدق المرء أن شيشرون ألف هذه الكتب الأربعة عشر (من رقم ٣ رقم ١٦) في غضون ثلاثة وثلاثين شهرا، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار، ليس الدراسات التمهيدية مدى عمر كامل وحسب، بل تجرده الكامل لكتابتها. وهكذا قضى شيشرون آخر الأشهر الثلاثة والثلاثين من حياته الحافلة بالشغل والدأب. فهل تعرف سياسيا شهيرا استطاع أن يختم حياته بمثل هذا الرونق والوقار؟!!



شيلر

١٧٥٩ ـ ١٨٠٥م

شاعر الحرية وبطل الأدب الألمانى

فى بدء حديثنا عن نظرية التربية الجمالية للإنسان لشاعر الحرية وبطل الأدب الألمانى فردريش شيلر، يمكننا أولا أن نوجز نظريته الجمالية فيما يلى:

«هناك انفصال ملحوظ بين عالم الحرية وعالم الضرورة، يلاحظ فى سلوك الفرد، كما يلاحظ فى انحراف المجتمعات. ولن يستطيع الإنسان أن يشعر بالرابطة بينهما إلا بعد رجوع إلى مثل مشخص يؤكد إمكان قيام هذه الرابطة. والعمل الفنى، بوصفه شكلا حيا، يلتقى فيه الشكل بالمادة، وعالم الحرية بعالم الضرورة، هو أعظم دليل يعيد ثقة الناس فى عدم انفصال هذين العالمين. فاذا استطعنا تنبيه الناس إلى قيمة الفن ورسالته الميتافيزيقية العليا، المختلفة عن تصوراتهم الحسية له، أمكن بلوغهم مرحلة عقلية أخلاقية عليا. وهذا لا يعنى خضوع الفن لأى توجيه تربوى أو أخلاقى، كما يفهم أحياناً فى بعض النظريات، فمن الواجب توفر الحرية فى الفن. فبغيرها لن يحقق رسالته فى صورة صحيحة».

والنظرية تتعرض إلى كثير من إساءة الفهم، بسبب عدم تحديد مصطلحات محددة من ناحية، وبسبب استخدام مصطلحات تحتمل تفسيرات وتأويلات متعددة والتى جعل لها معنى فلسفيا مثاليا مختلفا عن معانيها المعتادة، وعن المعانى التى شاعت بعد ذلك فى نظريات مادية مثل نظريات داروين وسبنسر.

فالنظريات التى تجعل الفن مجرد مرحلة من مراحل الروح، قد تثير تشككنا فى مدى تقديرالفيلسوف للفن، فهل كان الفن عند شيلر مجرد مرحلة متوسطة

بين المرحلتين الطبيعية والأخلاقية، أى انه كان على حد قول كروتشة مجرد «فترة انتظار» تقضى فى هدوء وتأمل حتى يتم بلوغ المرحلة الأخلاقية الأخرى. لا شك أن هذا التفسير يتعارض كثيراً مع كل عبارات التقدير والإعجاب التى امتلأت بها مقالات شيلر ومؤلفاته.

إن حياة شيلر تتميز مثل مواهبه بخصبها وعمقها ووفرة متناقضاتها. إذ كان طبيبا وضابطا وشاعرا ومؤرخا وصحفيا وفيلسوفا!، كما أنه ذاق مرارة الفقر والحرمان، وعانى الأمرين من طغيان دوق إقطاعى من أقسى الطغاة من الذين عرفتهم ألمانيا قبل وحدتها، وإلى جانب هذا، فإنه قد حظى بتقدير بلاده ومفكريها بوصفه مؤلفا لمجموعة هامة من المسرحيات، قد كان لها أثر عظيم على الفكر العالمى، لا يقل عن أثر سوفوكليس أو شكسبير.

فقد ولد كريستوف فردريش شيلر فى قرية ماربارخ من أعمال دوقية فيرتمبرج فى ألمانيا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٧٥٩. وهو ينتمى إلى أسرة صوابية عريقة. وكان والده يعمل جراحا فى آلاى فرساى بافارى، وظل طول حياته مخلصا لدوق فيرتمبرج وجيشه.

ويقال أن شيلر كان يحب الوحدة منذ طفولته، ولهذا كره القيود المدرسية، وأحب الانطلاق فى الجبال والغابات، وكثيرا ما سأل أمه فى طفولته عدة أسئلة تدل على حيرة ميتافيزيقية ولهفة إلى معرفة سر الوجود.

وقبل بلوغه العاشرة من عمره، نقل أبوه إلى آلاى مرابط بمدينة لودفيجسبورج، حيث كان يقيم الدوق كارل أويجن ـ دوق فيرتمبرج ـ الذى اشتهر بغطرسته.

واتجهت نية والده منذ طفولته إلى إلحاقه بخدمة الكنيسة، ولهذا التحق بإحدى مدارس اللغة اللاتينية فى لود فيجسبورج، تمهيدا لارساله إلى احدى كليات اللاهوت. وهناك أظهر نبوغا وميلا إلى تذوق الشعر اللاتينى. وبعد انتهاء دراسته بالمدرسة اللاتينية، لم يستطع متابعة الدراسة وفقا للمنهاج الذى رسمه له والده، ذلك لأن دوق فيرتمبرج اختاره للالتحاق بمدرسة حربية أنشأها فى دوقيته،

فخضع والده صاغرا لرغبة الدوق، وكتب الإقرار المألوف فى مثل هذه الاحوال، بعدم ترك ابنه خدمة الدوق طول حياته.

وكان شيلر فى الثالثة عشرة من عمره، عندما أصبح طالبا فى المدرسة الحربية.

وتعلم شيلر فى المدرسة الحربية اللغات: اليونانية واللاتينية والفرنسية، والرياضيات والجغرافيا والتاريخ، ودرس القانون، ولكنه لم يبد شغفا به. ونقلت المدرسة الحربية بعد ذلك إلى شتوتجارت، وأنشىء بها قسم خاص بالدراسات الطبية. وطلب شيلر الالتحاق بهذا القسم بسبب كراهيته للقانون، وتضمن منهج دراسته دروسا فى علم النفس والأخلاق وعلم الجمال. وكثيرا ما كان الأستاذ «أبل» أستاذ علم النفس يستشهد أثناء محاضراته بأمثلة من الأدب. ولعل شيلر قد رضى بالبقاء فى هذه المدرسة، من أجل تمتعه باللحظات القليلة التى كان يستمع فيها إلى مثل هذه الأمثلة الأدبية الضئيلة.

وكان موضع البحث فى الامتحان النهائى هو: «الفلسفة والفسيولوجيا». ولم يرض الممتحنون عنه، واضطر للبقاء سنة أخرى، أمضاها فى أسوأ حال. وفى امتحان التخرج، تقدم ببحثين أحدهما باللاتينية، والآخر بالألمانية عن «الصلة بين طبيعة الإنسان الحيوانية وطبيعته الروحية». وأقر الممتحنون نشر هذا البحث. وتخرج شيلر فى المدرسة الحربية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٧٨٠م.

وعين طبيبا لآلاى مدفعية مرابط بشتوتجارت، وكان يحمل لقبا متواضعا هو «فيلد شيرر» ولكنه كره عمله، ولم يتصف بالمهارة فى أدائه. ولهذا كثيرا ما احتدمت الخلافات بينه وبين رؤسائه. وأقبل فى نهم على القراءة فى الأدب، بعد أن كانت محرمة عليه طوال مدة دراسته، كما قام بكتابة أول مسرحية مشهورة له وهى «اللصوص».

ولن يهمنا بعد ذلك من حياة شيلر إلا الفترة التى أمضاها فى كل من «فيمار» و«يينا». فقد كانت فيمار كعبة الفكر والأدب فى تلك الأيام. ومن الواجب إرجاع الفضل فى ذلك إلى دوق فيمار، وثقافته الرفيعة، وتشجيعه للأدباد والمفكرين.

فعندما وصل شيلر إلى فيمار فى يوليو سنة ١٧٨٧ ساعده أصدقاؤه على

الحصول على وظيفة ثابتة، مدرسا للتاريخ فى جامعة «يينا». وفى يينا قابل أصدقاء عديدين من المشتغلين بالفلسفة والفكر من أمثال جوته وهمبولت وفيشته الذى كان قد عين أستاذا للميتافيزيقا خلفا للفيلسوف راينهولت.

وتوطدت الصلة بينه وبين جوته فى فترة إقامته فى يينا، وخاصة بعد سنة ١٧٩٤. وكثيرا ما أمضى جوته أياما طويلة معه عند زيارته إلى يينا، وكثيرا ما تبادلا الرأى فى مختلف الموضوعات. واعترف جوته بأن شيلر هو صاحب الفضل فى إعادته إلى كتابة الشعر بعد انقطاعه عنه، واتجاهه إلى العالم الآخر، وأنه أعاده إلى الشباب ثانية. واشتركا معا فى كتابة «ابيجرامات» التى تميزت بشدة سخريتها. وفى هذه الفترة وهن اهتمام شيلر بالفلسفة والميتافيزيقا، وازدادت عنايته بالشعر. وقد يعزى هذا التغير إلى أثر جوته، لأنه كان يرى الشعر فى منزلة أسمى من الفلسفة. ففيه على حد قوله كل شىء يبدو فى صورة حقيقية حية بهيجة متوافقه، بعكس الفلسفة التى تظهر الأشياء جامدة مجردة مصطنعة. وفى الشعر، تبدو الحياة فى صورة متآلفة، أما الفلسفة فإنها تظهرها مليئة بالنقائض والمتنافرات. وعلى هذا يصح فى نظر جوته اعتبار الشاعر وحده هو الإنسان بمعنى الكلمة!

والجدير بالذكر أن شيلر توفى يوم ٩ مايو سنة ١٨٠٥، فى الخامسة والأربعين من عمره.

هذه خلاصة مركزة لحياة شيلر القصيرة والعميقة، ولا يختلف المؤرخون كثيرا فى اشادتهم بدوره وبدور جوته فى خلق أدب ألمانى عالمى. فلم تعرف أكثر المحاولات الأدبية السابقة لهما خارج ألمانيا الا فيما ندر. ولا يختلف المؤرخون كذلك فى الثناء على شيلر، وتشامخه واعتزازه بذاته، وعدم استسلامه لليأس أو القنوط، لأنه لم يكن متشائما، إذ اعتقد فى وجود قوة فى الإنسان تساعده على التسامى والتحليق بعيدا عن أوصاب الحياة.

فرانس، أناتول

١٨٤٤ ـ ١٩٢٤م

الأديب الذى لا نظير له فى الأدب الفرنسى

بلغ أناتول فرانس فى حياته أسمى ما يمكن أن يبلغه كاتب عبقرى فوصل اسمه إلى أقصى البلاد، وترجمت مؤلفاته إلى عشرات اللغات.. وطبعت كتبه مئات الطبعات.. ونال من الجوائز والمراتب أرفعها شأنا وأعلاها ذكرا مما تتقطع دونه اعناق أعاظم الكُتاب.. فمنذ خط طريقه إلى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور فى ٣١ من ديسمبر عام ١٨٨٤ وفى عام ١٨٩٦ انتخب عضوا فى الأكاديمية فرانسيز.. وفى عام ١٩٢١ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر ألفا من الجنيهات فتبرع بها كلها لأهل روسيا أيام المجاعة التى ألمت بها فى سنى الثورة العصيبة الأولى.

والمعروف أن أناتول فرانس كان فى كتاباته وأقواله ديموقراطيا بل اشتراكيا متطرفا.. ولكم سخر منه فى ذلك أيضا فريق ناقديه، ألم يهزأ بالثورات ورجالها فى قصته (الآلهة ظمأى)؟ ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الانسانى والثقافة العليا؟



ولد أناتول فرانس فى باريس فى اليوم السادس عشر من أبريل عام ١٨٤٤ وكان والده ـ ويدعى فرانسوا نويل تيبو ـ بائع كتب.. فنشأ بين تلال المؤلفات الكثيرة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شىء دون أن يدرى كنهها وقيمتها، فلما شب قليلا وابتدأت يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدها من ثنايا الأسفار.

على أن أحوال حياته العائلية قد أعانته أيضا أكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة.. فلقد عرفنا الآن أن أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيا أن يقضى الصبى أناتول معظم يومه فى الطرقات بين أمثاله من الصغار.. لذلك كانت طفولته إلى التشرد والاضطراب منها إلى الهدوء والاستقرار الذى تخلقه الحياة المنزلية الوادعة.. ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول وقد ظهر كل ذلك واضحا فى قصته (كرانكابيل) وعندما شب أناتول فرانس اشتغل مساعدا لأبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه، ما يحبها وما يكرهها، فعرف من ألوان الحياة كثيرا مما لا يعرفه الكثيرون.

وكان أناتول فرانس يعتز إلى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر أنه كان يعلق بها شأنا خاصا فى توجيه تفكيره وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذى كان يمتاز به.. وهذا هو ما دعاه لأن يقول فى (كتاب صديقى) هذه العبارة القصيرة التى تضم روح الاعتزاز والفخار (إنى باريسى بكل نفسى وبكل جسمى).

فلكى ندرس أناتول فرانس وتفكيره وروحه يجب أن نضع أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث:

باريسى صميم ـ ابن بائع كتب ـ طفولة متشردة.

لم يكن أناتول فرانس طالبا مجدا وكان اهتمامه بقراءة الأدب وبناء آمال أدبية أكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية بل إنه كان يعتبر أن حياة المدرسة ودروسه كانت حائلا بينه وبين العلم الحقيقى إذ يقول:

(إننى لم ابتدئ فى التعلم إلا عندما انقطعت عن الدراسه المدرسية).

والواقع أن أناتول فرانس لم يقبل أن ينتظم فى عمل من الأعمال يحقق به رجاء والديه.. بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد مثابرا على إعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغه بعد جهد جهيد.

نعم بعد جهد جهيد.. فقد كان الدور التحضيرى لمجده الأدبى طويلا مملا، إذ قضى سنين طويلة يعمل فى مكتبة أبيه، وكان ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين

وموليير وغيرهما بعد أن يعلق عليها بشروح لا تخلو من فائدة.. وكان يشتغل فى ذلك الوقت أيضا بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية، كانت أولاها رسالة عن الشاعر الفريد دوفينى (١٨٦٨)ثم ابتدأ يخوض غمار الشعر فنظم عددا من المقطوعات جمعت فى مجموعتين الأولى بعنوان (القصائد الذهبية) (١٨٧٣) والاخرى بعنوان (الأعراس) (١٨٧٦) وكانت جميع هذه الأعمال بإجماع النقاد خالية من التفكير النير والذهن الصافى فلم ترفع ذكر مؤلفها.. وفى عام ١٨٧٩ نشر أناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته فى التأليف القصصى وهما (جو كاست) و(القط النحيل) فلم تسترعيا إليهما الأنظار.

وفى عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستر بونار) فخرج اسمه مرة واحدة من الظلمة إلى النور.

وتوالت بعد هذه القصة أعماله الأدبية فكتب قصة (رغبات جان سرفيان) و(كتاب صديقى) الذى صدر عام ١٨٨٥ وهو الكتاب الأول من كتبه الأربعة التى ضمنها ذكريات حياته. ثم كتب (بلتازار) و(تاييس) (١٨٩٠) و(مطبخ الملكة بيدوك) و(آراء جيروم كوانيار) و(الزنبقة الحمراء) و(حديقة أبيقور) وغيرها.

من عام ١٨٨٨ إلى عام ١٨٩٢ كان أناتول فرانس يتولى تحرير قسم النقد الأدبى بجريدة الطان بعنوان (الحياة الأدبية) وإلى ذلك الوقت كان نشاطه مقصوراً على فنه الأدبى حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبته إلى غمار السياسة ووقف معارضا لدودا لتلميذه شارل موراس.. وكانت هذه الحادثة دافعة له على كتابة مجلداته الأربعة فى (التاريخ المعاصر).

وفى أثناء هذه المدة ظهرت قصتاه (كليو) و(بيير نوزيير) وهو الكتاب الثانى من ذكرياته.

ومضى أناتول فرانس يوالى إنتاجه القصصى وهو يسعى جهده فى أن يغير طابع أعماله الأدبية من قصص تشرح أفكاره الفلسفية ونظراته العامة إلى أخرى تطغى فيها روحه الساخرة ونفسه المرحة.

وفى عام ١٩٠٨ نشر أناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك) الذى حاول به أن

يخرج عن طريقته فى معالجة التاريخ كقصاص إلى معالجته كمؤرخ ولكن النقاد يكادون يجمعون على أن أناتول فرانس قد أخفق فى تحقيق ما تمنى.

وبعد ذلك نشر أناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) وبكتابيه (بيير الصغير) و(الحياة الزاهرة) أتم أناتول فرانس كتبه الأربعة عن ذكريات حياته وقد ذكر فى ختام كتابه الأخير أن هذه الذكريات صادقة (من حيث الوقائع الرئيسية والأخلاق والعادات) وأن التغيير الذى حدث ينحصر فقط فى تغيير الأسماء واحوال معظم أشخاصها.

من ذلك نرى أن أناتول فرانس قد جمع فى عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعا وظهر ذلك واضحا فى كتبه حتى إنه يؤثر عنه قوله.. (لست أعثر على شىء جديد إلا فى كتاب قديم).

إن فن أناتول فرانس ما هو إلا صورة من نفسه فالشخصيات التى رسمها فى كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها وعاشرها، كذلك الآراء التى سردها على لسان أبطاله هى فيض نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل إليه فهمه للحياة والناس.

كان تفكير أناتول فرانس يدور حول أمرين:

الأول (الشك) والثانى (الاشتراكية) والأمر الأول يحدد نفسيته العامة ورأيه فى الأديان أما الأمر الثانى فيبين فكرته السياسية والاجتماعية.

كان أناتول فرانس يهزأ بكل رأى ويسخر من كل فكرة فجميع الآراء والنظريات فى نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها.. وأى سخرية أشد من تلك التى جعلته يقول على لسان أحد أبطال قصة (رغبات جان سرفيان) هذا القول: (إن رأى العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) فأنت ترى أناتول فرانس كان ينظر إلى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازئ بكل من حوله حتى دفعه ذلك إلى القول: (كل قاعدة بحثت فى أصلها وجدت تحتها شيئا ولم يطل الأمر حتى علمت أنها لم تكن قاعدة) وفى (حديقة أبيقور) يقول (كلما فكرت فى الحياة الإنسانية زاد

اعتقادى أن السخرية والشفقة هما الوسيلتان للنظر إليها والحكم عليها.. إذ أن السخرية والشفقة ناصحان رفيقان.. فالسخرية تحبب إلينا الحياة والشفقة تجعلها مقدسة لدينا، والسخرية التى أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة.. إنها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل.. إنها السخرية الهادئة الكريمة.. فالابتسامة الساخرة تسكن سورة الغضب وهى التى تعلمنا التهكم بالأشرار والحمقى وبدونها نضعف ويتسلط علينا الحقد والضغينة).

على أن أناتول فرانس برغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة إنسانية كان لا يؤمن بسيادة الجماهير ومن ثم كان لا يؤمن بالديمقراطية.. ولذا هاجمه النقاد واتهموه بالتذبذب والتجرد من أولى صفات الأديب العظيم والتعلق بمثال إنسانى أعلى.. واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء ومهاجمته لسلطان المال والأغنياء نوعا من الدجل الفكرى الذى اتخذه سلما لبلوغ قمة المجد الأدبى.. على أن أناتول فرانس برغم عدم إيمانه بالديمقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهورى على غيره من أنظمة الحكم الراهنة.. (لأنه أخف من غيره إيذاء وأقل ضررا.. فهو ليس العدالة ولكنه أقرب إلى البساطة والطبيعة من غيره من الأنظمة).

بيد أنه برغم التناقض الذى نراه فى كثير من جوانب تفكير أناتول فرانس فإن الذى لا ريب فيه أنه كانت تجرى فى دمائه روح العدل والمساواة وكان قلبه الكبير يفيض بالرحمة ويترفع عن الصغائر.. وإذا كان همه طول حياته السخرية والتعالى فهى سخرية الاب الرحيم والمفكر الواسع النفس الخالص الوفاء.. ولقد بقى حتى آخر نسمة من حياته يردد قوله (إن الاشتراكية هى ضمير العالم وإن النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهى إلا باختفاء هذه الطبقات).

لقد كان أناتول فرانس هو المنقذ الأكبر للغة الفرنسية مما انتابها من التدهور بعد الثورة الكبرى.. وبرغم أنه كان فى تفكيره ثائرا فنبذ الأفكار جميعا، فإنه كان بالعكس من جهة اللغة محافظا فأعاد لها مجدها القديم مضيفا إلى ذلك عبقريته الخاصة فى حسن الصياغة والدقة النادرة فى الإحساس بجمال الألفاظ والتعابير.

ولقد كانت سهولة أسلوبه وابتعاده عن التكلف هى ميزته الكبرى وكان يفتخر قائلا.. (إن كمية ألفاظى اللغوية محدودة فقيرة) وكان إيمانه بوجوب السهولة

المطلقة فى الأساليب تدفعه للاعتقاد - بخلاف الكثيرين - الى أن الصحافة تساعد على تقدم أسلوب الكتابة لأنها بإرغامها الكاتب الصحفى على الإسراع فى الكتابة تحول بينه وبين التكلف والافتعال فيخرج أسلوبه طبيعيا مستقيما سلسا.

لقد كان أسلوب أناتول فرانس - كما يقول الناقد بول سوداى - فريدا لا يمكن تقليده.. ولقد صدق جول لومتر فى قوله (لقد كان أسلوب أناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه نرى أساليب رأسين وفولتير وفلوبير ورينان.. وأسلوب فرانس دائما).



فرجيل

٧٠ ـ ١٩ ق. م
أحب الرومان إلى قلوبهم

ظهر أعظم شاعرين فى روما القديمة، فرجيل وهوراس. كما ظهر مشجعاهما أغسطس ومايكيناس إلى عالم النور خلال سنوات قليلة جدا (٧٠ ـ ٦٣) ق. م وكان أغسطس أصغرهم وربما كان فرجيل أكبرهم وكانت شخصيته من أعظم الشخصيات التاريخية فى الغرب كله. فهو ينتسب إلى مجموعة صغيرة جدا من الشعراء العالميين، ها هو ذا يقف بين هوميروس ودانتى فليس هناك شعراء آخرون يتساوون معهم.

ولد فرجيل فى منتصف شهر أكتوبر (١٥ من أكتوبر) سنة ٧٠ ق. م فى قرية بالقرب من مانتوا من أعمال فينيسيا شمال نهر البو. وكان أبوه مزارعا صغيرا كسب عيشه من تربية النحل وتوافر لديه مال يكفى لارسال ابنه ـ الذى لاحت عليه أمارات الذكاء ـ فى سن الثانية عشرة إلى مدرسة جيدة فى كريمونا. ونجد فرجيل هناك وهو يحتفل بعيد ميلاده الخامس عشر (١٥ من أكتوبر ٥٥) بارتداء (التوجا) (عباءة الرومان) المعدة للرجال أعنى أنه أصبح يعتبر رجلا وهو فى الخامسة عشرة أقل بقليل من السن المعتادة. وقد ذهب فى السنة ذاتها إلى ميلان لفترة قصيرة ثم إلى روما لإتمام دراسته وخاصة الريطوريقا ومن المحتمل أنه درس علم الفلك والطب وبعد ذلك بقليل أصبح تلميذا لسيرو الأبيقورى وبدأ اهتمامه بالشعر مبكرا جدا تحت تأثير شعراء الإسكندرية وكاتوللوس الذى حاكاهم ولوكريتيوس بوجه خاص ومن المحتمل أنه كان فى روما قبل الفترة الممتدة من ٥٣ إلى ٤٦ وأثناءها وبعدها ونستطيع أن نتخيل الاضطراب والارتباك الذى يصيب شابا مرهف الحس معتل الصحة كالغريق فى المدينة العظيمة مواجها لآلام

الحرب الأهلية والفساد السياسى، وفى وسعنا أن نتخيل أيضا حنينه إلى الأرض مسقط رأسه وقد عاد إلى مانتوا حوالى سنة ٤٤ أو ٤٣.

ومن سوء الحظ أنه بعد قليل (سنة ٤٢) صودر ذلك الجزء من إيطاليا (وفيه مزرعة أبيه) ليوزع على قدماء المحاربين فى الحرب الأهلية فعاد فرجيل إلى روما لينال بعضا من التعويض.

وحاول أسنيوس بليو وحاكم غالة الإيطالية أن يرد الضيعة إلى مالكها ولكنه عجز فعوضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار فى كتابة (المختارات) وهى القصائد التى كان ينشئها فى ذلك الوقت.

ولم يكد يحل عام ٣٧ حتى كان فرجيل على كل لسان فى رومة ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح وصفق لها النظارة تصفيقا ملؤه الحماسة والإعجاب وموضوع القصائد هو وصف الرعى على نمط قصائد ثيوقريطس ونجد فيها أحيانا ألفاظها نفسها وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التى استمعت لها رومة فى تاريخها كله وهى مليئة بالحنان التأملى والحب التخيلى. ذلك أن الشاب وإن قضى شطرا كبيرا من حياته فى العاصمة قد انفصل عنها زمنا يكفى لأن يجعله يمجد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة وكان من شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعيا يسير مع قطعانه على سفوح الأبنين صاعدا أو نازلا ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب.

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقراطية ما كان فى شعر فرجيل من وصف للمناظر الريفية. وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضا كما مجد مناظر الرعى واتخذها هى الأخرى مثلا أعلى للحياة ولكنه هنا لم يكن مقلدا فقد استمع من قبل إلى أغانى الخطاب الشهوانية، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الأزهار وعرف يأس المزارع الخلى البال الذى خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم فى تلك الأيام على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الإحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التحزب والحرب وكانت الكتب السبيلية قد

تنبأت بأن عصر زحل الذهبى سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدى، ولما أن ولد فى عام ٤٠ ق. م ولد لاسينيوس بليو نصير فرجيل أعلن الشاعر فى الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة:

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية وسيطر على الميلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ولم تشهد رومة فى السنين القليلة الباقية من حياة فرجيل اضطرابات جديدة وعمها الرخاء والسعادة وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وإن لم يلقبوه أبلون. ورحب بلاط الإمبراطور - وإن لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة إلا نصف ما فى بلاط الملوك - بما فى شعر فرجيل من تفاؤل، واستقدمه إليه ماسيناس وأحبه ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات اكتافيان. وكان حكمه هذا دليلا على بعد نظره ذلك أن فرجيل - وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره - كان يبدو رجلا ريفيا شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم ويتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه، ولا يطيق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهذارة المتطاولة. وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالا يشكو شكوى مستمرة من الصداع وأمراض الحلق واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير ولم يتزوج فرجيل قط. ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساسا بالحب العارم الطليق من بطله انياس. ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق أما فيما عدا هذا فقد كان معروفا فى نابلى باسم (العذراء).

وكان ماسيناس كريما فى معاملة الشاعر الشاب فأقنع أكتافيان بأن يرد له ضيعته واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد الحياة الزراعية وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق. م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراع وبساتين وكروم وكان سكستسى بمبى يمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية، ونقص القمح ينذرها بانفجار بركان الثورة من جديد وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب إيطاليا من رجولة. ولاح أن صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى خياة الزرع فلما اقترح ماسيناس على فرجيل أن يكتب القصائد التى تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره فقد كان عليما

بحياة الريف، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال، معتمدا على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم وإن كان ضعف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب وخبأ الشاعر نفسه فى نابلى وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهى القصيدة المعروفة باسم (العمل فى الأرض) وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل إلى الجنوب ليقابل أكتافيان وكان وقتئذ (٢٩ ق. م) عائدا من انتصاره على كليوباترة. واستراح القائد المضنى فى بلدة أتلا الصغيرة وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها. هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقا يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجرارة التى ساد بها العالم وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضرسون فى الأرض فيستطيع بذلك أن يهدئ بالهم وأن يطعم المدن الإيطالية ويحفظ كيان الدولة. كل ذلك بفلح الأرض فى الريف. وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حراً فى أن يفكر فى الشعر دون غيره.

فى هذه القصائد نرى فنانا عظيما يعالج أشرف الفنون بأجمعها - فن زراعة الأرض وفيها يأخذ من هزيود وأراتس وكاتو وفارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيها حقها - فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها وفصول الزرع والحصاد ويبحث فى غرس أشجار الزيتون والكروم وتربية الماشية والخيل والعناية بالنحل ويستهويه كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمامه ويستحوذ على فكره.

أعمال فرجيل

وقبل أن نعرض أعمال «فرجيل» يجب أن نتذكر أن الشعر اللاتينى باستثناء الهجاء فيما يقال قد نهض أساسا على محاكاة النماذج الاغريقية بوجه عام وكان قراء الدوائر المثقفة التى كان فرجيل يكتب لها يتحولون عن كل قصيدة يعتمد كاتبها على فطرته فحسب ويرحبون بإعادة إنتاج الروائع الأفريقية. وقد وضع (هوراس) للشعراء القاعدة التى تحقق لهم النجاح فى هذا المضمار.

(ادرسوا النماذج الأغريقية وتأملوها آناء الليل وأطراف النهار).

إن (الرعويات) تمثل أول أشعار مؤكدة للشاعر (فرجيل) وهى تتألف من عشر

قصائد قصيرة يطلق عليها أحيانا اسم (مختارات).كان شعر مدرسة الإسكندرية أحب ألوان الشعر دراسة فى ذلك الوقت من تاريخ الأدب اللاتينى وكانت رعويات ثيوكريتوس ـ التى يطلق عليها اسم «ايديليا» ـ أكثر أشعار مدرسة الإسكندرية سحرا وجاذبية وكلمة (ايديليا) معناها صورة قصيرة تصور فى معظمها حياة الرعاة وحياة الريف وغالبا ما تأخذ شكل الحوار ويرجع أصلها فى الغالب إلى حب الموسيقا والولع بالأغانى اللذين ساعد على تطورهما سهولة وبساطة الحياة الرعوية فى الجنوب مما يشيع جوا من البهجة والسعادة كما يرجع أيضا إلى عادة التنافس فى الغناء وإلى الارتجال الذى كان شائعا فى الأعياد الريفية وعلى الأخص بين الدوريين الذين كانوا يشكلون جزءا كبيرا من المستعمرات فى صقلية حيث أمضى (ثيوكريتوس) معظم حياته رغم أنه ولد فى جزيرة كوس ـ وأمضى بعض الوقت فى الإسكندرية .

و(الزراعيات) عبارة عن مقالة عن شئون الزراعة وما يتعلق بها وقد كتبها (فيرجيل) تلبية لرغبة (مايكيناس) كما أنها مهداة إليه. فمنذ نشر الرعويات وقد أصبح فيرجيل أحد رجال الأدب الذين تعتمد عليهم الدولة فى الدعاية لمشروعاتها، وقد كان أحد المشروعات المهمة التى واجهت (أوكتافيوس) ووزيره (مايكيناس) صد الخطر الداهم الذى يهدد إيطاليا. خطر إهمال الأراضى والهجرة من الريف فليس بعجيب إذن أن يشير (مايكيناس) على (فيرجيل) بكتابة هذه المقالة عن (الزراعيات) كوسيلة من وسائل الدعاية بقلم شاعر أثبت مقدرة فائقة على التعبير عن مثل هذه الأمور فى الرعويات وذلك بمهارة لم يسبق لها نظير.

تتألف الزراعيات من أربعة كتب تحتوى فى جملتها على ٢١٨٨ بيتا، وأن أهم ما يميز (الزراعيات) هو إحكام صقلها فقد كتبت على مهل وبعناية فائقة فلو سلمنا بأنها كتبت فيما يقرب من سبع سنوات لكان متوسط ما كتب فى اليوم الواحد أقل من بيت واحد.

ومن ثم فقد صقل كل بيت صقلا تاما أو على حد قول (فيرجيل) نفسه فيما يقال: (كان يلمس أبياته ليعطيها شكلا كما تفعل الدبة بأولادها). ولذلك فإن الزراعيات تعتبر أحسن ما أنتج (فيرجيل) من ناحية المهارة الفنية، بل أروع ما كتب باللاتينية فى الشعر التعليمى.

فرويد، سيجموند

١٨٥٦ ـ ١٩٣٩م

أبو التحليل النفسى

تشغل الأحلام بال الناس منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر ، تهتم نسبة كبيرة من الأفراد بأحلامهم ويحاولون إيجاد تفسير لها والتعرف على دلالتها، وقد تسبب لهم أحلامهم الكثير من الحيرة والقلق!

والواقع أن هناك كتابات عديدة تعرض لآراء بالنسبة للأحلام ودلالتها وأسلوب تفسيرها ومن أشهر هذه الكتابات ما كتبه سيجموند فرويد فى كتابه «تفسير الأحلام».

والواقع أن فرويد قد أسهم فى إلقاء كثير من الضوء على جوانب عديدة من الأحلام ومنها الدوافع اللاشعورية على الأحلام.

ما من شخص أثار فى علم النفس من الضجيج والعجيج قدر ما أثاره فرويد الطبيب النمساوى الذى بدأ حياته الطبية مختصا بعلم الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وأنهاها بوصفه أبا للتحليل النفسى وصاحب مدرسة فيه.

على أنه من غير الممكن أن تفهم فرويد وعمله إذا لم تلم ببعض الحقائق الأساسية:

وأولها: أن مؤرخى علم النفس الحديث متفقون على أن علم النفس الحديث على صلة وثيقة بعلم الفيزيولوجيا الحديث والحق أن علم النفس الحديث ولد على يد العالم الألمانى (فنت) فى مختبر بلاييزج الذى أسسه عام ١٨٧٩.

وقل الشىء نفسه عن فرويد وهو طبيب مختص بعلم الفيزيولوجيا. وبافلوف

وهو عالم الفيزيولوجيا الروسى وآدلر وهو طبيب نمساوى وغيرهم كثيرون.

وثانيها: أن فرويد حلقة فى سلسلة من الأطباء الذين اهتموا بالأمراض النفسية والجسدية (وكانت تسمى عصبية) وأشهرهم (شاركو) الفرنسى وتلميذه (جانبه) الفرنسى أيضاً وقد تتلمذ فرويد على أولهما ثم انتقل من مدرسته إلى مدرسة (نانسى) فى فرنسا أيضا. وكلتا المدرستين كانت تستعمل التنويم (المغناطيسى) علاجا للأمراض العصبية النفسية على أن المهم فى هذا الصدد كون الجو العلمى مهيئا لهذه الدراسات مما مهد لظهور فرويد.

وثالثها: أن فرويد عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وشهد النهضة الصناعية الجبارة التى اجتاحت أوروبا وتعقد الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الأوربية وتشابك العلاقات الإنسانية بين أفراد هذه المجتمعات.

ورابعا: أن فرويد يهودى وأنه كان ليهوديته دخل كبير فى صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ذلك بأنه كان ينتمى إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة التى أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامح الاقتصادية والحنين إلى الماضى والعمل على بناء وطن قومى من نوع محدد. وكان ذلك ضمن إطار معين.



ولد سيجموند فرويد فى عام ١٨٥٦ من أبوين يهوديين فى مدينة فرايبرج بمورافيا التى تعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا وفى سن الرابعة انتقل مع أسرته إلى مدينة فيينا حيث نشأ ودرس الطب فى جامعتها.

وقد اهتم فرويد اهتماما خاصا بالأبحاث الفسيولوجية والتشريحية المتعلقة بالجهاز العصبى واشتغل وهو لا يزال فى معمل أرنست بروك الفسيولوجى وقام بعدة أبحاثِ فى تشريح الجهاز العصبى. وفى عام ١٨٨١ حصل على الدكتوراه فى الطب وعين مساعدا لأرنست بروك فى معمله وفى عام ١٨٨٢ اشتغل طبيبا فى المستشفى الرئيسى بفيينا ونشر بعض الأبحاث المهمة فى تشريح الجهاز العصبى

وفى الأمراض العصبية مما لفت إليه الأنظار. وفى عام ١٨٨٥ عين محاضرا فى علم أمراض الجهاز العصبى.

ونشأت فى تلك الفترة صداقة بين فرويد وجوزيف بروير أحد أطباء فيينا المشهورين وقد تأثر فرويد به تأثرا كبيرا. وقد كان بروير يستخدم الإيحاء التنويمى فى معالجة مرضاه واكتشف أثناء علاجه لفتاة مصابة بالهستريا أن المريضة ذكرت أثناء نومها حوادث ماضية لم تستطع تذكرها أثناء اليقظة ورأى أن ذكر المريضة لهذه الحوادث والتجارب الشخصية القديمة والإفضاء بالعواطف والانفعالات المتعلقة بها والتى كانت من قبل مكبوتة كان له أثر كبير فى شفاء المريضة وقد سمى بروير فيما بعد هذه الطريقة فى العلاج «بطريقة التفريغ» وذكر بروير لفرويد قصة علاجه لتلك الفتاة فأعجب فرويد بطرافتها وبنجاحها فى شفاء المريضة ولكنه لم يعلق عليها فى ذلك الوقت أهمية كبيرة.

وفى عام ١٨٨٥ رحل فرويد إلى باريس للدراسة فى جامعة سالبتربير حيث كان شاركو يقوم بأبحاثه فى الهستيريا وشاهد فرويد بنفسه بعض هذه الأبحاث التى أثبتت امكان إحداث أعراض الهستيريا بالإيحاء التنويمى وإمكان إزالتها بالايحاء أيضاً وبين الهستريا التى تشاهد بين المرضى ثم عاد فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦ واشتغل طبيبا خاصا مع استمراره فى وظيفته التدريسية وأخذ فرويد فى تطبيق ما علمه من شاركو وحاول إقناع أطباء فيينا أن بإمكانه إحداث الهستيريا بالإيحاء التنويمى فقوبل بمعارضة شديدة غير أن فرويد استمر فى مواصلة بحثه العلمى كطبيب خاص يعالج مرضاه بوساطة الإيحاء التنويمى. ولم يلبث فرويد طويلا حتى اتضحت له بعض العيوب فى فنه التنويمى إذ تبين له أنه لا يستطيع أن ينوم بعض مرضاه وقد جعله ذلك يشعر بأنه لا يزال فى حاجة إلى تحسين فنه التنويمى فسافر فى عام ١٨٨٩ إلى مدينة نانسى بفرنسا وقضى فيها عدة أسابيع فى اتصال بالطبيبين ليببولت وبرنهايم.

ولما عاد فرويد بعد ذلك إلى فيينا جدد اتصاله العلمى ببروير فى أسباب الهستيريا وطرق علاجها وقد نشرا معا فى عام ١٨٩٣ بحثا فى «العوامل النفسية للهستيريا» وفى عام ١٨٩٥ نشرا كتاب «دراسات فى الهستيريا» ويعتبر هذا الكتاب

الأخير نقطة تحول مهمة فى تاريخ علاج الأمراض العقلية والنفسية فقد احتوى على البذور الأولى التى نمت منها فيما بعد نظرية التحليل النفسانى وقد أشار المؤلفان فى هذا الكتاب إلى أهمية الدور الذى تلعبه الحياة العاطفية فى الصحة العقلية وبينا ضرورة التمييز بين الحالات العقلية الشعورية وبين الحالات العقلية اللاشعورية وذهبا إلى أن الأعراض الهستيرية تنشأ عن كبت الميول والرغبات فتتحول تحت تأثير هذا الكبت عن طريقها الطبيعى وتتخذ لها منفذا عن طرق شاذة غير طبيعية هى الأمراض الهستيرية. وشرح المؤلفان «طريقة التفريغ» وبينا قيمتها العلاجية فى شفاء الهستيريا. وتتخلص هذه الطريقة فى حث المريض أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الحوادث والخبرات الشخصية الماضية وعلى «التنفيس» عن العواطف والانفعالات المكبوتة ولذلك سميت هذه الطريقة فى العلاج بطريقة التفريغ. ويرجع الفضل فيما جاء فى هذا الكتاب من آراء جديدة إلى «بروير» كما اعترف بذلك فرويد نفسه وقد ساعدت ملاحظات فرويد وتجاربه العديدة على تأييد آراء بروير وإثبات صحتها.

ثم أخذت آراء فرويد تختلف عن آراء بروير فدب بينهما الخلاف وانقطعت بينهما الصلة وحدث أول خلاف بينهما حينما حاولا تفسير العوامل النفسية المسببة للهستريا ففسر بروير الانحلال العقلى الذى يصاحب الهستريا بانقطاع الصلة بين حالات النفس الشعورية وفسر الأعراض الهستيرية بحالات شبه تنويمية ينفذ أثرها إلى الشعور. أما فرويد فقد كان يرى أن الانحلال العقلى يحدث نتيجة صراع الميول وتصادم الرغبات واعتبر الأعراض الهستيرية أعراضا دفاعية نشأت تحت ضغط الدوافع المكبوتة فى اللاشعور التى تحاول التنفيس عن نفسها بشتى الطرق ولما كان ظهور هذه الدوافع المكبوتة فى الشعور أمرا غير مقبول للنفس فإنها تحاول التنفيس عن نفسها بطريق غير طبيعية هى الأعراض الهستيرية. وحدث الخلاف الثانى بين فرويد وبروير حينما أخذ فرويد الغريزة الجنسية السبب الأول فى حدوث الهستيريا ولم يوافق بروير على هذا الرأى وعارض فرويد فيه كما عارضه فى ذلك جمهور الأطباء فى عصره.

ومنذ ذلك الوقت أخذ فرويد يواصل أبحاثه منفردا فى عزم لا يلين وفى ثبات

لم تزعزعه هجمات خصومه وبدأت تكشف له ملاحظاته وأبحاثه عن الدور المهم الذى تلعبه الغريزة الجنسية فى مرض الهستيريا وقد دفعه ذلك إلى توسيع دائرة بحثه فأخذ يدرس الأنواع الأخرى من الأمراض العصابية ويبحث عن علاقة الغريزة الجنسية بها وقد أدت أبحاثه إلى اقتناعه بأن اضطراب الغريزة الجنسية هى العلة الرئيسية فى جميع هذه الأمراض.

قضى فرويد عشر سنوات (١٨٩٦ ـ ١٩٠٦) منذ انفصال بروير عنه يعمل منفردا فى جمع ملاحظاته ومواصلة أبحاثه وتكوين نظرياته فى وقت حرمته المجتمعات العلمية كل تشجيع وتأييد. ثم ابتدأت الأمور تتبدل ابتداء من عام ١٩٠٢ حينما التف حوله لأول مرة قليل من شباب الأطباء المعجبين بنظريته الجديدة بقصد تعلم مبادئها واكتساب الخبرة فيها ثم أخذ عددهم يزداد رويدا رويدا وبدأ ينضم إليهم أفراد من غير الأطباء من أهل الأدب والفنون.

ثم أخذت المعرفة بالنظرية الجديدة تنتشر بين الأطباء فى كثير من البلاد وخاصة فى سويسرا حيث اكتسبت الحركة الجديدة صداقة «أوجين بلولر» المشرف على معهد الأمراض العقلية بالمستشفى العام بمدينة زيوريخ، ويونج أحد مساعدى بلولو. وفى عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر للتحليل النفسانى بمدينة زيوريخ بدعوة من يونج حيث تقرر إصدار مجلة التحليل النفسانى تحت ادارة فرويد وبلولر وأسندت رياسة التحرير إلى يونج وكان ذلك بدء صفحة جديدة فى تاريخ حركة التحليل النفسانى.

وفى عام ١٩٠٩ دعت جامعة كلارك بالولايات المتحدة الأمريكية فرويد ويونج للاشتراك فى احتفال الجامعة لمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيسها فاستقبل فرويد وزميله فى أرض الدنيا الجديدة استقبالا رائعا وقوبلت محاضرات فرويد الخمس والمحاضرتان اللتان ألقاهما يونج بجامعة كلارك مقابلة حسنة.

وفى سنة ١٩١٠ عقد المؤتمر الثانى للتحليل النفسانى فى مدينة نومبرج حيث تم تأليف «جمعية التحليل النفسانى الدولية» وتقرر فى ذلك المؤتمر إصدار نشرة دورية تكون رابطة الاتصال بين الجمعية الرئيسية وبين فروعها الأخرى فى برلين برياسة أبراهام وفى زيوريخ برياسة يونج وفى أثينا برياسة ألفرد ادلر وبعد ذلك أصدر ادلر وشتيكل مجلة ثانية للتحليل النفسانى فى فيينا.

ثم توالت بعد ذلك مؤتمرات جمعية التحليل النفسانى وتكونت لها فروع فى معظم الأقطار الغربية وأخذت تعاليم التحليل النفسانى فى الانتشار وبدأت تجلب إليها كثيرا من الأصدقاء والأتباع لا من رجال الطب فقط بل من رجال العلوم والفنون المختلفة أيضا.



اتفق على أن علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى فى أنه أكثرها غموضا وأعظم لغزا بينها، وأقل جميع العلوم قابلية للبرهان العلمى. ففى طبيعة الأشياء لا مفر من الزوغان وعدم قبول التكهن لأن العالم النفسانى يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضا، فأية نظرية فى الكيمياء أو فى الفيزياء يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحتها ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدة تزيد على الستين عاما!

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها فقد كان لها تأثير منقطع النظير على الفكر الحديث. وحتى أينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل فى حياتهم مثلما فعل فرويد. صاغ فرويد أفكارا ومصطلحات فى محيط المناطق المجهولة من العقل وصارت جزءا من حياتنا اليومية. لقد أحس بآثار تعليمه كل مجال من المعارف - الأدب الفن والدين وعلم الأجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الإجرام والتاريخ وتاريخ حياة الأفراد وغير ذلك من من دراسات المجتمع والفرد.

رغم كل ذلك هناك بعض الحلاوة والضوء فى هذه التعاليم وقد أبدى أحد النقاد غير الأوفياء ملاحظته قائلا:

«وعندما انتشرت نظريات فرويد ظهر أمام الرجل العامى كأعظم مفسد للسرور فى تاريخ الفكر البشرى يحول مزاج الإنسان ومرحه إلى كبت محزن غريب ويجد العداوة فى جذور الحب والضغينة فى قلب الرقة، والزنا بالأقارب فى المحبة والإجرام فى السخاء وكراهية الأب المكبوتة كطبيعة بشرية عادية موروثة».

ومع هذا فبسبب فرويد تختلف فكرة الناس اليوم عن أنفسهم. يعتقدون أن أفكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الإدراك على الوعى والأساس الجنسى لاضطراب وظائف الأعصاب ووجود الغريزة الجنسية لدى الأطفال ووظيفة الأحلام وعقدة أوديب والكبت والمقاومة وقراءة الأفكار، ويعتقدون أن هذه الأفكار أمور عادية ثم إن عيوب الإنسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية تتخذ أهمية جديدة عند النظر إليها من وجهة نظر فرويد ومن الصعب الآن إدراك مقدار التعصب الذى كان على فرويد أن يتغلب عليه عند نشر نظرياته إذ كان أشد بكثير مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين.



فلوبير

١٨٢١ ـ ١٨٨٠م
رائد الواقعية فى الأدب العالمى

كان جوستاف فلوبير رجلا غير عادى. ويرى الفرنسيون أنه كان عبقريا، غير أن كلمة العبقرية تستخدم اليوم بصورة غير دقيقة: فقاموس أكسفورد يصفها بأنه «قدرة غريزية خارقة تمكن صاحبها من الابداع التخيلى أو التفكير الأصيل أو الاختراع أو الاكتشاف....» ويقارنها القاموس «بالموهبة»، ويرمى من وراء ذلك إلى أنها تحقق أغراضها بالفهم الغريزى والنشاط التلقائى وستفقد الكلمة قيمتها حين نطلقها على مؤلف ألحان مستحبة، أو كاتب كوميديات حية، أو رسام صور خلابة.. إنها أعمال ممتازة فى مجالها، وقد يتمتع مؤلفوها بموهبة وما أجمل أن يتمتع المرء بهذه الموهبة التى تعتبر شيئا نادرا، غير أن العبقرى يعيش فى مجال آخر، ولو اضطررت إلى اختيار العبقرى الذى أنجبه القرن العشرون، فربما كان «ألبرت أينشتين» هو الاسم الوحيد الذى يرد إلى الذهن، وقد كان القرن التاسع عشر أكثر خصوبة. أما إدراج فلوبير بين هؤلاء الذين يتمتعون بهذه الموهبة الخاصة أو عدم ادراجه، فشىء يقرره لنفسه القارئ الذى يطالع هذه المقدمة واضعا تعريف القاموس نصب عينيه.

على أن هناك شيئا واحدا ليس فيه مجال للشك: فقد اصطنع فلوبير الرواية الواقعية الحديثة، وتأثر به بطريق مباشر أو غير مباشر كل كُتاب الرواية منذ ذلك الحين. ولا نعرف كاتبا غيره كرس نفسه لفن الأدب بمثل هذا النشاط العنيف الذى لا يخبو. ولم يكن الأمر معه كما هو بالنسبة لمعظم المؤلفين الآخرين الذين يرون أن الأدب وإن كان نشاطا على جانب كبير من الأهمية، إلا أنه يسمح لهم بمزاولة أوجه نشاط أخرى تريح الذهن أو تنعش الجسد أو تثرى التجربة. لم يكن

فلوبير يعتقد أن العيش هو الغرض من الحياة، وإنما الغرض من الحياة فى نظره هو الكتابة، ولو يوجد راهب فى صومعته ضحى مختارا بلذات الدنيا حبا فى الله أكثر مما ضحى فلوبير بثراء الحياة وتنوعها فى سبيل طموحه لخلق عمل فنى.

لقد اعتنق فلوبير حكمة بوفون التى تقول، إنه لكى يجيد الإنسان الكتابة فعليه أن يجيد الإحساس والتفكير والحديث. وكان يتبع الرأى القائل بأنه لا توجد طريقتان لقول الشىء، إنما هناك طريقة واحدة، وأن اللفظ يجب أن يناسب الفكرة مثلما يناسب القفاز اليد. وكان يرغب فى كتابة نثر منطقى رشيق متنوع. وكان يتطلع إلى أن يجعله إيقاعيا رنانا وموسيقيا كالشعر، وأن يحتفظ له مع ذلك بمزايا النثر!. وكان على استعداد لاستخدام كلمات الحياة اليومية والألفاظ السوقية اذا اقتضى الأمر، مادام يستطيع استخدامها بحيث يخلق شيئا جميلا.

ويتوقف نوع الكتب التى كتبها المؤلف على طبيعته كرجل. ولهذا كان من الأفضل إذا كان كاتبا مجيدا أن نعرف بقدر ما نستطيع تاريخ حياته الشخصية. وهذا له أهميته بوجه خاص بالنسبة لفلوبير.



ولد فلوبير فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوفاس الذى كان كبير جراحى مستشفى المدينة، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطرى، أما والدته آن جستين كارولين فليريو، فكانت تنتسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر فى نورماندیا السفلى.

ولم يكن فلوبير فى طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء، وقد وصفته سيدة عرفته فى مطلع شبابه فقالت: «كان جوستاف فلوبير فى ذلك الوقت يبدو كأنه يونانى فى مقتبل السن، وكان طويل القامة نحيف الجسم رشيق الحركة كالرياضى المصارع، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية وغير حافل بتقاليد المجتمع... وحينما قلت له إن النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتى لها قيمتها، أصغى لحديثى فى غير اكتراث وقد علا وجهه الابتسام، وكان يعجب بما هو جميل فى الطبيعة والفن، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر فى مصلحته

الشخصية. ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة. وكان الذى يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئا يبدو فى فرديته القوية، والذى ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة. فاذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشئون العملية مشوقة مثل الأدب والفن، فإنه يفتح عينيه عن التعجب والرثاء لحالة القائلين بذلك».

وهكذا كانت حالة فلوبير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون.

وكان يتردد من الحين إلى الحين على مرسم براديه، وهناك لقى فى أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوليه وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات فى ذلك العهد، وفى ١٨٤٠ قام برحلة فى جبال البرانس وجزيرة كورسيكا..

ووصفة لجزيرة كورسيكا فى الرسائل التى بعث بها إلى أصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف التى تجلت بعد ذلك فى مؤلفاته.

وفى سنة ١٨٤٥ مات والده وتوفيت شقيقته كارولين فى السنة التالية وأصبحت والدته تعيش فى عزلة، فصمم على مغادرة باريس التى كان لا يستريح إلى الإقامة بها، وترك دراسة القانون التى كان يكرهها وآثر أن يعيش فى كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات، وفى الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة.

وقضى فى ذلك المكان أربعة وثلاثين عاما حتى أدركه الموت، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة إلى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك إلى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس فى فترات غير منتظمة.

ولم يقبل فلوبير على الأدب إقبالا جديا إلا فى سنة ١٨٤٦، وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ فى رسائله إلى أصدقائه، ويضع خططا لحياته المقبلة وشرع فى كتابة أصول روايته «إغراء القديس أنطونيوس».

وفى سنة ١٨٤٩، قام بالرحلة إلى الشرق مع صديقه ماكسيم دى كامب، وزار مالطة ومصر وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءا من بلاد اليونان، وفتن بما شاهد من مناظر، وعاش باقى أيام حياته يحلم بالعودة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية.

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوبير مقصورة على حوادث حياته الأدبية، وصار تاريخه كتبه التى شغل بتأليفها، وكان يقضى معظم العام فى كرواسيه مقبلا على التأليف، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلا مدة أيام قلائل. وكان لا يذهب إلى روين إلا اذا كانت هناك بعض أعمال تقتضى ذلك. وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت بيف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكُتاب والأدباء. وفى أواخر حياته كان يلقى ألفونس دوديه واميل زولا والأخوين أدمون جونكور وجيل جونكور، وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن، وفى بعض هذه الزيارات كان يجتمع برينان وتين وجورج صاند.

وشغل فى المدة من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة «مدام بوفارى».

وفيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية «سلامبو» وإتمام رواية «اغراء القديس أنطونيوس»، وظهرت «سلامبو» سنة ١٨٦١ بعد أن بذل فى كتابتها جهودا أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية مهمة.

وفيما بين سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله، وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية «التربية العاطفية» التى ظهرت فى سنة ١٨٦٩.

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الهموم والأحزان، وكان بطبيعته ميالا إلى الحزن والتشاؤم، وقد قوى هذا الميل فى نفسه تقدم سنه والأحداث السياسية وما لقيته روايتاه «سلامبو» و«التربية العاطفية» من قلة الرواج وسوء التقدير، يضاف إلى ذلك تعرضه لمرض عصبى أصابه كانت نوبات هجماته تشكل خطرا مستمرا على حياته. وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لى بوتيفان، كما فقد

صداقه ماكسيم دى كامب، وفقد والدته سنة ١٨٧٢، وتقدم فى الشيخوخة وحفت به العزلة الموحشة.

وفى سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفا به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة رواية «بوفار وبيكيشيه» وكان يؤثرها على مؤلفاته، وقد بذل فى كتابتها جهدا جبارا، وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها، وكان ينوى أن يخرجها فى مجلدين، ولكن المواد التى تركها لم تكن تكفى إلا مجلدا واحدا، وقد مات بفعل سكتة قلبية فى صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو فى الثامنة بعد الخمسين من عمره.



فـولتيـر

١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م

خلاصة حياة عصر بأكمله

استهل الكاتب البريطانى المؤرخ النقادة توماس كارليل مقاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسى الشهير فولتير بقوله: «لو قدر للطموح أن يختار طريقه، وللإرادة فى المحاولات الإنسانية أن ترادف الموهبة لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب».

وفى موضع آخر من المقال نفسه يقول: «إذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية؛ فإنه ليس هناك أحد من رجال الفكر فى العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوربيين خالصين مثل فولتير».

والواقع أن فولتير، قد بلغ فى عصره من الشهرة الواسعة والمكانة المرموقة العالية مالم يبلغه كاتب قبله أو بعده، حتى أصبح علما على عصره ورمزا له وليس فى مستطاع إنسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير.

وقد كتب عن فولتير من زوايا عدة وتناقضت الأحكام فى تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ولم يكن هناك مناص من ذلك؛ فقد كان الرجل متعدد الجوانب وتناول فى حياته موضوعات شتى وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره.

ووصفه فيكتور هوجو فقال: «ان ذكرت اسم فولتير فقد ذكرت أخص مميزات القرن الثامن عشر من أوله إلى منتهاه» وقد اختصت إيطاليا بعصر النهضة، واختصت ألمانيا بعهد الإصلاح اللوثرى؛ ولكن فرنسا اختصت بفولتير فقد كان يضم فى برديه النهضة والإصلاح ونصف الثورة الفرنسية».

ووصفه لامارتين فقال: «إن الأقدار قد وهبته عمرا قد جاوز الثمانين،

فاستطاع أن يقضى على فساد عصره وقد مكنه عمره الطويل أن يحارب الزمن فلما سقط فى حومة الوغى كان سقوطه سقوط الظافر المنتصر...». ويوم وقعت عينا لويس السادس عشر - وهو فى سجنه - على مؤلفات فولتير وروسو قال: إن هذين الرجلين قد أوديا بفرنسا.. وهو يقصد بفرنسا أسرته هو بالطبع.

ومن مأثور أقوال فولتير: «إن الكتب تحكم العالم أو على الاقل تحكم الأمم ذوات اللغات المكتوبة. أما ما سواها فلا تدخل فى الحساب..».

ما من رجل علم الكثيرين من معاصريه ومن بعد عصره أن يفكروا وأن يستغلوا قواهم العقلية مثل فولتير، وما من قوة استطاعت أن تطفئ ذلك الضياء الذى انبثق فى أنحاء أوربا نتيجة لتعاليم فولتير والذى لا ينفك يتألق فى سمائها.

ولقد كان أولئك الذين لا يحبون أن يفكر الإنسان لنفسه والذين يحبون أن يظل العقل البشرى جامدا يقولون إن فولتير رجل شاذ؛ لأنه كان يصر على أن من حق الإنسان أن يشك فيما لا يستطيع أن يؤمن به. والذين لم يطالعوا حرفا واحدا مما كتبه فولتير يؤكدون أنه كان رجلا ملحدا، على أن شعر فولتير كان خير جواب على هذا الاتهام - وإن كان لم يعن بتوجيهه إلى هؤلاء القوم وإنما كان يتوسل به إلى الله.



ولد الطفل الذى يدعى بعد ذلك باسم فولتير (وهو الاسم الذى عرف به فى كتاباته) فى مدينة باريس يوم ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤ وسمى فرانسوا وأمه مارى أروا وتوفيت أمه بعد سبع سنوات من ولادته وكانت صحته منذ بداية عهده فى هذه الحياة سيئة، ولم يستطع على مر الأيام أن ينفض عن نفسه هذا الاعتلال الصحى، كان طفلا نحيف الجسم ذا ابتسامة شيطانية شديد الجاذبية وله ولع غير طبيعى بدروسه.

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره أعلن أنه اعتزم أن يصبح من رجال الأدب وكأنما كان المداد يجرى فى عروقه، فقد كان الشعر والمسرحيات تتدفق منه فى غير توقف.

وكان أبوه رجلا من الطبقة المتوسطة يقترب قليلا من طبقة الأثرياء وكان طموحا

من الوجهة الاجتماعية، وأراد أن ينقذ ابنه من حياة مهينة حين دفع به إلى مكتب محاماة ولكن الشاب فولتير أظهر فشله فى هذه الناحية فألحقه أبوه بالسلك السياسى وبعث به إلى هولندا وسرعان ما حطم أول قاعدة فى عمله السياسى حين فر وعاد إلى وطنه يحمل هذه الوصمة ومع هذا فقد كان لا ينفك يريد أن يكتب وصاح أبوه فيه: «إنك بالكتابة ستموت جوعا» وكأنما أراد أن يساعد القدر فى مهمته، فحرم ابنه من الميراث، وسرعان ما خاب تنبؤ أبيه ففى خلال عشر سنوات نجح فولتير نجاحاً مالياً فاق أحلام أى شاعر.

ولقد كان من أكبر عوامل نجاح فولتير ما عمد إليه الرقيب من مصادرة كل كتب فولتير تقريباً وما اتبعه رجال الشرطة من وقف تمثيل مسرحياته فى الليلة الثالثة من عرضها؛ وكان من نتيجة ذلك أن كانت المسارح تغص بالباريسيين فى ليالى الافتتاح، وأن كتبه كانت تباع وتقرأ كأنها مطبوعات صادرة من مؤسسة تختفى تحت الأرض عن أعين الرقباء وتسربت الكتب إلى الأقطار المجاورة فطبقت شهرة فولتير هذه الآفاق الجديدة. وكانت التهمة الرسمية الملصقة به أنه يفسد الأخلاق والمبادئ العامة، ولكنها لم تشر أية إشارة إلى الخروج عن الآداب كأن المبدأ وقتذاك أن التهجم على الحكومة وانتقاد أعمالها يعد من أسوأ ضروب (المنافاة للشرف والآداب). ومسرحيات فولتير قد وضعت على أنها وقعت فى بلاد الفرس واليونان وبيرو والصين إلا أن كل إنسان كان يدرك المعانى المزدوجة وما بين السطور ويضج بالضحك الساخر، والضحك شعلة لا تستطيع الحكومة أن تعمل على إطفائها ولم تملك الحكومة الفرنسية ألا أن تتبع مع فولتير طريقة استبدادية تعسفية فأودعته سجن الباستيل، ولم تكن الحكومة فى ذلك العهد ملزمة أن تثبت التهمة ضد إنسان لكى تودعه السجن، فقد كان حسبها مجرد الشك والاشتباه ويبقى الإنسان فى السجن دون أن يفرج عنه إلا إذا كان له أصدقاء أقوياء يبذلون جهودهم ونفوذهم فى إخراجه، وقد مكث أصدقاء فولتير أحد عشر شهرا حتى استطاعوا الإفراج عنه بعد أن ازدادت صحته سوءا وضعفا وبعد أن أصبح أشد ضراوة وخطورة.

وكان فى استطاعة فولتير أن يحتمل ما يحيق به من ظلم وعسف أما ما ينال

الآخرين منهما فلا يستطيع احتماله.

حين كانت أعظم ممثلات فرنسا، أدريين ليكوفريه، تحتضر كان فولتير قابعا إلى جانب فراشها يستمع إلى حديثها وهى تقص عليه كيف أن القسيس قد طلب منهما أن تعلن أن فنها التمثيلى هو عمل معيب وكيف أنها رفضت هذا المطلب رفضا باتا؛ فتركها القسيس دون أن يمنحها الغفران الدينى ولما ماتت هذه الممثلة العظيمة أسرع رجال البوليس بجثتها ودفنوها فى حفرة وأهالوا عليها الجير الحى.

منذ ذلك اليوم طوى بين جوانحه كراهية متأججة لا للدين المسيحى، بل للقسوة التى تتنافى مع الدين السمح سواء أكانت هذه القسوة فرنسية أم غير فرنسية، وكان يقول: «ان الرجل الذى يقول لى: اتبع عقائدى والاحلت بك لعنة الله، سيقول لى بعد ذلك: اتبع عقائدى وإلا قتلتك».

ورجل له مثل هذا اللسان، لا يمكن أن يكون فى مأمن فى بعض الأقطار حتى فى عصرنا الحالى؛ ولهذا فسرعان ما أودع فولتير سجن الباستيل للمرة الثانية ثم أطلق سراحه حين وعد بمغادرة فرنسا وأبحر إلى انجلترا وهو متلهف القلب فوصل لندن عام ١٧٢٦ وقد تأثر أبلغ التأثير حين شاهد جنازة السير إسحاق نيوتن العالم الشهير فلم يعتد فولتير أن يرى حكومة فرنسا تبدى مثل هذا التقدير العظيم الذى أبدته الحكومة الإنجليزية والشعب الإنجليزى عن وفاة عالم مثل نيوتن والاحتفال بجنازته ودفنه فى هذا الاحتفال الضخم، كذلك أدهشه فى انجلترا ما يسبغه الشعب الإنجليزى على شعرائه من التعظيم والإجلال، وما فى مجلس العموم البريطانى من القوة والاستقلال فى الرأى وأكثر من هذا وذلك ما رآه رأى العين من عدالة القضاء الإنجليزى .

وفى عام ١٧٢٩، وكان فولتير قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، تسلم تصريحا من الحكومة الفرنسية بعودته إلى فرنسا ولم ينقض وقت طويل حتى ندمت فرنسا على هذا التصريح الذى منحته إلى فولتير.

واستطاع فولتير بما اكتسبه من الخبرة التجارية مدة إقامته فى انجلترا أن عادت عليه هذه التجارة بثروة جعلته من الأغنياء وكان بطبيعته يحب حياة

الرفاهية، فقد كان فولتير يحس بما يعانيه الناس من الشقاء والتعاسة، بيد أن فولتير كان له من الآراء الأخلاقية ما هو أنبل من آراء ناقديه: لقد كان يرى أن الانسان قد خلق حرا طليقا ومسئولا عن أعماله وأن ضميره وحده هو الذى يتولى الحكم على عمله.

وفى عام ١٧٥٥ وجد الفيلسوف الكهل ملجأ له وملاذا فى جمهورية جنوا الصغيرة وهناك ابتاع دارا أمها كل رجل عظيم فى أوروبا استطاع أن يقوم بالرحلة إليها وفى هذه الدار كان فولتير يستقبلهم استقبالا حافلا، وفى عينيه الخابيتين بريق وعلى وجهه المجعد ابتسامته القديمة الخبيثة وكان يحتسى القهوة بشراهة ويحادث ضيوفه أشهى الأحاديث وكان الضيوف يجيئون لقضاء ثلاثة أيام فيمكثون ثلاثة شهور.

وجاء يوم اشتد فيه حنين فولتير إلى وطنه وعظم شوقه إلى رؤية باريس قبل موته، وفى أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٧٧٧ وقفت مركبة أمام ضابط الجمارك الذى أراد أن يرى هل تحمل هذه المركبة أشياء ممنوعة واذا به يسمع ضحكة خفيفة وصوتا يقول له: «لا شىء ممنوعا داخل المركبة عداى!!» وبادر الضابط وفتح باب المركبة وصاح: «يا الهى انه مسيو فولتير!»، لأن تلك الابتسامة المغضبة كان يعرفها الملايين الذين لم تقع أنظارهم على شخص فولتير.

واستقبلته باريس استقبالا رائعا، وفتحت الأكاديمية الأهلية التى حاربته طويلا ذراعيها لذلك الأديب الثائر العظيم واصطف كل موظفى مسرح «الكوميدى فرانسيز» أمام الباب لتحية المؤلف المسرحى العظيم.

وقضى هذا الأديب الثائر نحبه وهو فى الثالثة والثمانين من عمره، وكان ذلك فى مايو عام ١٧٧٨ وكانت آخر كلماته التى أملاها على سكرتيره هى:

«إننى أموت وأنا أعبد الله وأحب أصدقائى ولا أكره أعدائى وأزدرى الخرافات».

وكان خير جزاء ناله فولتير حين قامت الثورة الفرنسية وأخرج الناس جثته ووضعوا نعشه فوق أنقاض الباستيل مدة ليلة، فقد كان ليديه الضعيفتين الفضل

فى القضاء على هذا السجن العتيد الرهيب.

ولقد كان فولتير من أشد المهتمين بالتاريخ فكتب فيه لكن بعين الفيلسوف لا بعين المؤرخ التقليدى الذى يقتصر التاريخ بالنسبة له على مجرد سرد الحوادث وتوخى الدقة فى التأريخ لها والإلمام بتفصيلاتها، فلقد كان التاريخ الإنسانى بالنسبة لفولتير وحدة واحدة ينظر إليه ككل ويرى أن جوهره هو التقدم المطرد الذى يحققه الإنسان فليست فى التاريخ معجزة لا يمكن تفسيرها؛ لأن ثمة عوامل ثلاثة تؤثر على فكر البشر ومن ثم على صناعتهم لتاريخهم هى المناخ ونوع الحكم والدين. وإن وضعنا هذه العوامل فى الاعتبار استطعنا تفسير لغز هذا العالم، فان انتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية وتقدم الأخلاق والعلوم والفنون كل هذا جرى بصورة طبيعية، وكل هذا سيستمر متزايدا كلما توسع أفق العقل البشرى وكلما أحرز قدرا أكبر من التقدم العلمى والصناعى والفنى والأخلاقى والسياسى مما يتناسب أكثر مع حاجات الإنسانية لا فرق فى ذلك بين انجازات أمم الشرق القديم وإنجازات الغربيين المحدثين، إلا فرقا فى درجة التطور الذى وصلنا اليه وزيادة كم الاكتشافات والمخترعات التى ساهمت فى السيطرة أكثر على الطبيعة، وفتحت الآفاق بصورة أكثر اتساعا أمام الإنسان.

وهكذا تبلورت لدى فولتير نظريته فى تفسير التاريخ هى ما يمكن أن نطلق عليه نظرية التقدم، وهى نظرية تركز على الإنجازات العقلية للبشر وتتبع تطور هذه الإنجازات فى مختلف الميادين فالتاريخ بالنسبة له خط مستقيم سار فيه جميع البشر.



كارلايل، توماس

١٧٩٥ ـ ١٨٨١م
أحد الكتاب المبرزين فى الأدب العالمى

عندما نشر المؤرخ الإنجليزى الأشهر «توماس كارلايل» كتابه «الأبطال» هذا الكتاب الجامع ـ بعد أن ألقاه فى سلسلة محاضرات بمدينة لندن خلال سنة ١٨٤٠ ـ أحدث هزة فى الأوساط والمحافل الأدبية والعلمية.. فقد كان المألوف فى كتابة التاريخ حتى ذلك الحين أن يستمد الكاتب أصل الأحداث من الحركات والتيارات السياسية، والاتجاهات المختلفة التى تسير دفة الأمور دون الالتفات إلى «شخصيات» الرجال والأبطال، وأثرها القوى فى إعداد العدة لتلك الأحداث.. فاذا بكارلايل يجىء فيهدم هذه النظرية العتيقة ليبنى على أنقاضها نظريته الجديدة التى تعتبر سيرة حياة الزعيم أو البطل بمثابة العنصر الأساسى من عناصر تاريخ أمته.. فكارلايل يؤمن إيمانا عميقا بالوحى شبه الإلهى الذى يلهم عظماء الرجال، ويؤمن بمدى نفوذهم على تاريخ شعوبهم وأثر الرسالات التى يضطلعون بها فى صنع مستقبل بلادهم.

و«توماس كارلايل» أحد الكتاب المبرزين فى تاريخ الأدب العالمى، وقد حفل الأدب البريطانى فى القرن التاسع عشر بطائفة من كبار الكتاب والنقاد والشعراء والمؤرخين، ولكن «كارلايل» كان مع ذلك أجلهم شأنا، وأبعدهم شهرة وأسماهم مكانة.

ولم يكن «كارلايل» كاتبا كبيرا فحسب، وإنما كان كذلك رجلا عظيما، عظيما فى شخصيته الواضحة المعالم الخالصة الجوهر، وفى إخلاصه وصراحته، وفى جلده العجيب على البحث والتحرى والتحقيق، ومثابرته الدائمة على التأليف والتفكير دون أن يعبأ بالشهرة أو بالمال. وقد ظل طوال حياته يصدع برأيه ويدلى

بحكمته دون أن يبالى أوقعت فى النفوس موقع القبول والاستحسان أم موقع الضيق والاستهجان؟ ولم يكن إعجاب الجمهور به أو تقديره لأدبه وشخصيته ليحمله على أن يقول غير ما يعتقد ليستبقى هذا الإعجاب ويحتفظ بتلك الثقة. وقد ظل قرابة ربع قرن وهو يشغل مكانة مرموقة بين معاصريه.

وكان ما يمقته «كارلايل» ويحمل عليه أن تظل آراؤه تنتقل من فم إلى فم وتردد فى الأندية المختلفة فيقره بعض الناس على آرائه، ويتلقاها بعضهم بالرفض والاستنكار، ولكن الاتجاهات التى كان يوافق عليها ويشيد بها كان يكفيها موافقته واشادته دليلا على صحتها، وباعثا على تأييدها.

وكان جميع الناس يعلمون أنه وصل إلى تكوين معتقداته واعتناق أفكاره بعد أن خاض لجج التجربة الشخصية وبذل مجهودا فكريا، وأنه علم نفسه قبل أن يتطلع إلى تعليم غيره، وأنه مهما كان التقدير الذى تلقاه آراؤه وتظفر به رسالته فإن نزاهته وإخلاصه وصراحته فوق متناول الشكوك، كما أن له من المؤلفات العظيمة ما يدعم مكانته ويبعد صيته وشهرته.



وحياة «كارلايل» مثل حياة أكثر الكتاب والمؤلفين لم تتخللها أحداث خارجية عظيمة، فهى تكاد تكون مقصورة على مغامراته الفكرية والمؤلفات التى استأثرت بجهده واستغرقت وقته، وحياته الزوجية وعلاقاته بأصدقائه القليلين المختارين، مثل «ارفنج» و«ستيوارت مل» و«براوننج» وغيرهم من الكُتاب والمفكرين.

ولد توماس كارلايل لأب بناء، وكان أكبر إخوته التسعة، أرسله أبوه إلى مدرسة القرية، فإلى المدرسة الثانوية، ولما كان الفتى ذا نبوغ ظاهر قرر الوالد أن يبعث به إلى جامعة «ادنبره» ليتلقى تعليمه العالى فى الدين إعدادا له ليكون فيما بعد قسيسا، وسار الفتى على قدميه من بلده إلى «أدنبره» وهى مسافة طولها مائة ميل، بلغها وهو فى الخامسة عشرة من عمره، ولكن أين لهذا الصبى الفقير بمصروفات الجامعة؟ لابد له أن يلجأ إلى ما يلجأ اليه أبناء الأسر الفقيرة عادة فى اسكتلندة، وهو أن يشتغل ليكسب قوته إبان دراسته الجامعية. وأخذ كارلايل يشتغل ليكسب قوته إبان دراسته الجامعية. وأخذ كارلايل يشتغل بالتدريس بعض وقته، ثم مالبث أن تبين فى نفسه نفورا من هذا الذى أريد منه أن يدرسه

فانحرف عن ذلك الطريق ليكتب مقالة هنا ومقالة هناك، ثم ليدرس اللغة الألمانية، وفى هذه الدراسة كانت ولادته الأدبية، فقد انفتحت له آفاق فسيحة، عرف أولا كيف يصوغ انجليزيته صياغة ألمانيا ثم عرف ثانية كيف يفكر.

لما بلغ «كارلايل» عامه الثلاثين، جاء إلى لندن مربيا لأولاد أحد الأغنياء، ولم يمض طويل وقت حتى صادف من أصبحت له فيما بعد شريكة حياته، وبعد زواجه سافر إلى «أدنبره» حيث أخذ يكتب فى النقد الأدبى، لكن الزوجين لم يجدا هنالك ما يقتاتان به فعادا أدراجهما إلى لندن، ومن ثم أخذ يخرج نتاجه الأدبى «الثورة الفرنسية» و«فلسفة الملابس» و«الأبطال وعبادة البطولة» و«الماضى والحاضر» و«خطابات أوليفر كروමويل وخطبه» و«تاريخ فردريك الأكبر».

وآيته الكبرى هى «الثورة الفرنسية» التى قص قصتها فى صورة حية ناصعة. فكارلايل مؤرخ موهوب، يبعث الحوادث والأشخاص بعثا جديدا، فإذا أنت إزاء حياة تجرى فيها الدماء، وأشخاص يتحركون وينشطون كما يتحرك الأحياء وينشطون، ومن خصائصه فى وصف الأشخاص أنه كثيرا ما يوفق إلى عبارة واحدة تلخص كل شىء عن الرجل الذى هو بصدد الحديث عنه.

أما كتابه «فلسفة الملابس» فيعرض رأيه فيه بأن العمل واجب مقدس على الإنسان، وبأن احتمال المكاره فى سبيله فرض واجب، وليست السعادة التى ننشدها جميعا إلا شعور الاطمئنان الذى نحسه إذا ما أدينا واجبا «بارك اللهم فيمن وجد عملا يؤذيه، إن فى هذا وحده البركة التى لا بركة وراءها ترجى». أن العمل المتقن معناه النظام، والنظام شىء تمناه «كارلايل» لبلاده، بل للإنسانية جمعاء، متأثرا فى ذلك بما درس من الأدب الألمانى والروح الألمانى.. فلن تفهم «كارلايل» حق الفهم إلا إذا وضعت نصب عينيك أنه ألمانى الثقافة ألمانى التفكير، ولقد قيل إن إنجلترا فى عصر فيكتوريا كانت ألمانية النزعة والاتجاه بتأثير الملكة فكتوريا نفسها وزوجها الألمانى، لكنها كانت كذلك أيضا بتأثير «كارلايل» الذى كان له من الأثر على معاصريه ما لم يكن لكاتب آخر فى عهده.

اما آيته الكبرى الثانية فهى كتابه عن «الأبطال» وهو يصور البطولة فى شتى نواحيها، بطولة الحرب وبطولة الدين وبطولة الشعر وهكذا. وهو فى عبادته للبطولة وإيمانه بها يبشر بالفلسفة الألمانية أيضا، تلك الفلسفة التى كان «نيتشه» بعد ذلك لسانها الناطق.

كانط

١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م

حياة من أجل الفكر

«كانط» فيلسوف من كبار فلاسفة الإنسانية، وهو مبدع ما يسمى «بالمثالية النقدية»، التى مهدت السبيل إلى انتصارات الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، وواضع مشروع يرمى إلى استتباب السلام الدائم بين أمم الأرض قاطبة دون تفريق.

استهل كانط عصرا جديدا فى الفكر الفلسفى. ومؤلفاته الكبرى أشبه بمعالم الطريق فى تاريخ الفلسفة الحديثة. انه أحد أولئك العباقرة من أفذاذ الانسانية المفكرة، الذين استطاعوا بحياتهم ومؤلفاتهم أن يخلقوا فى الحياة العقلية داخل بلادهم وخارجها أثراً باقياً عند أهل عصرهم وعند الخلف من بعدهم. لقد وصفه أحد الكتاب بأنه «مفكر هز العالم بفكره أشد مما هزه معاصره فردريك الأكبر، على الرغم من جيوشه ومدافعه». وما من أحد ممن يأخذون أمور الفكر والحياة مأخذ الجد يستطيع اليوم أن يفكر أو أن يعمل من دون أن يضع موضع الاعتبار نظريات كانط وآراءه. وقد كانت تلك الآراء ولا شك من أكبر الوقائع فى تاريخ العصر الحديث، إنها فيما يرى كونوفيشر، تمثل ثورة شبيهة بالثورة التى أحدثها سقراط حين صرف الإنسان عن دراسة الكون إلى دراسة نفسه. والحق أنها تحدد مهمة الفيلسوف تحديدا دقيقا بحيث لا يعنيه أن يستكشف مبادئ الوجود ولا أن يحصل لنفسه نظرة عن العالم، بقدر ما يعنيه أن يبحث فى قوة العقل ليتبين اختصاصه وحدوده ومداه، ويتلمس شروط المعرفة الإنسانية ويبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا.

بيد أن حياة «كانط» الخاصة تكاد أن تضمر أمام عظمة عمله، وإن كانت تقدم لنا صورة مشرقة لسلوك المعلم فى خواطره وتوجيهاته.

ولد «كانط» فى ٢٢ أبريل سنة ١٧٢٤ بقرية «كونيجسبرج» وكان أجداده لأمه وأبيه من المزارعين والسقاة والحرفيين فى بروسيا الشرقية، وفى كورلاند، وبعضهم فى لتوانيا، وكان والداه يعيشان عيشة متواضعة أقرب إلى المسغبة. وهو مع هذا يفخر بهما فيذكر أنهما وإن كانا لم يخلفا له ثروة فإنهما لم يتركا وراءهما دينا. وقد استطاعا أن يهيئا له تعليما نموذجيا مرتكزا على القناعة والاستقامة.

ألتحق «كانط» وهو لما يزل فى الثامنة بمعهد فريدريك، وهو مدرسة ثانوية تصطبغ الدراسة فيها بالصبغة الدينية التى لا تخلو من تزمت. وفى سنة ١٧٤٠ بدأ «كانط» دراساته فى اللاهوت والفلسفة والرياضيات فى جامعة «كونيجسبرج» مسقط رأسه. وكان أستاذه فى الفلسفة هو الأستاذ «مارتن كنوتزن» الذى سيثنى عليه «كانط» فيما بعد ثناء عاطرا لحرصه على ألا يجعل من تلاميذه ببغاوات تردد ما تلقنه دون فهم، بل شخصيات مفكرة يتوخى كل منهم ممارسة التأمل والإدلاء بالرأى بعد النظر والتدبر. وعقب وفاة أبيه سنة ١٧٤٦ قطع كانط دراسته التى استمرت زهاء سبع سنوات. ولحاجته إلى المال اشتغل لسنوات عديدة معلما خاصا. وفى تلك الحقبة من حياته انصرف إلى استكمال ثقافته العامة مستفيدا من خبرات السنين وأحداثها مستخلصا منها القدرة على فهم الحياة ومواجهتها. وفى سنة ١٧٥٥ حصل على درجة الماجستير. وفى نفس السنة غدا مؤهلا للتدريس فى التعليم العالى بدراسته عن «توضيح جديد للمبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية»، وأصبح بذلك أستاذا بجامعة «كونيجسبرج»، وتجلت براعته كمحاضر وسعة اطلاعه وعمق فكره، فى ذلك النشاط الواسع الذى مارسه فى التعليم وتناول فيه فروعا متعددة من المعرفة: فى الرياضيات والفيزياء ـ وكان أول من درسها فى جامعة ألمانية ـ والأنثروبولوجيا. غير أن ما يسترعى الانتباه أن «كانط» فى هذا النشاط الموسوعى فى دروسه لم يعلن فلسفته الخاصة.

وما أن عين أستاذا للمنطق والميتافيزيقا فى جامعة «كونيجسبرج» سنة ١٧٧٠ وهو فى السادسة والأربعين، حتى فاض إنتاجه فى محاضراته وكتبه، وتحددت معالم فلسفته. وقد ظل يشتغل بالتدريس فى الجامعة إلى أن آثر الاعتزال سنة ١٧٩٦، ومات سنة ١٨٠٤، وقد ترك لنا إنتاجا فكريا ثمينا يغطى نصف قرن من

١٧٤٩ إلى ١٧٩٩.

وحياة «كانط» ذاتها بالنسبة لإنتاجه ليس فيها كما ألمحنا ما يثير. هى حياة شغلها التأمل الخصب لمفكر انصب اهتمامه الأكبر على التدريس، ولكننا برغم هذا نجد من التجنى على صاحبها القول بأنه عاش فى عزلة عن الدنيا وعزوف عن شواغلها وغيبة عن أحداثها. فلقد كانت الحياة فى نظر «كانط» واجبا ساميا ينهض بأدائه على الوجه الذى يرضى الضمير، وكانت محاضراته الجامعية تجمع إلى جانب الدراسة الخالصة، التوجيه الأخلاقى السديد.

وتكوين «كانط» الفكرى تكوين غنى، فمنذ العام السادس عشر من عمره درس فلسفة «فولف» فى سنته الأولى بجامعة «كونيجسبرج». ومن عجب أنه سجل اسمه للتخصص فى دراسة أصول الدين، وكان يندر أن يتابع محاضرة واحدة فى هذه الدراسات، بل كان شغفه منصبا على الفلسفة والعلوم الطبيعية، وقد هيأ له اشتغاله بالتدريس كمعلم خاص أن يختلط بأسر عديدة من الأسر الألمانية الكبيرة، ومكنه ذلك من الاتصال بكثير من الشخصيات المعاصرة له.

وقد نمى هذا الاختلاط بالناس فهمه للطبيعة البشرية، وعمق خبراته بالعلاقات الإنسانية، فاذا أضفنا إلى ذلك حرصه منذ شبابه الباكر على جمع المعارف وتصنيف المعلومات التى تثرى ثقافته وتغذى عقله، للاحظنا أنه حين راح يمارس عمله أستاذا فى الجامعة تجلت فيه خصال الكاتب إلى جانب صفات المحاضر. فليس غريبا بعد هذا أن يجذب «كانط» إلى محاضراته العديد من عشاق المعرفة.

وقد اقتنع «كانط» بأنه لا سبيل إلى تقدم الدراسات الفلسفية إلا بالتحليل. وقد بسط خواطره فى هذا الصدد فيما كتب من رسائل ومقالات بين عامى ١٧٦٢ ـ ١٧٦٣. وفى تلك الفترة يظهر نفوذ كل من الفيلسوف الاسكتلندى «هيوم» والمفكر الفرنسى «روسو» على الفيلسوف الألمانى. ولا شك أن اهتمام «كانط» بالتحليل كدعامة لكل فكر فلسفى مرجعه ما طالعه من نقد لعلاقة العلية عند «هيوم».

ان ما طالعه «كانط» «لهيوم» و«روسو» قد أثر فيه تأثيرا عميقاً، وأدار فى

رأسه مشكلات أصيلة تعد بحق الخادمة الجوهرية لفلسفته. وإذا كان «هيوم» قد وقف عند حد تفسير الضرورة فى العلية بعادة فى الذهن يثبتها الاعتقاد، وإذا كان «روسو» قد اكتفى بالدعوة العاطفية، فإن «كانط» بروحه المشرعة قد وضع بالعقل كل شىء فى موضعه. ولذلك كانت ثقافة «كانط» الواسعة وإحاطته بالمذاهب السابقة على اختلافها وتنوعها، بمثابة الحافز الأساسى الذى حفزه إلى تقديم فلسفة متكاملة على أساس التحليل والنقد.

لذلك نجد أنه فى سنة ١٧٧٠ حين صار أستاذا للفلسفة بجامعة «كونيجسبرج»، نشر فى نفس العام رسالة باللغة اللاتينية بعنوان: «صورة العالم الحسى والعالم العقلى ومبادئهما». وفى هذه الرسالة ظهرت لأول مرة بعض الأفكار الأساسية فى فلسفته. فإذا لاحظنا أن «كانط» قد ذكر فى بعض كتاباته وأحاديثه أن سنة ١٧٦٩ تعد سنة حاسمة فى تفكيره، لتبينا أن هذه الرسالة تعتبر بحق أول إعلان للفلسفة الكانطية. ويقول «كانط» نفسه عنها إنها الإلهام والضوء الغامر. ويمكننا أن نصوغ القاعدة الأساسية التى خطرت له آنذاك على النحو التالى: إن الصور والمبادىء التى تعد الشروط الضرورية لكى يمكن لشىء أن يكون موضوعا لمعرفتنا، يجب أن تكون صورا ومبادئ صالحة لكل تجربة. وطبق «كانط» هذه القاعدة على الزمان والمكان من حيث اعتبارهما صورتين لإحساسنا، أى من حيث كونهما الإطار العقلى الضرورى الذى بدونه لا يمكن للإحساس أن يكون احساسا. وتعد هذه الفكرة إيذانا بالثورة الكانطية فى الفلسفة المناظرة للثورة الكوبرنيقية فى الفلك: فالأشياء تدور حول الذات العارفة دوران الكواكب حول الشمس.

إن المهمة الأساسية للفلسفة هى التحليل والنقد لا تبديد الجهد فى تحليل الظواهر ذاتها، بل بنقد العقل. وتجلت هذه الفكرة متبلورة فى عمدة كتبه «نقد العقل الخالص النظرى» الذى صدر سنة ١٧٨١. ويعتبر هذا السفر القيم برغم وعورة أسلوبه بحثا تحليليا دقيقا لأصول المعرفة وغاياتها. وقد قيل بحق إن كل من يبحث فى نظرية المعرفة يبدأ بكتاب «لوك»: «مبحث فى الفهم الإنسانى»، ثم لا يلبث أن يتجه إلى كتاب: «نقد العقل الخالص النظرى»، حيث تنفتح أمامه آفاق لم يكن فى وسع الفيلسوف الإنجليزى أن يوجهه اليها، وان فى هذا الكتاب بحثا

جادا عميقا عن الشروط الضرورية اللازمة لكل معرفة صحيحة، فضلا عن تحديد لإمكانات العقل وتوضيح لمعالم النطاق الذى يتعين عليه الالتزام به. فالكتاب من ثم دليل على قدرة العقل الفذة فى ميدانه، وعلى عجزه الذى لا مناص منه فى غير ميدانه. وليس معنى هذا أن «كانط» قد استطاع فى هذا الكتاب أن يجد حلا نهائيا لمشكلة المعرفة، فإن هذه المشكلة يثير حلها ذاته مشكلات أخرى.

وما كاد «كانط» يحس بما فى كتابه من مشقة واستعصاء، حتى أخرج بعد عامين كتابا جمع فيه باختصار وفى وضوح الأفكار الأساسية وهو: «التمهيدات إلى كل ميتافيزيقا نبغى أن تكون علما» وقد صدر سنة ١٧٨٣. ولم يكد «كانط» ينتهى من عرض أسس فلسفته النظرية، حتى دفع إلى الناس بكتابه: «نقد العقل الخالص العملى» الذى صدر سنة ١٧٨٨. وقد بسط فيه تصوراته الأخلاقية.



كريستى، أجاثا

١٨٩١ ـ ١٩٧٦م
من أفضل كتاب الرواية البوليسية في العالم

ولدت أجاثا مارى كلاريسا ميلر عام ١٨٩١، وكان والدها فريدريك ميلر أمريكياً من أهالى مدينة نيويورك، أما والدتها فإنجليزية من لندن. وكان ميلادها فى «ثوركى» بمقاطعة ديفونشير بإنجلترا، وكانت هى آخر العنقود لعدد من الإخوة والأخوات. وقد توفى والدها وهى ما تزال فى سن مبكرة، فتولت أمها تربيتها، وكانت امرأة ذكية متفتحة العقل قوية الشخصية ذات قدرة هائلة على خلق الحماس فى نفوس أطفالها. ولم تتلق الصبية أجاثا تعليمها فى مدرسة فى طفولتها، بل قامت الأم بهذه المهمة. وكانت الطفلة أجاثا تتمتع منذ سن مبكرة بخيال خصب فتخلق لنفسها أصدقاء يشاركونها اللعب فى الغابات والجبال، وأدركت الأم مواهب طفلتها فشجعتها على هذا النوع من اللعب. فعندما أصيبت أجاثا ذات يوم بنزلة برد شديدة ألزمتها الفراش، وبرمت الطفلة بطول أيام مرضها نصحتها أمها أن تقضى على ضيقها بكتابة قصة، ثم أحضرت لها الأوراق والأقلام. ومن يومها أحبت أجاثا الكتابة، ولم تترك القلم من يدها حتى لحظة وفاتها.

وفى عام ١٩٠٧. أى حين كانت فى السادسة عشرة. أرسلتها والدتها إلى باريس لدراسة الموسيقى والغناء، وفى معهد الموسيقى اكتشفوا أن صوتها جميل لكنه ليس من القوة بحيث يصلح للأوبرا، فعادت إلى انجلترا وإلى هوايتها القديمة: الكتابة والقراءة.

وفى الشتاء التالى ـ أى شتاء عام ١٩٠٨ صحبتها والدتها إلى مصر للسياحة، حيث رأت لأول مرة النيل والآثار الفرعونية الخالدة والشمس الساطعة والسماء

الصافية، فعشقت مصر وكتبت بعد ذلك قصصاً كثيرة كانت مصر مسرح أحداثها، بل إنها كتبت أثناء إقامتها فى مصر قصة أرسلتها إلى إحدى المجلات الأدبية فى إنجلترا وفوجئت بعد عودتها بأن القصة نشرت فى المجلة وتقاضت عنها جنيهاً استرلينياً، وكانت هذه أول قصة قصيرة تُنشر لها وتقاضت عنها أجراً.

وكان للأسرة جار طبيب اسمه إيدن فيليبوتس كان يقرأ أعمال الشابة أجاثا ويوجهها، فكان بذلك أول قارئ وناقد لها. وفى عام ١٩١٢ خطبها أرشيبالد كريستى أحد أبناء حيها، ثم تم الزواج فى عام ١٩١٤، وهو العالم نفسه الذى اندلعت فيه الحرب العالمية الأولى، فذهب الزوج مع الجيش إلى فرنسا، بينما التحقت أجاثا ـ التى أصبح اسمها أجاثا كريستى نسبةً إلى زوجها أرشيبالد كريستى ـ بصيدلية الصليب الأحمر فى ثوركى، حيث عملت فى قسم السموم. وفى هذا القسم تعلمت كل شىء عن السموم مما جعلها فيما بعد تقتل معظم الضحايا فى رواياتها بمختلف أنواع السموم.

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى كانت أجاثا كريستى قد قرأت مئات الروايات البوليسية، مما أوحى لها مع شقيقتها الكبرى التى أبلغتها أنها تستطيع أن تعرف شخصية القاتل فى أية رواية بوليسية عندما تصل فى قراءتها إلى منتصفها، فتحدثها أجاثا بأنها تستطيع أن تكتب رواية بوليسية لا يعرف أحد القاتل فيها إلا عندما تريد هى، لكن شقيقتها لم تصدقها. وهكذا ولدت أولى روايات أجاثا كريستى «لغز جريمة ستايلس». وبعد انتهاء الرواية أرسلتها إلى ناشر فأعادها مرفوضة، وتكرر عرض الرواية على ناشر بعد آخر حتى وافقت دار نشر «بودلى هيد» على نشر الرواية، وكان ذلك فى عام ١٩٢٠ ليبزغ اسم كاتبة تنافس أسماء مؤلفى الروايات البوليسية الذين كانوا معروفين فى ذلك الوقت مثل «آرثر كونان دويل». وحازت الرواية من النجاح بحيث أن من يقرأها لا يتصور إطلاقاً أنها الرواية الأولى لأى كاتب أو كاتبة.

وبعد نجاح «لغز جريمة قصر ستايلس» كتبت أجاثا كريستى رواية «الغريم الخفى» من وحى ذكرياتها أيام الحرب، ونشرتها عام ١٩٢٢. وبعد ذلك توالت رواياتها: «جريمة فى ملعب الجولف» عام ١٩٢٣، «بوارو يبحث عن القضايا» عام

١٩٢٤، «ذو الرداء البنى» عام ١٩٢٥، «سر قلعة تشمينى» عام ١٩٢٦. واستمرت أجاثا كريستى تكتب بمعدل رواية كل عام أوثلاث روايات كل عامين.

وأصبح السفر هو أحب هواية إلى أجاثا كريستى بعد الكتابة. السفر إلى بلاد الشرق بوجه عام ومصر بوجه خاص، بحيث لم يكن يمر عام دون أن تزور مصر حتى عرفت كل شىء عنها وأحبتها. وفى عام ١٩٣٠ قامت برحلتها المعتادة إلى بلاد الشرق حتى وصلت إلى العراق وأقامت فى بغداد، وهناك قابلت ماكس مالوان عالم الآثار الذى كان يعمل ضمن بعثة أثرية، فنشأت علاقة حب بينهما انتهت بالزواج، لكنها مع ذلك استمرت تنشر رواياتها باسم أجاثا كريستى نسبة إلى اسم زوجها السابق الذى اشتهرت به بين قرائها.

وفى عام ١٩٥٠ احتفلت أجاثا كريستى بظهور روايتها الخمسين، واحتفل العالم معها بهذه المناسبة وأرسل لها رئيس وزراء انجلترا فى ذلك الوقت قائلاً: «أجد نفسى دائماً مسحوراً مبهوراً بروايات أجاثا كريستى التى تدل على ذكاد خارق ومقدرة مذهلة على الاحتفاظ بسر اللغز حتى نهاية كل رواية، كما أن لها قدرة عظيمة على كتابة لغة جميلة سليمة بسيطة واضحة». وتوَّجها النقاد فى جميع أنحاء العالم ملكة للجريمة، وأصبحت شهرتها بأنها: المرأة التى ربحت الملايين من جرائم القتل. وبذلك تربعت أجاثا كريستى على عرش الرواية البوليسية ذات المستوى الإنسانى الرفيع. وقد واصلت الكتابة حتى تجاوز عدد رواياتها المائة، أما أقاصيصها القصيرة فتقدر بالمئات.. وقد تُوفيت أجاثا كريستى عام ١٩٧٦ عن عمر يناهز ٨٥ عاماً.

ومضمون روايات أجاثا كريستى أن الشر ـ وليس الجريمة فقط ـ لا يفيد، وأن الشرير رغم دهائه ليس إنساناً ذكياً وإلا لاختار الخير، لأن أرباح الخير فى رواياتها أعظم ألف مرة من أرباح الشر، بل إن الشر يخسر دائماً، ودلالة خسارته هى كشفه فى نهاية رواياتها.

كوبرنيكوس

١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م
واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس

يبدو أن معرفة الإنسان ببعض حالات السماء وتطلعه إليها نشأت منذ القدم وتدرجت هذه المعرفة من وساوس وأوهام إلى عمليات رصد فعلية وساعد قيام حكومات قوية فى الصين ومصر وبابل على تطور هذا العلم فى تلك البلاد، ونهضت شعوبها القديمة بالفلك وأمكن توفير سلسلة طويلة من الأرصاد بنيت عليها فى النهاية أسس ذلك العلم وشيدت دعائمه... إلا أنه فى الواقع لم يحدث تقدم نظرى سليم فى هذا الصدد حتى عهد الإغريق الذين بدءوا باجراء التجارب وإعمال الفكر والمنطق لتحقيق ما ظهر من نظريات...

ولقد نهضت دراسات الفلك فى الأندلس بعد أن نقلها إليها العرب وظهرت آثار هذه النهضة فى قرطبة وطليطلة وتستمد الجداول الطليطية التى صنفها «أرزاشيل» عام ١٠٨٠اسمها من هذه المدينة.

وظهرت فى القرن الخامس عشر محاولات ناجحة فى ألمانيا لجمع شتات مذهب «بطليموس» وأدخل «جورج برباخ» إلى أوربا وسيلة تعيين الزمن بالمزاول التى كان يستخدمها ابن يونس، كما قام بإلقاء المحاضرات فى فينا ابتداء من عام ١٤٥٠ ومات عن ثمان وثلاثين سنة وهو فى طريقه إلى روما لفحص نسخة من «المجسطى» وقد أثمرت تعاليمه وظهرت نتائجها فى أعمال «رجيومونتانس» و«برنهارد فالترر» فى نورمبرج الذى شيد مرصدا جعل فيه ساعات تدور بوساطة أثقال معلقة كما توصل إلى تحسينات كثيرة فى عمليات الرصد.

وظهرت نهضة علمية فى إيطاليا فى تلك الآونة وتبين أن قطعية نظريات «بطليموس» لا تقل فى عدم صلاحيتها عما جاء به «أرسطو» وتقدم بعض المفكرين الأحرار أمثال «دومينيكو ماريانوفارا» بانتقاد مذهب بطليموس وتطلعت الأبصار إلى أعمال «نيقولا كوبرنيق» مدة تلمذته فى بولونيا من عام ١٤٩٦ إلى عام ١٥٠٥. وأذاع «كوبرنيق» نظريته الخاصة باعتبار الشمس مركزا للمجموعة الشمسية فى سلسلة من النشرات ما بين عام ١٥٠٦ وعام ١٥١٢. وفى عام ١٥٤٣ أكمل نظريته وبراهينها فى رسالة قيمة هى خير دليل على الجهود التى بذلت فى سبيل بناء علم الفلك على أساس جديد وقامت دعائمها على مبدأ علمى سليم هو مبدأ الحركة النسبية وقد أوضحت نظريته هذه أن مجموعات النجوم الثابتة فى الكوكبات والأبراج لا تدور من حولنا طوال اليوم ولكن الذى يدور هو الأرض وبالطريقة نفسها نعلم أن الشمس لا تدور حولنا، بل الأرض هى التى تدور حول الشمس وكذلك تدور سائر الكواكب حول الشمس.وبهذه النظرية أمكن تفسير عدة ظواهر فلكية كانت تقف حجر عثرة فى سبيل المفسرين من علماء الفلك ومن أمثلة ذلك ظاهرة تراجع الكواكب الظاهرى، التى فسرت فى ظل محصلة حركة الأرض وحركة أى كوكب آخر.



ولد نيقولا كوبرنيق عام ١٤٧٣م فى بلدة «ثورن» ببولاندا وكان أصغر ولدين وبنتين لتاجر ناجح من أسرة كبيرة بالمدينة وكانت ثورن مركزا تجاريا ذا رخاء يتوسط بين طريق الشرق حيث السلع والخامات الآسيوية وطريق الغرب حيث السلع الأوروبية الناهضة. لم يكن والده تاجرا فحسب وإنما كان قاضيا وأحد أعيان المدينة ومات الوالد وهو فى العاشرة فتقرر أن يعول الأطفال خالهم القس لوكاس واكزنرود الذى أصبح مطرانا بعد ذلك. وقرر الخال أن يتلقى ابن أخته العلوم الكنسية.

فدخل نيقولا جامعة كاراكاو عام ١٤٩١م وكانت عاصمة لبولاندا فى ذلك الزمان ولها شهرة كبيرة فى أوروبا بثرائها وثقافتها وصناعة التعدين وجذبت جامعة كاراكاو طلابا من بلاد شتى مثل ألمانيا وهنغاريا وسويسرا والسويد. أما لغة

التعليم فيها فكانت اللاتينية وجميع الكتب الدراسية مكتوبة بهذه اللغة لذلك كان لزاما على جميع الطلاب اتقان هذه اللغة.

تعلم كوبرنيق بهذه الجامعة الفلسفة والفلك والهندسة والجغرافيا على يد الأستاذ ألبرت برودزوسكى الذى كان قد صنف تفسيرا لكتاب برباخ فى فلكيات بطليموس وعلى يديه أيضا تلقى الرياضيات والدراسات الإنسانية التى تخصص فيها أستاذه هذا. وكانت لدراسة الفلك أهمية كبرى فى ذلك الوقت إذ أخذت التجارة عبر المحيطات تنمو بسرعة وبدأ حجم المراكب يتزايد ومشاكل البحار تتراكم. وعندما كان كوبرنيق فى التاسعة من عمره كان كولومبس الذى درس العلوم الفلكية قد عبر المحيط مكتشفا أمريكا ومعه الإسطرلاب العربى يستعين به فى الأرصاد والجداول الفلكية العربية رائدة له عند السير فى اليم.

ترك نيقولا كاراكاو عام ١٤٩٤م قبل أن يتم علومه وقبل أن يحصل على أية شهادة منها وطابت نفسه إلى استكمال دراسته فى إيطاليا بعد أن ألحقه خاله بوظيفة يتلقى راتبها دون عمل ومكث فى إيطاليا حتى عام ١٥٠٦م متنقلا بين جامعاتها يقطف من العلوم ما شاء. وأول جامعة التحق بها كانت جامعة بولونا حيث تابع دراسة القوانين الدينية لكى تؤهله للوظائف الادارية الكنسية غير انه كان كلفا بالرياضيات والفلك.

ورغم أن نيقولا قد تم تعيينه قسيسا لكاتدرائية فراونبرج عام ١٤٩٧ بفضل نفوذ خاله فإنه سرعان ما حصل على منحة تفرغ ليستكمل فيها دراساته وزار روما عام ١٥٠٠م فى اليوبيل السنوى محاضرا فى العلوم الرياضية. وفى العام التالى عاد إلى ارملاند ببولاندا ساعيا إلى امتداد تفرغه حتى ينهض بدراسة الطب فى جامعة بادوا وكانت دراسة الطب فى تلك الأيام متشابكة مع علم أحكام النجوم فأعضاء الجسم الإنسانى تعتزى بعرى غامضة إلى دائرة البروج وأمزجة الانسان كانت تتركب من أربعة «اخلاط»، فذاك بلغمى أو صفراوى أو دموى أو سوداوى تبعا لزيادة أحد العناصر. وكانت الموضوعات التى نسميها الآن الفلك والفيزيقيا والطب والكيمياء وهلم جرا فى الحقيقة علما واحدا مترابطا.

لذلك نرى كوبرنيق يغشى جامعة بادوا موطن الطب والتشريح حينئذ. وفى عام

١٥٠٣م تقدم برسالة الدكتوراه فى القوانين الكنسية فى جامعة فرارا رغم أنه لم يترك دراسة الطب فى بادوا من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٥م لقد كان جم النشاط.

ثم عاد إلى بولندا فى العام التالى بعد أن استقى من علوم الأغارقة فى شتى المجالات فأصبح طبيبا ومحلفا فى المحاكم ولم يشتغل بواجبات الكنيسة إلا بعد مضى ست سنوات من مغادرته إيطاليا.

ورغم مشاغله المتعددة فى القيام بواجبات وظيفته فانه ظل يتابع الانتاج الذهنى. وأول مؤلف نشره كان عام ١٥٠٩ نشره باللاتينية وموضوعه ترجمة لمكاتبات وهمية لمشاهير الرجال كان قد صاغها مؤرخ بيزنطى فى القرن السابع اسمه ثيوفيلاكت سيموكاتا وكتب صديق له مقدمة لهذا الكتاب كتبها شعرا يمدح كوبرنيق كعالم فلكى له بحوث جديدة عن مسار القمر وحركاته المتغيرة وعن قبة السماء الزرقاء بما فيها من كواكب.

يحدثنا كوبرنيق أنه منذ عام ١٥٠٦م بعد عودته من إيطاليا بدأ يخطو فى تنمية نظامه الفلكى الذى تصوره للكون بناء على ذلك النظام الذى كان حلما يراوده أثناء دراساته الموضوعية فى جامعة إيطاليا ثم أخذ يستكملها فى أحد أبراج السور الدفاعى المحيط بكاتدرائية فراونبورج. هذا البرج لا يزال قائما ويعرف ببرج كوبرنيق أنه كان مرصده كما كان علم الفلك شرعته.

وما أن وافى عام ١٥١٤م حتى أصبح كوبرنيق شهيرا كعالم فلكى، فدعى إلى المجمع الكنسى لتقديم مشورته فى إصلاح التقويم فاعتذر متنحيا، نظرا لأن الأرصاد الفلكية الجديدة لحركات الشمس والقمر لم تتم جدولتها بدقة تفى بالغرض المطلوب فهى مازالت فجة تتغذى من النهج القديم.

لقد كان التقويم اليوليوسى يخطئ فى ثلاثة أيام كل أربعمائه عام والخطأ يتراكم على مر السنين مما دعا البابا جريجورى الثالث عشر بناء على مشورة الفلكى اليسوعى كلافيوس إلى إصلاح هذا العيب فيه فعدل التقويم ليقرب الفترة بين عيد الفصح والاعتدال الربيعى حيث إن تاريخ عيد الفصح كان يقترب شيئا فشيئا من الصيف فحذفت سنوات كبيسة معينة واستبعدت كل سنوات القرون إلا

إذا كان رقمها يقبل القسمة على ٤٠٠، وفى عام ١٥٨٢م بعد وفاة كوبرنيق بنصف قرن تقريبا اعتمد التغيير فى الدول الكاثوليكية وجعل اليوم التالى ليوم ٤ أكتوبر يوم ١٥ أكتوبر.

لقد أصبح الطريق ممهدا بعد ذلك أمام كوبرنيق ليخطو خطوة أكثر جرأة، فتقدم عام ١٥٣٠ بكتاب آخر هو «تفسيرات» كدراسة أولية لنظريته الجديدة التى تنادى بمركزية الشمس للكون وليست الأرض فسرعان ما جذبت انتباه المفكرين.

وفى ربيع عان ١٥٣٩م قدم جورج جوشيم ريتكوس، عالم ألمانى فى الخامسة والعشرين من عمره لزيارة كوبرنيق وكان ريتكوس العبقرى بابتكاراته فى العلوم الرياضية بالنسبة لعصره قد عين أستاذا لهذه المادة فى جامعة وثنبرج، ولما يتجاوز الثانية والعشرين، استقبله كوبرنيق وقد أصبح شيخا هرما وأمضى ريتكوس أكثر من سنتين معه لدراسة نظرياته الجديدة فآمن بها وحث كوبرنيق على نشرها مثلما فعل الكاردينال شونبرج حين رجاه فى نشرها على الملأ. وكان لريتكوس الفضل فى ارسال مخطوط البحث إلى ألمانيا ليطبع تحت اسم «حركات الكرات السماوية» ونلاحظ أنه ذكر الكرات السماوية لا الأجرام السماوية، لأنه كان ولم يزل متأثرا بالنمط الأغريقى. لقد ظل كوبرنيق قرابة ثلاثين عاما يعمل بغير انقطاع ساعيا إلى ابتكار نظام جديد للكون ومدونا أفكاره بالرصاص على قصاصات الورق وهوامش الكتب بل على جدران منزله حتى أكمل نظاما لم يفسر فحسب كل ما فسره نظام بطليموس القلوذى، وإنما فسر فى ذلك بدقة جميع حركات الكواكب والنجوم ومع أربع وثلاثين كرة فقط.

ان كتابه هذا يضارع إلى حد كبير كتاب «البرنسيبيا» لإسحق نيوتن باعتباره نتاجا للعبقرية الخلاقة. رأى كوبرنيق النسخة المطبوعة وهو فى غيبوبة المرض اذ سبق له أن أصيب فى نهاية عام ١٥٤٢م بالسكتة ثم الفالج وتوفى فى ٢٤ مايو عام ١٥٤٣م ودفن فى كاتدرائية فراونبرج.

كثيرا ما قيل إن كوبرنيق خشى من نشر متنه الكبير وهو على قيد الحياة خوفا من حركة الاضطهاد الدينى التى تيبست من أجلها الأفكار العلمية الجديدة. بيد أن الواقع لا يؤيد هذا الرأى فالحقيقة أنه نشر مسوداته موجزة فى كتابه

«التفسيرات»، قبل وفاته بسنوات كثيرة وسمح لتلميذه ريتكوس أن يطبع تقريراً أوليا عن النظام فى عام ١٥٤٠. قبل وفاته بثلاثة أعوام وفضلا عن ذلك كان بحثه معروفا عند البابا والآخرين من علية القوم فى المجالس الكنسية بل كان يدعو إلى إعجاب شديد.

وواقع الأمر أن الذى أخر كوبرنيق فى النشر هو خوفه من سخرية الجماهير عامة ففى ذلك الوقت كانت العقول جميعا قد استراحت إلى نظام بطليموس فى الفلك وفيزيقا أرسطو التى تنادى بأن الأرض مركز العالم فاذا قذفت حجرا فى الهواء عاد ثانية إلى الأرض، بل إذا قذفت حجرا من فوق أحد الكواكب الأخرى كالمريخ مثلا فإنه قطعا يسقط على الأرض فهى المركز والشمس والقمر والكواكب المتحيرة بل النجوم الثوابت كل فى فلك حول الأرض يسبحون وقد خلقها الله جميعا لمنفعتنا وأن لها أهمية خاصة عند الخالق.

إن أى تغيير جذرى لتلك العقيدة باستبدال الشمس بالأرض باعتبارها مركزا للكون سوف يصبح لامحالة موضوعا يتندر به الحمقى. وكان كوبرنيق شديد الحساسية والتحرج من مخاطرة كهذه. لذلك نراه يبوح بأفكاره لأولئك الذين استطاعوا تقديرا لها واستيعابا لإدراكها.



كوبيه، فرانسوا

١٨٤٢ ـ ١٩٠٨ م

صاحب المنزلة الرفيعة بين الشعراء الفرنسيين

كان الشاعر القصصى الفرنسى فرانسوا كوبيه باريسيا صميما جعل من المدينة العظيمة المصدر الدائم لفنه وأدبه، يجوب أرجاءها المختلفة ويدور بناظريه فى احيائها يدرس بعين الفنان البارع مظاهر السعادة والشقاء، الغنى والفاقة.. ويستمتع بطبيعة باريس الساحرة ومناظرها الجميلة.. ثم يعود إلى منزله المتواضع وقد امتلأ قلبه الحساس بشتى العواطف المتضاربة فيسكبها فى شعره وقصصه بأسلوب يسيل رقة وحنانا.. فكوبيه من هذه الناحية يمتاز عن كثير من الكُتاب الفرنسيين الذين لم يفهموا باريس حق الفهم ولم يخصصوا أدبهم لوصف الحياة فيها من نعيم وشقاء كما فعل كوبيه. ولعل السبب فى ذلك هو أن معظم الكُتاب الفرنسيين ليسوا باريسيين صميمين ككوبيه الذى ولد ونشأ ومات فيها..

على أن هناك ناحية أخرى يمتاز بها كوبيه عن غيره من الشعراء والكُتاب الفرنسيين وهو ما دعا النقاد لأن يلقبوه «شاعر المساكين» لأن كل كتاباته تفيض بالرحمة والرثاء للفقراء والبائسين.

ولد كوبيه عام ١٨٤٢ وكان منذ صغره معتل الصحة ذاوى اللون.. وكان أبوه موظفا بسيطاً فى وزارة الحربية وكان مرتبه الضئيل لا يسمح لأسرة كوبيه الا بحياة مقترة بائسة.. ولما شب فرانسوا أرسله والده إلى المدرسة فكان يذهب اليها فى الصباح ولا يعود منها إلا عند المساء فيستذكر دروسه إلى جانب والديه وشقيقاته الثلاث.. وعندما بلغ الرابعة عشرة انتقلت الأسرة من منزلها وانتقل

كوبيه إلى مدرسة سان لوى المجاورة للمنزل.. ولم يكن كوبيه موفقا فى حياته المدرسية.. وكان دائم التفكير محبا للعزلة وكانت حديقة لوكسمبرج القريبة من منزله تفتن نفسه الشاعرة الحالمة وتلهيه بجمال مناظرها ومياهها الجارية عن متابعة دروسه..

وجاءت الظروف القاسية تترى فساعدت على هجره المدرسة لأن والده الذى كان قد أحيل إلى المعاش منذ عامين أصابه شلل ألزمه الفراش مدة طويلة واصبحت حالة الاسرة المالية من الضيق بما لا يسمح ببقاء كوبيه فى المدرسة.. فأخرج منها واشتغل عند أحد المهندسين المعماريين.. وكان يشتغل فى الوقت نفسه نساخا للمقاولين كى يزيد مقدار المال الذى يعين به أسرته... وكان ينتهز ساعات فراغه ويقضيها فى القراءة المتواصلة حتى أصيبت عيناه بمرض من جراء ذلك، ولم ينقض وقت طويل حتى عين كوبيه موظفا فى وزارة الحربية التى كان والده موظفا فيها وظل يكد فى سبيل أجر ضئيل تافه... وعندما بلغ كوبيه العشرين مات والده فزادت أعباؤه وشعر بالمسئولية تثقل كتفيه فكان يتعزى بالقراءة المستمرة وكتابة الشعر والقصص القصيرة والمسرحية وابتدأ بنشر بعض قصصه القصيرة فى إحدى المجلات الصغرى.. ولكنها لم تكن لها من الناحية الأدبية قيمة تذكر.. وفى ذلك الوقت كانت قد ظهرت فى فرنسا جماعة البرناسيين فانضم كوبيه اليها وأصبح دائم الاجتماع بأعضائها وكانت الجماعة تجتمع يوميا عند الناشر الفونس لومتر وكانت هذه الصداقة بين الناشر وجماعة البرناسيين مما ساعد على نشر مؤلفاتهم عنده فنشر كوبيه عام ١٨٦٦ مجموعته الشعرية الأولى «صندوق المخلفات» وبعد عام نشر مجموعته الثانية «صداقات».

وحتى ذلك الوقت لم تتعد شهرة كوبيه دائرة محدودة حتى كان يناير عام ١٨٦٩ إذ أخرجت الممثلة سار برنار قصة «المار» على مسرح الأديون وهى مهزلة شعرية فأحرزت نجاحاً كبيراً وارتفع كوبيه مرة واحدة إلى مصاف الكتاب النابغين وأصبح اسمه موضوع أحاديث الأندية الأدبية فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية واعجب به نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وعرض عليه مرتبا شهريا ولكن كوبيه رفضه مع حاجته القصوى. على أن حالة كوبيه المالية تحسنت قليلا بعد

ذلك عندما وظف فى مكتبة مجلس الشيوخ.

وفى عام ١٨٧٢ كتب كوبيه قصة «حب فى أثناء الحصار» وهى أول ما كتب نثرا وكتب أيضا مجموعة قصصه القصيره الأولى.. ثم ظهرت فى ذلك العام قصة «المساكين» التى بلغ فيها ذروة مجده الأدبى من الناحية الإنسانية ثم كتب بمعاونة ارمان دارتوا قصة «حرب المائة عام» وهى مسرحية شعرية أظهر فيها نواحىَ من البطولة الفرنسية.

وكان اسم كوبيه فى ذلك الوقت يدوى فى كل مكان ففى عام ١٨٧٩ منح وسام اللجيون دونور..

وفى عام ١٨٨٣ كتب كوبيه قصة «سيفيرو توريللى» فنجحت نجاحا كبيراً وفى العام التالى انتخب عضوا فى الأكاديمى فرانسيز وفى عام ١٨٨٥ استقال كوبيه من عمله فى مكتبة مجلس الشيوخ فى أثر خلاف قام بينه وبين رؤسائه الذين رأوا فى بعض أعماله الأدبية من الآراء مالا يتفق مع عمله الحكومى فسافر إلى أملاك صديقه وناشر كتبه الفونس لومتر حيث تمتع بالراحة والهدوء وكتب هناك قصة «اليعقوبيون» التى مثلت على مسرح الأديون فى شهر نوفمبر من العام نفسه..

وواصل كوبيه إنتاجه الأدبى دون انقطاع فكتب عددا كبيرا من القصص القصيرة شعرا ونثرا.. وفى عام ١٨٩٥ كتب كوبيه قصته المسرحية «فى سبيل التاج» وفى عام ١٨٩٦ كتب قصة «الجانى» وهى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها.

وكان كوبيه قبل كتابته هذه القصة يعانى ألم المرض المبرح ولم ينجه منه إلا عملية جراحية وجعل كوبيه من آلامه فى أثناء مرضه موضوعا لإحدى قصصه كعادته فى تصوير فواجع حياته فى أدبه... فكتب قصة «العذاب العذب».

وقضى كوبيه أعوامه الأخيرة يعانى آلام المرض معتزلا فى منزله البسيط مهد ذكريات حياته الأولى.. وقد أبى أن يفارقه برغم إلحاح أصدقائه إلى أن مات فيه عام ١٩٠٨.

كان كوبيه شاعرا أكثر منه ناثرا.. بل إن عبقريته الشعرية كما يقول بول بورجيه.. كانت على حساب نبوغه كناثر.. على أن كوبيه كان واقعيا حتى فى شعره «ولذلك كان شعره مع الموسيقى العالية التى تغمره يقرب كثيرا من النثر».. لأن

كوبيه لم يكن يريد الخروج عن دائرة الحقيقة فكان يصور الأشخاص على ما كانوا عليه بلا تنميق ولا تزويق.. وكيف يستطيع ذلك وهو فى الواقع لم يكن يكتب إلا صدى شعوره الشخصى.. ولم يكن الأشخاص الذين يصورهم فى شعره أو نثره إلا شخصيات اتصل بها عن قرب أو عن بعد.. ففهمها حق الفهم وعرف ما يخالجها من مختلف العواطف والنزعات المتضاربة.

ومجد كوبيه لا يقوم على شعره العاطفى، شعر الحب وحسب بل إن نبوغه ككاتب قصصى ومسرحى قد مهد له السبيل لخوض غمار الشعر الحماسى والدعوة إلى مثل عليا فى الحياة.. وهو فى هذا الضرب من الشعر تراه أقرب الشعراء إلى فيكتور هوجو وفيكونت دوليل ونحن لا نلبث أن نشعر بوطنيته الملتهبة ودعوته إلى أسمى الفضائل كلما قرأنا له «القبران» التى يزعم فيها أن المجد الحقيقى لا يأتى إلا عن طريق الفضيلة والشرف أو «فى سبيل التاج» التى يمجد فيها سيادة الأمة أو «إضراب الحدادين» التى يعيب فيها العنف وينقد نتائجه السيئة.

لقد كان كوبيه بشعره فاتحا جديدا فى الأدب الفرنسى... فالموضوعات التى طرقها والشخصيات التى رسمها.. تلك الموضوعات والشخصيات التى ولدتها إنسانية حزينة.. لم تكن معروفة عند الشعراء الفرنسيين الذين سبقوه.

لقد كان فرانسوا كوبيه فاتح الطريق لأدب جديد.. أدب الرحمة الواسعة والعطف الصادق على كل متألم بائس فى الحياة.



لافونتين

١٦٢١ ـ ١٦٩٥م
الشاعر الفريد الذى صارت حياته كالأسطورة

بالأمس قال معاصرو لافونتين عنه ـ ضمن ما قالوا ـ أنه «ساذج».. واليوم ـ وقد انقضى على وفاته أكثر من ثلاثة قرون ـ يجىء أساتذة النقد فيقطعون بأن طبيعته ما تزال لغزا لم يحل بعد: يقول رينيه بريه: إن الغموض لا يزال يكتنف حياة لافونتين وتاريخ إنتاجه، ويقول أنطون آدم: انه لمن الصعب أن يسبر غور هذا الرجل... وفى الماضى كان الناس يعتقدون أن حكايات لافونتين موجهة إلى الأطفال ولكن سانت بيف يقول فى القرن التاسع عشر: «إن لافونتين الذى يقدم إلى الأطفال لا يمكن أبدا للقارئ أن يتذوقه جيدا إلا بعد سن الأربعين»... من هو إذن هذا الرجل الذى صارت حياته كالأسطورة، هذا الشاعر الفريد الذى لا يشبه شاعرا آخر على الإطلاق؟ ما كنه فنه الذى أخفق فى تقليده عشرات من الكتاب فى حياته وبعد مماته؟!

ولد «جان دى لافونتين» عام ١٩٢١ فى إقليم شمبانيا بفرنسا من أب كانت له حراسة الغابات فى إقليمه، وهو منصب لا بأس به وورثه الابن عن أبيه وشاءت الأيام لأديبنا ألا يتلقى من العلم إلا مبادئ لا تغنى ولا تفيد لكن سرعان ما اجتذبه الأدب إلى حظيرته فأخذ يطالع الروائع الأدبية فى مكتبة جده الغنية بالنفائس فدرس آثار الكثير من أعلام الأدب فى القرن السادس عشر. والعجيب أن لافونتين الذى خلقه الله كاتبا لم يفكر فى حمل قلمه إلا بعد زمن طويل أنفقه فى القراءة فكانت أول آثاره ترجمة عن «ترنس» المسرحى المعروف فى أدب الرومان الأقدمين

ثم انتقل لافونتين من الريف إلى باريس حيث لم يلبث أن سطع نجمه وذاع اسمه فى عالم الأدب وقد عاش فى باريس عيش المستهتر الذى لا يأبه لشىء ينشد متعة نفسه، وسرعان ما وجد من رعاة الأدب الأغنياء من يجعله فى كنفه ويغدق عليه المال فاكتفى بذلك وأخذ يتنقل بين مشاهد الحياة كأنها هو الطفل سذاجة وصراحة واستخفاف بأعباء العيش ولكنه فى حقيقة الأمر إنما كان ينظر إلى الأشياء بذلك البصر النافذ الذى يكشف عن كوامن النفوس، وقد تملكه إحساس قوى يعبث بالأشياء ويشعر بتفاهتها.

كان لافونتين أثناء إقامته فى باريس يخالط أئمة الأدب فى عصره: بوالو وموليير وراسين فكان الأربعة يجتمعون على فترات منتظمة فى حانة أو فى منزل لكنه إلى جانب ذلك كان يعاشر صحبة السوء حتى تلوث اسمه فكان ذلك سببا فى أن يشير على الملك مشيروه ألا يأذن بقبوله عضوا فى المجمع الفرنسى فلما مات أحد الأعضاء رشح لملء مكانه اثنان هما لافونتين وبوالو وهما صديقان حميمان، وكان القصر يؤيد بوالوا والمجمع يفضل لافونتين فاختاره المجمع لولا أن خلا مكان جديد فانتخب له بوالو وحل بذلك الإشكال ومع ذلك، فقد أشار الملك عند اعلان الموافقة على لافونتين إشارة لها مغزاها: «لكم أن تضموا لافونتين فقد وعد أن يكون حكيما» ولما اقترب لافونتين من ختام حياته تاب وندم على مجونه ومات سنة ١٦٩٥. ورعا تقيا!!.

ويروى لافونتين أنه لم يكن يفطن إلى أنه رزق موهبة الشعر إلا ذات يوم حين قرأ عليه أحد الضباط فى قصيدة لماليرب عن إحدى محاولات اغتيال الملك هنرى الرابع هنا شعر برغبة ملحة فى قرض الشعر وبدأ يكتب منه قطعا كانت رديئة كلها... على أن الشىء المسلم به هو أن نبوغه لم يظهر إلا فى سن الأربعين.. كيف؟ فى عام ١٦٦١ غضب لويس الرابع عشر على فوكيه فأمر بسجنه واذا بصداقة لافونتين وعرفانه يطلقان لسانه بأول أشعار تلوح فيها ملامح العبقرية: كتب قصيدة طويلة عنوانها L'Elegie auxnymphes du vaux هى التماس بالغ التأثير موجه إلى الملك المستبد... فالحق أن لافونتين كان مشبعا بروح تلك الصداقة النادرة التى لم تكتب من وحيها صفحات كثيرة والتى لم يعبر عنها فى الأدب الفرنسى بعمق يستأثر بالنفوس سوى مونتنى وجزع لافونتين لما لحق

صديقه من عنت الملك الطاغية ومرض ثم رحل إلى ليموزان وفى رحلته كان يكتب ما يشبه المذكرات ويوجهه شعرا ونثرا إلى زوجته، مذكرات تنطق بالألم والحسرة من أجل صديقه المنكوب..

وشخصية لافونتين تسترعى الانتباه حقا وهى بدورها تكون مادة خصبة لدراسة سيكولوجية شائقة، لندعه أولا يتكلم:

إنى أحب اللعب والحب والكتب والموسيقى.

والمدينة والقرية وبكلمة واحدة كل شىء.

ولا شىء قط يعجز عن إمتاعى أيما إمتاع.

وكيفما كان سعيه وراء اللذات فمن المؤكد أن حقيقة الأمر قد تأثرت بفعل الأساطير التى نسجت حول سمعة هذا الرجل «الطيب» وهناك شىء آخر لا تعرف الحقيقة عنه بدقة قاطعة كتب فولتير إلى فوفتارج: «ان طبيعة هذا الرجل الساذج من البساطة بحيث كان حديثه لا يعلو على الحيوانات التى كان يمنحها الكلام. إن النحلة رائعة. ولكن حين تكون فى خليتها فإن غادرتها لم تصبح أكثر من ذبابة».. بينما يرى «سانت بيف» أن صاحب الحكايات كان محدثا لطيفا فى الأوقات التى لم يكن فيها مغرقا فى التفكير والشرود ويقول لويس راسين إن من الموضوعات التى كانت «توقظ» لافونتين وتثير تحمسه أفلاطون... ولم يكن لافونتين يعرف أين توجد عبقريته، فلم يستقر فى نوع من الأنواع الأدبية وانما كان دائم التجول بينها جميعا وإن كان - مع ذلك - كثير التردد على «الحكايات» أو «الخرافات» التى تكدست وملأت اثنى عشر كتابا نشرها فى ثلاثة دواوين.

وشهادة لافونتين عن نفسه خير ما يقال عن عدم استقراره هذا ومحاولته الإبداع فى شتى أنواع الأدب لندعه يعترف:

إنى فراشة الشعر أشبه النحل.

وإنى لشىء خفيف أطير إلى كل موضوع.

كتب - إرضاء لدوقة بويون واستجابة لرغبتها - مجموعة كبيرة من الأقاصيص بالشعر وهو إنتاج منحرف ينم عن مزاجه العابث وعن أبيقوريته ويزخر بالتفاصيل التى قد تهدر كرامة القارئ أو تخدش حياءه.. شىء عجيب: لقد أصابت هذه

الأقاصيص نجاحا كثيرا.. وكتب عددا من الكوميديات أهمها «الأغا» التى قلد فيها الشاعر اللاتينى تيرنس وألف مأساة لم يتمها هى صوت أخيليوس وكتب رواية مطولة بعض فقراتها بالشعر أطلق عليها «مغامرات بسيشيه» بسيشه ـ فى الأساطير اليونانية ـ ولعل من أهم وأصدق إنتاجه الثانوى تلك القصيدة الطويلة التى قالها دفاعا عن فوكيه محاولا فيها انتزاع عفو لويس الرابع عشر عن صديقه هذه القصيدة Elegie aux nymphes de vaux تضاف إلى كل هذا رسائله الشعرية... الشىء الذى ينبغى ذكره هو أن الإنتاج الوحيد الذى كان يتناسب مع عبقرية لافونتين هو «حكاياته» التى صاغها على ألسنة الحيوانات.

وأما «الحكايات الخرافية» فهى آيته الخالدة التى اتصفت بكل ما اتصفت به القصص من مزايا ثم سلمت بعد ذلك نقائصها ففيها ما فى «القصص» من براعة الرواية وحسن الفطنة والسخرية والخيال والرشاقة والتنوع ومرونة النظم ولا تشوبها شائبة من افراط ومجون، فقد أثبت لافونتين أنه أمير «الحكاية الخرافية» فى آداب العالم أجمع غير منازع فما زال الناس ولا يزالون يطالعونها فى شوق ورغبة.

والحكاية الخرافية فى رأى لافونتين قوامها عنصران: الجسد والروح فأما الجسد فهو القصة ذاتها وأما الروح فما تدل عليه القصة من مغزى.

ولئن عد أدب لافونتين اتباعيا بسبب إعجابه بالقدماء وعنايته الشديدة بالتجويد والصناعة فهو فى حقيقة الأمر لا يجرى مع الاتباعيين إلى نهاية الشوط لهذا الذى تراه فى أدبه من حرية الابتكار والتنوع فهو مثال فريد فى أدب القرن السابع عشر.وبعد، فكتاب «القصص» وكتاب «الحكايات الخرافية» يتمم أحدهما الآخر بحيث يكونان معا «لافونتين» فلا يستطيع أن تحكم عليه بهذا الكتاب دون ذاك وأهم ما يمتاز به الكاتب: أولا أسلوبه من حيث المرونة والتنوع وثانيا ـ سلاسة القصة فى رواية منظومة فليس يعوق النظم عنده مجرى الحوادث فى سهولة وتدفق وثالثا ـ براعته فى الرمز والإيماء. ولهذه الحسنات فى أدبه يكاد يستحيل على قارئ أن يقرأه ولا يفتن به والعجيب أن «لافونتين» فى غير قلمه غر ساذج، أما إذا حمل القلم ليكتب كان اللوذعى الحاذق المتعمق البصير بطبائع البشر.

مارتين، دى لا

١٧٩٠ ـ ١٨٦٩

أكبر شعراء المدرسة الرومانتيكية الفرنسية

ذهب «شاتوبريان» وخلّف وراءه أثراً عميقاً؛ فهذا أدب القرن الثامن عشر الذى كان قد بلغ ختامه، يبدو إلى جانب أدبه المتدفق النابض بحرارة الحياة وقوة الخيال، نحيلا هزيلا بارداً خلواً من المعنى؛ وقرأ الناس «شاتوبريان» فتبدى لهم عالم فيه الطبيعة باهرة بفتنتها، وعلى بساط هذه الطبيعة الباهرة يختال الفرد من الإنسان أشم الأنف عامر القلب بالإيمان.

وأراد الله أن يصنع «لامارتين» فى دولة الشعر ما صنعه «شاتوبريان» فى عالم النثر؛ فلدى «لامارتين» الشاعر تجد ما تراه عند «شاتوبريان» الناثر من حب للطبيعة ومن إيمان بالعقيدة الدينية ومن اعتداد بفردية الإنسان.

ولد «لامارتين» لأبوين عرفا بميلهما إلى الملكية فى ذلك العصر الذى ثار فيه الناس على الملوك؛ وقضى طفولته فى داره الريفية تحيط بها حقول هادئة، وتنتثر حولها تلال جميلة، وفى هذه البيئة الريفية الهادئة، وهذه الأسرة العريقة المحافظة، علمته أمه حب الإنجيل كما فتحت قلبه لبعض الآثار الأدبية مثل أدب «تاسو» من أدباء النهضة فى إيطاليا، ومثل «برناردان» من أدباء فرنسا المحدثين، ثم شبَّ فقرأ «شاتوبريان» و«روسو» من الأدب الفرنسى، و«ملتن» و«بَيْرُن» من الأدب الإنجليزى؛ وكانت فى طفولته وصباه تكتنفه روح اكتئاب لا تعرف المرح، فلما أن ارتحل فى ربوع إيطاليا زالت عنه تلك الكآبة، ولكنها سرعان ما أسلمته إلى حب عميق عنيف فيه كثير من الأسى، فحرك فى نفسه ذلك الحب وهذا الأسى مشاعر رقيقة دقيقة تدفقت فى شعر بلغ الغاية فى إخلاصه وبعده عن التصنع والتكلف، وبهذا الشعر

الذى انبثق منه كما ينبعث عن الشمس ضوؤها بات «لامارتين» شاعر عصره بين قومه، وترى فى «رفائيل» مثالا لحبه اليائس الحزين.

كان «لامارتين» من ضباط الحراسة للويس الثامن عشر، ثم استقال ليأخذ فى مناصب السلك السياسى، ثم ملحق للسفارة الفرنسية فى «نابلى» ثم يعمل فى المفوضية الفرنسية فى فلورنسة، ثم ترك مناصب السفارة وسافر فى بلاد الشرق الأدنى بعد أن أخرج «أناشيد سياسية ودينية»، وسجل ذكريات رحلته فى كتاب «رحلة إلى الشرق»، وهنا عاد ليغامر فى لجة الحياة السياسية؛ وختم حياته الشعرية ببعض آثاره الخالدة ومنها «جوسْلان» و«مَلَكٌ يهوى».

لم يكن «لامارتين» قويا فى أدبه الوصفى بحيث يقدم لك الصورة ناصعة جليلة، فالصور التى تخرجها ريشته باهتة بعض الشىء، غامضة المعالم بعض الشىء؛ لكنه إذا ما وصف شعوراً ألمَّ به فهيهات أن يلحق به لاحق؛ ولم تكن نغمات شعره مما يستوقف الآذان، ولكنها كانت تغزو القلوب.

ولم يكن شعر «لامارتين» فى أخريات أعوامه من القوة كما كان شعره وهو فى عنفوانه، فهو من هؤلاء الشعراء الذين يرتفعون إلى قمة المجد الفنى، ثم ينحدرون هبوطاً مع هرِم الشيخوخة وضعفها؛ أراد أن يبث فلسفته فى شعره فكان له هاتان الآيتان: «جوسلان» و«مَلَكٌ يهوى».

وكانت قصة «جوسلان» قصيدة كاملة قائمة بذاتها، لكنها مع ذلك أنشئت بادئ ذىء بدء لتكون فصلا من قصة أشمل، تكون الإنسانية بأسرها بطلها، كما أنشئت قصيدة «مَلَكٌ يهوى» لتكون فى تلك القصة الشاملة فصلا آخر؛ وهذه القصيدة الأخيرة تمثل أدب الشاعر حين كان فى طريقه إلى الضعف؛ ولقد قيل إن القصيدتين تصوران شعر «لامارتين» فى صعوده نحو الكمال، وفى هبوطه إلى الضعف.

وسنسوق مثالا لشعره من قصيدته «البحيرة»:

هكذا نساق كل يوم نحو شط جديد،
نساق إلى غير أَوْبَة فى ليل سرمدىٍّ؛
ياليت شعرى ـ والأيامُ نَسبَحُها كبحر مديد ـ
أنُلْقى المِرْساة يوماً واحداً فى بحرها اللجى؟

لوك، جون

١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م
الفيلسوف والسياسى الثائر

ولد جون لوك فى رنجتون بمقاطعة سومرست فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢، بانجلترا أثناء حكم الملك شارل الأول، وكان أبوه محاميا من جماعة البيوريتان (المتطهرين). اشترك فى صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية ولم يكن الابن الصغير جون لوك يتجاوز العاشرة من عمره ـ فكانت هذه البيئة المكافحة التى نشأ فيها لوك، من أكبر العوامل التى أدت إلى تفتح ذهنه على بعض الأفكار السياسية السائدة فى ذلك الوقت، وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسة فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لا فى انجلترا وحدها بل فى أوربا كذلك.

وقضى لوك فترة طفولته فى سومرست حتى بلغ الرابعة عشرة ـ ثم أرسل إلى مدرسة وستمنستر فى سنة ١٦٤٦ ـ واستمر بها حتى التحق بجامعة أكسفورد فى سنة ١٦٥٢.

ومما هو جدير بالذكر أن لوك لم يتأثر كثيرا بالمناهج التى كان يدرسها فى وستمنستر، كما أنه لم يحب ذلك النظام القاسى الذى كان يسود المدارس الانجليزية فى ذلك الوقت وراح ينتقده ويحاول أن يضع أسسا جديدة لتربية تقوم على شىء من الحرية والمرونة. وقد وصف لوك تلك الطريقة القديمة ومقترحاته لتربية أخرى جديدة فى كتابه (أفكار عن التربية) عام ١٦٩٣.

كما خاب ظنه كذلك حين التحق بجامعة أكسفورد لدراسة الفلسفة، إذ وجدها خليطا من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الأرسطية ـ ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة ـ ومع ذلك، فقد استمر فى دراسته للفلسفة المدرسية القديمة، التى لم تكن لتشبع العقل أو ترضيه، والتى جعلته يوقن أن الفلسفة يمكن

أن تكون شيئا أكثر من مجرد التحدث بألفاظ ضخمة براقة أو عبارات صعبة لا يمكن فهمها.

واستمر فى دراسته الفلسفية فى اكسفورد. مع قراءاته الخاصة مدة أربع سنوات، حصل بعدها على درجة البكالريوس عام ١٦٥٦، ثم على درجة الماجستير فى الفلسفة بعدها بعامين ١٦٥٨ ثم عين عام ١٦٦٠ محاضرا فى الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق فى مدرسة الكنيسة بأكسفورد، مع استمراره فى متابعة دراسته للمنطق الأرسطى وللميتافيزيقا، متزودا بدراسة التاريخ والفلك والطبيعة وبعض اللغات.

وفى تلك الأثناء اجتذبت العلوم الطبيعية انتباهه واهتمامه ويبدو ذلك الاهتمام من صداقته لأكبر علماء عصره مثل إسحق نيوتن وبويل.

كما بذل لوك مجهودا كبيرا فى دراسة الطب واستطاع أن يحصل على درجة علمية من أكسفورد عام ١٦٧٥، تؤهله لممارسة الطب عمليا وبدأ يمارسه فعلا من حين لآخر - إلا أنه لم يشتغل به مهنة أساسية ولا بطريقة منتظمة أو دائمة.

هذا عن حياة لوك الدراسية والعلمية، أما عن حياته العملية فكانت خصبة فيها كثير من النشاط والتغيير - حياة ديناميكية فعالة لم يكتف فيها بتعلم الفلسفة ولا بدراسة الطب ومزاولته من حين لآخر، بل كانت له فى الميادين السياسية والاقتصادية والتربوية جهود واضحة تبلورت فى شكل مؤلفات قيمة تشرح رأيه وتعتبر عن وجهة نظره الإصلاحية، فيما يتعلق بمشكلاتها.

ويرجع سبب اهتمام لوك بالسياسة والتنظيم الاجتماعى إلى ظروف حياته التى نشأ فيها.

الا أن التأثير المباشر الذى أثر فى لوك وجعله يشعر بالحاجة إلى تكوين أفكار واضحة واتجاهات محددة ومفهومات أساسية لتنظيم اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الحرية - كان يرجع إلى صحبته وعمله مع لورد أشلى - الذى عرف بعد ذلك باسم لورد شافتسبرى، والذى كانت له مساهمة كبيرة فى ميادين السياسة والأخلاق - وكان يعتبر من أكثر الأشخاص تأثيرا فى الحياة السياسية فى انجلترا، أثناء حكم شارل الثانى، وذلك كراهيته العميقة للاستبداد بكل أنواعه سياسيا كان

أم فكريا أم دينيا، وقد انتقلت كراهيته تلك بدورها إلى صديقه لوك الذى أصبح بمثابة المدافع عن الحريات فى المجتمع الانجليزى.

ثم سافر لوك إلى فرنسا عام ١٦٧٥ حين بدأت صحته تسوء وظل يتردد بين مونبلييه وباريس وبقية أجزاء فرنسا مدة أربع سنوات، قابل خلالها كثيرا من الأصدقاء والفلاسفة.

ثم رجع إلى انجلترا وظل يمارس نشاطه الفكرى والسياسى، بمصاحبة صديقه لورد شافتسبرى الذى قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة العظمى ففر هاربا إلى هولندا حيث مات هناك.

كانت هذه حياة لوك الفيلسوف السياسى الثائر، أما عن لوك الإنسان فكان شخصا مخلصا لمبادئه ومتمسكا بها مدافعا عنها عاملا على تنفيذها فى شىء من التصميم الواعى وفى شىء من الحزم والتعقل، متمسكا بقيم خلقية عالية ومفهومات إنسانية واسعة على درجة كبيرة من الذكاء الذى ساعده على تفهم مجتمعه وألوان الاستبداد والضغوط الموجودة فيه وعلى معرفة الاتجاهات التطورية الجديدة فى المجتمع، وبلورة هذه الاتجاهات فى مؤلفاته المتعددة وعلى وضع مقترحات سريعة فعالة؛ لمعالجة تلك الأوضاع ومحاولة تغييرها بشىء من السهولة والمرونة.

وإذا كان مؤرخو الفلسفة يعتبرون كتاب (مبحث فى العقل الإنسانى) للوك بمثابة أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الإنسانى وعملياته وطبيعته ـ فلنا الحق كذلك فى القول بأن أهمية لوك لم تكن مقصورة فقط على ميدان الفلسفة، بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية إلى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعى.

فحركة التحرير الكبرى التى سادت أوروبا فى القرن الثامن عشر ـ لم تكن سوى امتداد طبيعى لفلسفة لوك ـ تلك الفلسفة التى كانت تقوم على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية، سواء فى الدين أم الفكر أم السياسة وتنادى بتحرير الفرد الذى كان قد انطمست شخصيته، فى ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت فى نار من طغيان الملوك وتعصبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق.

فقد كان لوك نصيرا لسيادة الشعوب، ولما كانت هذه الشعوب مكفولة من أفراد، فإنه من الواجب أن يستمتع كل فرد منهم بكافة حقوقه وأهمها حق الحياة وحق الملكية الخاصة وحق الحرية. وهذه حقوق تقوم على الإنتاج كما يقول لوك وليست منحة من الحكام أو الملوك.

وكل فلسفة تنادى بالفرد تقتضى الحرية؛ لأن الحرية هى الشخصية والشخصية هى أساس الفردية.

هذه الصرخة المدوية التى أطلقها لوك فى انجلترا فى القرن السابع عشر تجاوبت أصداؤها فى أوربا كلها - وكان لها تأثير مباشر فى نجاح الحركات التحريرية التى قامت بها الملايين المكافحة والشعوب، التى كانت تسخر لخدمة الاستغلال والإقطاع الاجتماعى والاقتصادى والدينى.

فكان لها تأثير مباشر مثلا فى نجاح الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، وذلك نتيجة لتأثير آراء لوك فى فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل فولتير ومونتسيكيو وجان جاك روسو.

فقد تبنى فولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الدينى منه وينادى بالحرية.

بينما أخذ مونتسكيو عن لوك نظريته فى فصل السلطات وأخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعى.

إلا أن أهمية لوك وتأثيره السياسى لم يقتصر على فرنسا ولا أوربا فقط، بل تعدتها كذلك إلى أمريكا - إذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسى الذى ساد الولايات المتحدة إبان ثورتها - وهو الفيلسوف الذى أخذ عنه قادة الثورة الأمريكية أفكاره حين وضع وثيقة الاستقلال.

ماركس، كارل

١٨١٨ ـ ١٨٨٣م
المفكر ذو الأفكار الداعية للثورة

ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثرا مباشرا قوياً فى الجنس البشرى مثل كارل ماركس؛ فقد كان له على أتباعه، إبان حياته وبعد موته، نفوذ فكرى ومعنوى فريد فى قوته، لا يماثله نفوذ آخر حتى فى ذلك العهد الذهبى ـ عهد القومية والديمقراطية، الذى شهد ظهور أبطال وشهداء شعبيين عظماء وشخصيات رومانسية، بل هى تكاد تكون أسطورية، سيطرت حياتهم وكلماتهم على أخيلة الجماهير وخلقت تقليدا ثوريا جديدا فى أوربا. ومع ذلك لا يمكننا القول بأن ماركس كان شخصية شعبية فى أى وقت من الأوقات بالمعنى المألوف لهذه الكلمة، فما لا ريب فيه أن ماركس لم يكن بأى حال كاتبا أو خطيبا شعبيا. فقد كتب كثيرا ولكن أعماله لم تحظ بجمهور واسع من القراء إبان حياته، وحتى عندما حظيت مؤلفاته بذلك الانتشار الضخم الذى صادفه الكثير منها فى أواخر العقد الثامن من القرن قبل الماضى، لم تكن الرغبة التى حدت بالناس إلى قراءتها وليدة إدراكهم لقيمتها الذاتية بقدر ما كانت ناجمة عن نمو شهرة الحركة أو سوء شهرتها التى اقترنت باسمه.



ولد كارس ماركس فى الخامس من مايو سنة ١٨١٨ بمدينة تريبز بألمانيا عن أب محام يهودى سرعان ما انقلب إلى الديانة المسيحية، بل إن أجداده من الجانبين كانوا ولأجيال متعددة من الحاخامات. ولقد كان السبب فى تحول والده إلى المسيحية هو تهدد مركزه بسبب القوانين المعادية لليهود بعد سقوط نابليون وضم أراضى الراين.

وبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية التحق بجامعة برلين فدرس الحقوق بصفة عامة وتخصص فى دراسة الفلسفة، ودفعه استعداده الذهنى الرائع إلى الانكباب على دراسة التاريخ فى نفس الحين.

وفى سنة ١٨٤١ استطاع ماركس أن ينجز دراسته بتقديم مناقشة حول فلسفة أبيقور ولقد كان فى ذلك الحين تتسلط فلسفة الفيلسوف هيجل على القانون بصفة خاصة وعلى الفكر الألمانى بصفة عامة.

ولقد فشلت مساعيه فى أن يلتحق بالجامعة البروسية للتدريس بها؛ فقد كانت محرمة على أمثاله من أصحاب الفكر الحر. وفى سنة ١٨٤٢ انتقل ماركس إلى مدينة كولونيا وعمل بالصحافة المتطرفة، وازدادت كتاباته الثورية واتضحت، فعمدت الحكومة إلى فرض رقابتها عليها ثم سرعان ما قررت إغلاق جريدته.

أدرك ماركس من خلال نشاطه فى الصحافة أن معلوماته فى الاقتصاد السياسى غير كافية فاندفع ينهل من مصادره. وفى سنة ١٨٤٣ تزوج من كريز صديقة طفولته، وقد كانت تنحدر من عائلة نبيلة، وفى نفس العام انتقل إلى باريس ليصدر مجلة مع أرنولد روغه، وكانت تسمى «الحولية الألمانية الفرنسية» ولم يصدر منها سوى العدد الأول ثم اضطر إلى التوقف لصعوبة التوزيع السرى.

فى عام ١٨١٤ حضر فردريك انجلز إلى باريس لقضاء بضعة أيام - وكان إنجلز قد بعثه أبوه إلى إنجلترا للتدريب على الأعمال، وكان هيجليا يساريا استرعى نظره حال الوسط الصناعى فى إنجلترا الذى أوحى إليه بكتابه الذى ظهر سنة ١٨٤٦ عن «حالة الطبقة العاملة فى انجلترا»، وقد أصبح فردريك انجلز الصديق الحميم لماركس.. وفى يناير ١٨٤٥ طردته الحكومة الفرنسية فلجأ إلى بروكسل.

ولقد انتمى ماركس وانجلز إلى جمعية سرية تدعى «عصبة الشيوعيين»، وبعد ذلك عاد ماركس وإنجلز إلى مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى الذى انعقد فى لندن، وبناء على تكليف من المؤتمر قاما بوضع «بيان الحزب الشيوعى».

وعقب ذلك عاد ماركس مرة أخرى إلى ألمانيا ليصدر جريدة جديدة، وقد كتب فيها عن جميع الحركات العمالية والديمقراطية فى جميع بلدان العالم. ثم أحيل

ماركس إلى القضاء سنة ١٨٤٩ ثم نفى من ألمانيا، فانتقل ثانية إلى باريس، ثم طرد إلى لندن فعاش فيها حتى آخر عمره. ولقد كانت ظروفه العائلية فى لندن شديدة الفقر.. وفى مرحلة انتعاش النشاط فى الحركات الديمقراطية اندفع ماركس من جديد إلى النشاط العلمى سنة ١٨٦٢، حيث تأسست فى لندن أول جمعية مشهرة «جمعية السفلية العمالية» وكان ماركس روحها ورافع رسالتها، واستطاع بعد جهاد مرير أن يرسى دعائم نضال الطبقة العاملة فى مختلف البلدان.

لم يكن ماركس مجرد مفكر سياسى، ولكنه كان داعية الثورة والتغيير، بل وسعى لترجمتها إلى واقع. وأفكار ماركس قد ألهمت أيديولوجيات الملايين من البشر فى كافة أنحاء العالم نظرا لمنطقيتها، والطابع الإنسانى الغالب عليها، ومناداتها بتحرير الإنسان من الاستغلال والاضطهاد!!

وقد اعتقد ماركس كما اعتقد هيجل - أن التاريخ هو المفتاح إلى فهم الإنسان وصفاته، ذلك لأن هناك نموذجا متميزا وهدفا معقولا فى تطوير القدرات الانسانية. وثمة أنماط بعينها من النشاط، سواء أكانت عقلية أم عملية لم تكن لتظهر إلا بعد أن تمت الملكات الملائمة لها نموّاً كافيا، وهذه بدورها شجعت على ظهور ملكات ومناشط جديدة لم تكن متصورة فى مرحلة أشد تبكيرا.

تأثر ماركس بالظروف فى انجلترا - الدولة التى عاش فيها بعد نفيه من ألمانيا - حيث أدرك أن الأوضاع فيها فى ظل النظام الرأسمالى فى التصنيع تعتبر أكثر تدنيا مما ساد فى ألمانيا؛ مما جعله يعمم تحليله ليس فقط من واقع ألمانيا ولكن أيضا من الظروف السائدة فى وقته، وتعتبر أفكار ماركس متكاملة وتكون أساس ما يعرف «بالاشتراكية الثورية» التى درج على تسميتها «بالشيوعية» والتى تختلف عن غيرها من الاشتراكيات فى أنها اشتراكيا علمية كما أطلق عليها ماركس على خلاف الاشتراكيات المثالية: حيث ترتكز على فلسفة محددة وحتمية للتاريخ، كما أنها ثورية حيث تختلف عن الاشتراكيات الديمقراطية التى تنبذ الثورة وتهدف الوصول إلى الاشتراكية بوسائل تدريجية بدلا من الثورة التى جعلتها الشيوعية أساسا لتحقيق أهدافها، وفى هذا المجال يؤكد ماركس رأيه قائلا: «إن المفكرين السياسيين طالما سعوا إلى التعرف على العالم، ولكن الفكرة الأساسية هى تغييره

وليس التعرف عليه».

والمتتبع لحياة ماركس يجد أن هناك ثلاثة تيارات أثرت على أفكاره:

١ - الفلسفة الكلاسيكية الألمانية:

حيث تأثر بمنهاج وفلسفة الفيلسوف الشهير هيجل.

٢ - الاشتراكية الفرنسية التى واكبت الثورة:

فلقد تأثر بأفكار العديد من المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال «بابيف» و«سان سيمون».

٣ - الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الإنجليزى:

ولقد بدأ ماركس كتاباته الاشتراكية المحددة بالبيان الشيوعى «المانفيستو»، وقد وضعه بالاشتراك مع صديقه إنجلز، ولقد نشر هذا البيان الذى ينطوى على أفكار كل من ماركس وإنجلز، مصاغة فى شكل مبادئ وخطط على قدر المستطاع بأسلوب يتميز بالحماسة والثورية والهجومية.

ولقد افتتح ماركس هذا البيان بعبارته الشهيرة: «إن تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات، ومعنى النضال بين الطبقات هو أن كل شعب يحتوى فئات مختلفة فى المعيشة والمستوى الثقافى وسائر المستويات الأخرى، وأن هذا التباين هو ما يولد المسيَطِر والمسيْطَر عليه. ومن هنا تنبعث هوة تؤدى إلى الحرب الدائمة بين الطبقتين، وان هذه الحروب لا تنتهى دائما إلا بثورة أو بانهيار الطبقتين».

ولقد تبع ذلك البيان كتاب مهم هو «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى»، ثم تبعه بكتابه الأسطورة «رأس المال»، ذلك الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع، فلقد استودع ماركس هذا الكتاب خلاصة نظريته الاقتصادية وحللها تحليلا دقيقا وأوضح الطريق للوصول اليها.

وكتب ماركس أيضاً عدة كتب أخرى منها: «الأيديولوجية الألمانية»، و«الصراعات الطبقية فى فرنسا»، و«بؤس الفلسفة»، و«حول المسألة اليهودية

مساهمة فى نقد القانون عند هيجل»، و«الاقتصاد السياسى والفلسفة»، و«العائلة المقدسة»، و«تاريخ المذاهب الفلسفية».

هذا وقد عاش ماركس خمسة وستين عاما، عانى فيها من الفقر والبؤس والمرض كأشد ما تكون المعاناة، ولقد رأى وهو بكامل صحته أول جزء من كتابه «رأس المال» بعد طبعه، ولكن سرعان ما وهن القلم فى يده قبل إرساله المجلدين الثانى والثالث إلى المطبعة، وفى السنوات العشر التى سبقت وفاته عانى أشد المعاناة من المرض إلى أن توفى عام ١٨٨٣ بمدينة لندن.



مالرو، أندريه

١٩٠١-١٩٧٦م
الأديب والسياسى الفرنسى

لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديبا يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسى مالرو.. وهو من هذه الناحية، ومن حيث تأثير فنه فى عقلية شباب هذا الجيل الذى نعيش فيه يقف إلى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد، إلا أن كلا منهما يمتاز من حيث المشكلة التى يطرقها ويسعى لحلها فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التى يعتبرها مشكلة المشاكل، فى حين يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها، بكامل غرائزها، ساعيا لتحديد موقفا فى هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات.

وأندريه مالرو منذ ابتدأ حياته الأدبية كاتب اجتماعى لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذى يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله. ولذا فهو عدو لذلك النفر من الأدباء الذين آمنوا بما أسموه مذهب (الفن للفن) أو (البرج العاجى) يقبعون فيه غير عابئين بما يدور حولهم من مآسى الحياة حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق المجتمع المحزنة الدامية تشويه لجمال فنهم. ولم يقتصر مالرو على استخدام القلم لخدمة المجتمع الإنسانى بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التى يؤمن بعدالتها. فلم تكد تنشب ثورة الصين التحريرية بعد الحرب العالمية الاولى حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذى كانت تدافع عنه وهو التحرر من الاستعمار الأجنبى.

وعندما قامت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ بادر السفر إلى إسبانيا

ليعمل فى جيوش الجمهورية الشابة، طيارا مدافعا عن سماء مدريد الشهيدة فى أثناء حصارها. واخيرا لم تكد فرنسا تخر على ركبتها عام ١٩٤٠ حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملى. فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم إلى حركة المقاومة السرية ليكافح الغاصب. وبرغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الاول للتعبير عن تفكيره فاشتعل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) نشر الجزء الاول منها، وهو (أشجار التنبرج) فى سويسرا عام ١٩٤٣ والحرب فى أوج سعيرها.

كانت أول أعمال مالرو اصدار كتاب صغير بعنوان (إغراء الغرب) وهو عبارة عن خطابات يقارن فيها الكاتب بين مدنيتين: الشرقية والغربية ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة أمله فى مدنية الغرب. وسرعان ما استرعى هذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفكيره وما يختزن فى صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمى. وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثانى (الغزاة). وفى عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكى) وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته الشهيرة (الوضع الإنسانى) التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام وهى أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية.

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه (الغزاة) ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى كتابه (الوضع الإنسانى). كانت هاتان القصتان لونا جديدا فى الأدب الغربى إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التى عالجها بها مالرو فى هذين الكتابين وسار على نهجها فى كتبه التالية. وذلك من حيث التجديد فى الفكر وحرارة الأسلوب وطهارة الأخلاص.

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل بطبيعته إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيط له من المجهول. ولقد كانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعى وإطفاء هذا الغليان وظل تأثيرها قوى المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عدة. ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد. ولا مراعاة لسنن الأديان بل ولا اعتبار للأسس التى

قامت عليها هذه المدنية التى أوشكت ان تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك فى قيمتها.. الآن ما هو موقف (الإنسان) و (النفس الإنسانية)؟ ما هو موقف الفرد الاوربى أو غير الأوربى إذا كان من أبناء المدنية المتأثرين بتياراتها، المتحررين من كل قيد تقليدى. يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لهما، فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردى وسط هذه الفوضى الغاشمة التى لا ضابط لها ولا حياة فيها واما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشرى كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة.

فالقدر الذى نصادفه فى قصص مالرو هو ذلك الملاذ الغامض الذى يلجأ اليه الانسان حين يحس لوحشته فى هذا العالم وتتهال المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبررا أو تفسيرا فلكى ننتزع الإنسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونرد له اعتباره يجب- كما يرى مالرو- أن نخلق له مجتمعا واقعيا تسوده قوانين العلم والمنطق، مجتمعا يحس فيه بوجوده ويدرك بين أحضانه أنه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له. وهذا المجتمع لا يتحقق إلا بنظام تسوده العدالة والأخاء البشرى وتبرز فى ظلاله قوى الفرد ونواحى نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الغاشمة وتخضعها لخدمة الإنسان بدلا من أن تخضعه هى لطيشها وعتوها.

وأسلوب مالرو أسلوب حزين، عميق كتفكيره، جامح كفنه، وذلك الفن الذى يضعه فى مقدمة كُتاب العصر التقدميين والذى تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذى يحمله فوق ظهره فى سبيل الإنسانية وخيرها.



مل، جون ستيوارت

١٨٠٦ - ١٨٧٣م

أول من نادى بالحريه السياسية

استقبلت انجلترا القرن التاسع عشر وقد أخذت تضطرم بثورة صناعية عارمة، سرعان ما انصهرت واستجابت إلى حركات اجتماعية وتيارات سياسية واتجاهات اقتصادية وفتوحات علمية ومذاهب فلسفية؛ كانت انجلترا أسبق دول الأرض إلى هذا الانقلاب الصناعى الجارف فأحلت الآلة مكان اليد العاملة، ونجم عن هذا تضخم المصنع ووفرة الإنتاج وتدفق الثراء الفاحش وظهور طبقتى العمال والمولين بالإضافة إلى طبقة الزراع وأصحاب الضياع واحتدمت المنافسة وتعارضت مصالح الطبقات واصطرعت مطالبها فكان الكفاح وكانت الثورات التى انتهت إلى تعديل النظم النيابية ورفع المظالم الجائرة، وإقرار أوضاع اجتماعية جديدة، وإدخال قيم أخلاقية لا عهد بها للمجتمع الإنجليزى من قبل.

وسايرت هذه الحركات التى يعج بها العصر نظريات اجتماعية واقتصادية تلائم روحه، وكان من أظهرها نظرية الاشتراكيين التى بشر بها "روبرت أوين" وأتباعه فعارضت حرية التجارة وناصبت الرأسمالية العداء وطالبت بإعادة تنظيم الحياة الاقتصادية، ومن ثم استبدت بهوى العمال واستهوت قلوبهم وان أثارت الضيق الممض فى نفوس المولين والمحافظين من أهل الفكر فى ذلك الوقت.

وكان طبيعيا ان تصاحب هذا العصر وتؤثر فى حركاته وتتفاعل مع تياراته يقظة عقلية واعية بدت فى آثار الكُتاب والأدباء والشعراء وتمثلت فى فتوحات العلم وتطبيقات نظرياته واتجاهاته الفلسفية ومذاهبها فظهر من الأدباء والروائيين المعروفين (والتر سكوت) و (جين أوستن) و (تشارلس ديكنز) و(ثاكرى)

و(كبلنج) و (ويلز) ومن الشعراء المطبوعين (بايرون) و(تنيسون) و(براوننج) ومن كُتاب المقالة والبحث التاريخى (توماس كارلايل) و(ماكولى) و(رسكن) وغيرهم.

وتضاربت المذاهب الفلسفية واستعر الجدل بينها فكان منها ما اتصل ببيئته وساير تياراتها وعبر عن روح عصره وساعد على إذكائها فكانت النزعة الحسية واتجاهاتها المادية الخالصة. وكان من هذه المذاهب ما أنكر هذا الاتجاه واستعان بفلسفة الألمان على إقرار "مثالية" روحية معارضة كان يمثل الحركة الأولى بنزعتها الحسية أعلام النفعية الحديثة من أمثال (جيرمى بنتام) و (جميس مل) ممن انتصروا للنزعة الفردية وجعلوا المبدأ النفعى قوام الأخلاق والتشريع وغيرهما من مجالات الفكر والعمل وسار فى هذا التيار مع تطعيمه بنظرية التطور (ليسلى ستيفن) و(هربرت سبنسر) وجرى فى ركب المادية الحسية (السكندربين) و(توماس هسكلى) فتأكد على يد هؤلاء الاتجاه التجريبى وتمكنت المادية ومدت جذورها إلى الحركات التى اضطرم بها هذا العصر.

وفى هذا الجو الصاخب الذى يغلى بالحركات والتيارات ويضطرم بالمذاهب والنظريات عاش فيلسوفنا (جون ستيوارت مل) عملاقا بين قادة الفكر والإصلاح فى عصره. ولد فى مطلع ذلك القرن وصحبه حتى نيف القرن على السبعين من عمره. نشأ فى محيط أحداثه وضرب فى زحمته وساهم بقلمه ولسانه فى تياراته وحركاته وأمطر قراءه وابلا من المقالات التى أيد فيها رهطا من ساسة عصره الذين دانوا بنفعية بنتام وأبيه جميس. هم الراديكاليون الفلاسفة ووضع منطقا استقرائيا أوجب فيه على المشتغلين بالبحث العلمى أن يصطنعوا الملاحظة والتجربة فى دراسة الظواهر الحسية ابتغاء الكشف عن حقيقتها ومعرفة عللها ومعلولاتها فكان بهذا أول رائد وضع قواعد البحث العلمى وبشر باخضاع العلوم الأدبية والعقلية لمناهج البحث التجريبى كما كان ابن عصره وبيئته مصلحا اجتماعيا وفيلسوفا نظريا.

فى العشرين من شهر مايو عام ١٨٠٦ ولد (جون ستيوارت) ابن (جيمس بنتام) الذى شارك فى قيادة الفكر وتوجيهه فى أمته وكان أكبر مريدى (جيرمى بنتام) الذى احتل مكان الصدارة فى توجيهه الإصلاح الاجتماعى فى عصره ووضع

دعائم مذهب المنفعة العامة الذى يدعو الناس إلى العمل على تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. وقدر للوليد الجديد أن يكون وريثها الروحى وأن تستطير شهرته حتى تكاد تطفئ نورهما وقد عاشر أباه ثلاثين عاما، وأدرك من حياة بنتام ستة وعشرين ربيعا فكان طبيعيا أن يتأثر فى عمق بشخصيتيهما الغلابتين! وفطن الفيلسوفان الكبيران إلى أن هذا الطفل أخلق أهل جيله بوراثة التركة وتحدثا فى تدبير أمره وخشى الأب أن يرحل عن دنياه قبل أن يتم تكوين ابنه واعداده لحمل الأمانة الكبرى. وتطوع بنتام فخفف من جزع صديقه وتعهد بتبنى الوليد وتكفل بتربيته إن قدر لصديقه أن يسبقه إلى أخراه، فكتب جيمس إلى بنتام يقول والطفل لم يتجاوز السادسة من عمره: (ما خطر لى الموت الا استولى على خاطر مزعج يقض مضجعى ويثير مكامن الضيق فى نفسى ذلك أنى سأرحل عن هذه الدنيا وعقل الحادث المسكين لم ينضج بعد ولهذا فإنى أرحب بتطوعك لتعهد تربيته راضيا مسرورا فلو قدر لك أن تتبناه وترعاه لتركناه وريثا خليقا بكل منا). هكذا قدر كل منهما وأبت الأقدار إلا أن يسبق بنتام صديقه إلى الموت بأربع سنوات.

ونريد الآن أن نجمل فى الصفحات القليلة التالية سيرته العقلية فى المرحلة الأولى من حياته وهى تستغرق خمسة عشر ربيعا، حصل فيها من ألوان المعرفة ما مكنه من أن يحتل بفلسفته مركز الصدارة فى قيادة الفكر وتوجيه الإصلاح فى أمته. ولا يكاد المؤرخ يخطئ إذا زعم أن سيرته بعد المرحلة السالفة من حياته تلخص تاريخ أمته وتكشف عن أهم التيارات الاجتماعية والسياسية والفكرية فى عصر كان يعج بحركات التقدم ويضطرم بالنزوع إلى الرقى ويغلى باتجاهاته العملية ومذاهبه الفلسفية. وإذا كان أبوه جيمس وأستاذه بنتام قد قدر لهما أن يعيشا فى شبه عزلة وأن يكون تلامذتهما قلة فإن فتانا قد استطارت شهرته حتى أصبح فى أواخر حياته أظهر مفكرى عصره وأوسعهم نفوذا وأكثرهم تلامذة ومريدين. بل إنه أثار بطموحه الباكر منذ طفولته دهشة معارفه وإعجابهم. فلنقف قليلا عند سيرته فى المرحلة الأولى من حياته:

أشرنا إلى أنه نشأ فى جو عقلى أعانه على أن ينهل العلم مبكرا وأن يسبق

أقرانه فى السن وينضج قبل أوانه. وفى سيرته فى هذا الصدد غرائب روى هو نفسه -فى سيرة حياته التى كتبها بقلمه- أنه لا يذكر متى تعلم اليونانية القديمة ولكن قيل له أنه شرع فى تعلمها وهو ابن ثلاث سنين! وقيل إنه قرأ وهو فى الثامنة من عمره (هيرودوتس) وست محاورات من أفلاطون -من بينها (ثياتيتس) التى أشار بحذفها لأنه لم يقو على فهمها! -واطلع على بعض المؤلفات التى خلفها (اكسينوفون) و(لوسيان) وغيرهما وقرأ فى السنوات الثلاث التالية (هومير) و(ثيوكيديدس) وبعض أجزاء من (سوفوكلس) و (ايرو بيدس) و(أرستوفانس) و(ديموستنيس) وغيرهم. وفى سن الحادية عشرة اطلع لأرسطو على كتاب (الخطابة) ولم يقدر له أن يتعلم اللاتينية حتى بلغ الثامنة من عمره وقد عرف وهو فى هذه السن قليلا من علم الحساب ومضى فيه وحده لأن جهل أبيه بالرياضيات جعله يحمل عبء دراستها وحده حتى سبق فى مجالها أقرانه!. وقرأ فى عامه الثانى عشر كثيرا (فرجيل) و(هوراس) و (ليفى) و(لوكريتوس) و(شيشرون) واتصل ببعض المؤلفات التى وضعت عن العلوم الطبيعية التجريبية ولاسيما ما كان منها فى الكيمياء وإن لم تتح له فرصة يقوم فيها بإجراء تجارب علمية. وقرأ الكثير من كتب التاريخ المفصلة المطولة ووقف عندها مع أبيه فى نزهاتهما الصباحية- يفند حقائقها ويناقش موضوعاتها وقرأ (هيوم) (روبرتسون) و (جيبون) وغير هؤلاء كثيرين، ووضع أبوه فى يده كثيرا من الكتب التى تصور نضال المغامرين والبحارة والمكتشفين منها (روبنسون كروزو) و(ألف ليلة وليلة) و(دون كيشوت) وكثير غيرها.

وفى عامه الثالث عشر شرع فى دراسة الاقتصاد السياسى فقرأ آثار أبيه وريكاردو وآدم سميث وغيرهم من أساطين هذا المجال!

أما عن الفلسفة -التى كان قد عرف بعض دراساتها فى الثامنة من عمره- فقد عاد واقتحم معقلها وارتاد أرضها وهو فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمره مع استمراره فى قراءة الآداب القديمة والاطلاع على روائعها، ودخل إلى الفلسفة من أقرب أبوابها فدرس الكتب الأربعة الأولى فى منطق أرسطو واطلع على منطق المدرسين وأعانه أبوه على فهم القياس المنطقى وتقدير منفعته، وقرأ أفلاطون وراقه منه منهجه المنطقى وإن ضاق بما يعزى إلى تلامذته من اتجاهات

شعرية وصوفية وعلى هذا النحو مضى فتانا فى دراساته!!

إننا لا نضيف إلى طفولة فيلسوفنا خوارق لنثير بها دهشة القارئ بل نعتقد على العكس من هذا ان عهد الحداثة عند العظماء كثيرا ما يخلو من العجائب ويجرى على نفس المنهج الذى يجرى عليه طفولة سائر الناس ولا يطعن فى العظيم أن يكون قد مضى المراحل الأولى من حياته على نحو ما عاشها من الأحداث والغلمان ولكننا نروى عن فيلسوفنا بعض الحقائق التى اتفق فى روايتها مؤرخو سيرته وفيها ما يكفى إثاره للدهشة والعجب.

وحين أتم فتانا الرابعة عشرة من عمره رحل إلى جنوبى فرنسا وقضى بها عاما، وفيها تعلم الفرنسية واستمع فى معاهدها إلى محاضرات شتى ودرس الرياضة والاقتصاد السياسى إلى جانب هذا استيقظت عنده أذواق ومشارب جديدة له خبرات لم تتيسر له فيما سلف من حياته، واتصل بعلم النبات فحبب إليه مناظر الطبيعية وغرس فيه الميل إلى العلوم التى تدرس ظواهرها، ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله قد تنفس طوال إقامته فى فرنسا جوا من الحرية البهيجة التى افتقدها إبان حياته فى وطنه اذا أدى به نظام معيشته إلى الجهل بتقاليد المجتمع الإنجليزى وآدابه ولكنه أدرك بعد رحلته إلى فرنسا افتقار مجتمعه الإنجليزى إلى المشاعر السامية والوجدانات الرقيقة، واستخفافه الساخر بهذه الألوان من العواطف.

أما المجتمع الفرنسى فقد لاحظ أنه يغرس فى نفوس أفراده المشاعر الرقيقة ويهذب قوى النفس ويعمل على تربية العقل، وراقه ما رآه فى الرجل الفرنسى من رقة وتواد وحب للاجتماع على عكس الرجل الإنجليزى الذى يتصرف وكأن كل فرد أمامه يناصبه العداء أو يثير ضيقه ويهيج ضجره! ويعلق مؤرخو الإنجليز ساخرين على حكم فيلسوفنا هذا بأن فيه وصفا لموقف الإنجليز من النفعيين!!

وعاد (مل) من رحلته إلى وطنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره واستأنف دراساته القديمه فقرأ (كوندياك) وألم بتاريخ الثورة الفرنسية ودرس القانون الرومانى وتوسع فى دراسة (بنتام) واطلع على كتاب مريده (ديمونت) (بحث فى التشريع) وقرأ (لوك) وهلفتيوس وهارتلى وباركلى وهيوم إلى جانب ريد ودوجالد

ستيوارت وغيرهم كثيرون من المفكرين المعروفين، فما مست يده كتابا إلا أتى عليه قراءة وتفنيدا فتهيأ له من وراء هذا رصيد من المعرفة المتنوعة جعله من أغزر أهل عصره مادة وأرفعهم ثقافة وأغناهم علما، وأحسن فيلسوفنا استغلال هذه الثروة فحكم فيها عقله الواسع وأطلق له حرية التصرف فيها والانتفاع بها فخلصت له من وراء هذا فلسفة شاملة جامعة امتدت إلى مجال المنطق والميتافيزيقا والأخلاق واتصلت بالسياسة وكان لها أثرها الملحوظ فى شتى ميادين الإصلاح الاجتماعى فى عصره بل فى العصور التى أعقبته.

واتجه إلى الكتابة وهو فى السادسة عشرة من عمره وتعرف إلى فتى فى مثل سنه من طلاب جامعة كمبردج كان متحمسا للمذهب النفعى وعلى درجة عالية من موهبة الخطابة هو (تشارلس أوستن)، وعرف أبوه بكلية (ترينتى) بكمبردج وكان يعتقد ان الجامعات معقل الرجعية وأنها جمعية تبشر بالذهب النفعى وانقطع عن الجامعة بعد أن عين كاتبا فى شركة حتى وصل إلى مثل ما وصل أبوه فيها من قبل.

ولم يمنعه العمل عن متابعة نشاطه الفكرى والسياسى فأخذ يكتب فى الصحف داعيا لمذهبه ومذهب أبيه جيمس وأستاذه (بنتام) مهاجما.

وفى عام ١٨٦٥ انتخب عضوا فى مجلس العموم فقضى بين جدرانه ثلاث سنوات يبشر بمنهاجه فى الإصلاح الاجتماعى والسياسى وينادى بتحرير المرأة ويحاول التوفيق بين شيعته من الراديكاليين وطائفة العمال الناشئة التى أخذت تثبت وجودها وتنصرف عن الراديكاليين إلى الالتفاف حول دعوة (روبرت أوين) واشتراكيته الجديدة وإن لم ينزع عن نفسه ثوب الراديكالية التى رأى العمال - بالرغم مما حققته لهم من مكاسب- انصرافها إلى طائفة المولين، إذ راح يقنع العمال عبثا بأن مبادئ الراديكاليين تخدم مصالحهم فى الوقت الذى كان يقاوم فيه بعض مطالبهم كإباحة حق الانتخاب لكل مواطن فباءت محاولته بالفشل.

وعندما أجريت الانتخابات التالية هزمه منافسه مرشح (التورى). فآب إلى عزلته وأبحاثه حتى وافته منيته عام ١٨٧٣ بعد حياة حافلة تنسم فيها قمة الفكر الإنجليزى قاطبة.

وخلت حياته من الهزات العنيفة إلا ما كان من غرامه بالسيدة (هاريت) وتدله فى حبها وبادلته حبا بحب وكانت امرأة ذكية تصغره بثلاث سنوات ولعت بالفلسفة والعلم ودرست المنطق وانصرفت إلى قراءة (مل) وكلفت به حتى قالت عنه (إنه يمثل غاية ما فى البشرية من سمو) وكلف بها (مل) وصحبها فى جولة بأوربا للنقاهة من مرض أصابه وضاق أهله وصحبه بعلاقته بها فلم يلق بالا إليهم واعتزلهم فقد أغناه الحب عن كل عشرة فى الوجود، وقضيا فى هذه العلاقة التى وصفها بالبراءة واحدا وعشرين عاما قبل أن يتزوجها عام ١٨٥١.

ويرد إليها (مل) الفضل فى الكثير من إنتاجه مما نوه به وأشار إليه فى سيرته وأهداها أعظم ما كتب (عن الحرية) فلما قضت عام ١٨٥٨ إثر التهاب رئوى هزته الفجيعة فاعتزل الناس وثوى إلى دار فى (أفنيون) يطل منه على قبر الغالية ولا يتركه إلا إلى (بلاكهيث) حيث يقيم بعض الوقت مع ابنة زوجته ويختلف إليه مريدوه بين حين وآخر ولم يجد عزاءه فى غير العمل فوهبه كل وقته. وقد وافته منيته فى ٨ مايو ١٨٧٣ فى الضاحية التى تضم رفات الغالية الراحلة.



ملتون، جون

١٦٠٨ - ١٦٧٤م
أحد الصور الكبرى فى الأدب الإنجليزى

ليس هناك أدنى شك فى أن جون ملتون هو أحد الصور الكبرى فى الأدب الإنجليزى، يجىء بعد دانتى بوصفه اعظم شاعر لاذع فى الثقافة الغربية. إن تحفته الرائعة (الفردوس المفقود) قد عاد إليه بمجد عالمى ما فتئ يتضاعف مع مضى القرون، كما أن القارئ المعاصر يجد فى دنيا ملتون صورة عظيمة للمأساة الأبدية التى تدور بين المخلوق والخالق وبين الإنسان وقدره.

وقد أجمع النقاد على أن (ملتون) أحد ثلاثة هم أعظم الشعراء قاطبة فى الأدب الإنجليزى. وتعنى أن ما أداه هذا الشاعر العظيم من تجسيد روح عصره فى شعره ومن الصعود بشعره إلى أوج لم يهبط منه، لم يتوفر فى تاريخ الأدب الإنجليزى كله إلا فى ثلاثة : (شكسبير) و (ملتون) و(وردزورث). فقد تجد من شعراء عصر اليصايات من يبلغ فى أروع إنتاجه مبلغ شيكسبير، لكنك لا تجد بينهم من يضارعه فى اتساع أفقه، وفى المحافظة على ما ارتفع إليه، فكل ما أنتجه شعراء عصر اليصابات تجد له نظيرا عند شيكسبير والعكس صحيحا، أعنى أن لشيكسبير آيات لا يدنو منها شىء مما أنتجه سائر الشعراء فى عصره وهكذا قل فى (ملتون) و (وردزورث).

كان (ملتون) أصدق لسانا يعبر عن خواطر عصره، فكانت له غاية واحدة رئيسية ينشدها كل ما أنشد من الشعر، وما تلك الغاية المنشودة إلا بغية عصره وأعنى بها أن يقيم الناس برهانا على عدل الله وحكمته تلك هى غايته التى قصد

إليها تلميحا فى شعره كله وأفصح عنها تصريحا فى مطلع (الفردوس المفقود)، ولكى نفهم روح العصر كانت حيوية جارفة تسود العصر، حيوية تدفع الإنسان إلى الانغماس فى كل ما يزيده استمتاعا بالحياة دون أن يجد من العقل أو الضمير ما يكبحه فمغامرات فى جوف المحيط، وتلقف لكل ثقافة جديدة يستخرجها رجال النهضة من أسفار القدماء، فعهد اليصابات فى الأمة هو مرحلة الشباب الفتى الطموح، فيه تحطيم القيود الذى نعهده من الشباب، وفيه الأمل الباسم، وفيه الجدة والنضارة، وفيه الرغبة الملحة فى تحصيل العلم، وفيه الخروج على معايير الأخلاق، وفيه حب الاستطلاع وركوب المخاطر مما نراه كذلك فى فتوة الشباب.

فلما انقضت عن العصر دوافع الشباب ونزواته وذهبت عنه نضارة الشباب وروعته، أقبل على الناس عهد استيقظ فيه الضمير ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم فى العهد الذى أدبر، عهد لم يقبل الحياة بكل ما فيها وهو بها فرح مغتبط، بل أخذ يقدر خيرية العمل وشريته قبل أدائه، عهد أراد فيه القوم أن يحتكموا إلى الكتاب المقدس كما هو بحروفه وألفاظه بغير تأويل وتحريف وذلك هو عهد التزمت الدينى الذى كان له شاعرنا جون ملتون لسانه المعبر الناطق.

(جون ملتون) سليل أسرة من أوساط الناس، ولد فى لندن عام ١٦٠٨ وأكمل تعليمه فى كيمبردج عام ١٦٣٢، حيث درس الآداب القديمة درسا رقيقا وغادر الجامعة وهو يعرف اللغة العبرية خير معرفة، كما يجيد من الآداب الحديثة الإنجليزى والإيطالى والفرنسى وفضلا عن ذلك، فقد برع فى الموسيقى واستمد منها لذة ومتعة.

وما لنا نطيل الوقوف عند أنباء حياته كأنه ليس أمامنا خضم من أدبه زاخر؛ فلنأخذ من فورنا فى استعراض هذا التراث العظيم وسنقسمه لتيسير دراسته إلى ثلاث مراحل:

١- المرحلة الأولى:

شعره قبل سنه ١٦٣٩: كان من أروع شعره الذى أنتجه منذ غادر الجامعة قصيدتا (الجرو)- أو الطروب، و (البنسروزو)- أو التأمل- ثم مقنعة مشهورة

عنوانها (كومس) وأخيرا قصيدة تعد من آيات الأدب الإنجليزى هى (لسداس) التى رثى بها صديقه (كنج).

٢- المرحلة الثانية ١٦٤٠- ١٦٦٠:

فى هذه المرحلة أنتج مؤلفاته السياسية وأدبه النثرى وكان من أول ما كتبه بعد عودته إلى لندن رسالة صغيرة (فى التربية) نشرت سنة ١٦٤٤، وفيها يقترح أن تشمل تربية الناشئ ثقافة عريضة على أساسين: هما الآداب والفلسفة والسياسة والقانون فى الحياة العلمية، فيدرس الطالب الأدب والفلسفة والسياسة والقانون والطب وفن الحروب، إذ لابد أن ويعنى فى التربية بأجسام الناشئين وعقولهم ونفوسهم على السواء ثم هو يوصى إلى جانب ذلك بالموسيقا التى تبعث البهجة فى النفوس.

ولنمض الآن مسرعين فلا نقف عند سائر نثره السياسى الذى أخذ يخرجه رسالة بعد رسالة، والذى أفقده البصر وهو فى عامه الرابع والأربعين.

٣- المرحلة الثالثة (١٦٦٠-١٦٧٤):

ها قد زالت من الشاعر شواغله السياسية بعودة الملكية إلى انجلترا. فانصرف إلى تحقيق أمنية طالما تمناها، وهى أن ينشئ فى الشعر آية خالدة لا يعرف لها بين ما أنتج الشعراء ضريبا ففيم يكتب؟ أيختار (آرثر) بطلا لآيته الكبرى التى اعتزم أن ينهض بإنشائها؟ لقد جال بنفسه هذا الخاطر ثم لم يطل، ولم يلبث أن اتجه بفكره نحو موضوع قصيدتيه الكبريين (الفردوس المفقود) و(الفردوس المردود)، أما الأولى فتقص ثورة الملائكة على الله، ثم كيف تم خلق الإنسان وإغراؤه وسقوطه طريدا من الفردوس، وأما الثانية فتصف كيف حاول الشيطان أن يغرى المسيح وهو فى البيداء المقفرة بشتى المغريات ولكنه لم يوفق فى إغرائه وخرج المسيح ظافرا.



موباسان، جى دى

١٨٥٠-١٨٩٣

رائد القصة القصيرة فى الأدب الفرنسى

لعل (موباسان) أن يكون أنبغ من نبغ من أتباع (القصة العلمية) التى تقوم على تحليل الواقع: ولم يكد يبلغ (موباسان) عامه الثلاثين حتى عرف جمهور القراء بنفسه فى ثلاثة أشياء؛ قدم لهم ديوانا من شعره؛ وقدم لهم مؤلفات فلوبير بمقدمة بسط فيها رأيا خاصا له فى الأدب الذى يقوم على التحليل العلمى، وقدم لهم حكاية قصيرة ظهرت فى مجموعة من أمثال هذه الحكايات، وقام بإصدارها (زولا) بمعونة تلاميذه الذين منهم (موباسان) وكانت هذه القصة القصيرة فريدة فى جمالها بين ما نشر فى تلك المجموعة، ولا عجب فقد كتبها من أقام الدليل على أنه بطل من أبطال هذا اللون من الأدب، إذ لبث (موباسان)بعد ذلك أكثر من عشر سنوات يتابع إنشاء الأقاصيص القصار، وفى غضون ذلك يخرج آنا بعد آن قصة طويلة، مثل (حياة) و (بطرس وجان) التى كتب لها مقدمة شرح فيها رأيا فى أدب القصة قال فيه إن حبكة الحوادث ليست شرطا أساسيا فى بناء القصة، ومن خصائص أدبه القصصى أنه يقدم للقارئ حادثة أو موقفا أو حالة نفسية لشخص من الأشخاص، يقدمها لتصدم القارئ ويتركها بغير شرح ولا تحليل، كأنه يريد القارئ أن يشاركه النظر إليها والتأثر بها على النحو الذى نظر إليها هو وتأثر بها فى جملتها دون التغلغل فى عناصرها ومقدماتها.

وما دام (موباسان) عضوا فى جماعة القصة التحليلية، فهو كغيره من أعضاء هذه الجماعة يبحث عن الحوادث التى تثير بطبيعتها شوق القارئ. مثل حوادث الجرائم والرذيلة، حتى لا يجىء وصف الواقع كما هو باعثا على الملل، وقد كان

(موباسان) فوق ذلك متشائما سوداوى المزاج ينظر إلى الحياة بمنظار أسود؛ ولذلك تراه -شأنه فى ذلك شأن الكثرة الغالبة من أصحاب المزاج السوداوى من الأدباء- يدخل السخرية فى أدبه، والسخرية -كما قيل- هى للأدب كالملح للطعام، لابد من قليل منها ليملح طعمه على اللسان ويصبح شهيا مستساغا.

كان (موباسان) موهوبا فى حكاية القصة، فالقدرة على الحكاية موهبة يصعب تحليلها أو تعليمها، فإما أن تكون حكاءً بطبعك أو لا تكون، وأسلوبه سهل قوى لا تكلف فيه ولا صناعة، وقد مات بالشلل وهو لم يزل فى سن متوسطة لم تشخ، ولعله لو عاش لكانت شجرته أكثر إيناعا وثمرا، والعجيب فى أدبه أنه يجود إذا تخلص الكاتب من تطبيق آرائه النظرية -وهى حقيقة كثيرا ما نجد لها الشواهد فى تاريخ الأدب- فأقل قصصه انصياعا للآراء النظرية التى بسطها فى المقدمتين اللتين ذكرناهما، هى أجود قصصه، وهى قصة (بطرس وجان) مع أنه قدم هذه القصة نفسها بمقدمة شرح فيها رأيه فى أدب القصة

ولد بقصر ميرونمسنل بنورماندیا، وكان ينحدر من جهة الأب من سلالة أرستقراطية تدهورت إلى مباءة الإفلاس، وكان ينحدر من جهة أمه من سلالة من العامة سمت إلى الخلق الفنى- فكان دمه مزاجا عجيبا من العناصر- نار الإباحية، وحساسية الخيال، ومرارة خيبة الرجاء، والإيقاع الشعرى البارد للبحر النرمندى.

كانت حياته دفعة عاطفية من الشمال البارد. ولكن أمه، وأحبب بها من أم، قد صممت على أن تتحكم فى الريح وتحدد اتجاهها. فبعثت به وهو بين العاشرة والعشرين إلى المدرسة الكنسية فى (ايفيتوت) ولكن (جى) لم يكن ينبغى أن يصير قسيسا. فأحدث ثقبا فى برميل النبيذ بمخزن كبير الآباء، ودعا رفاقه فى المدرسة أن يشربوا على حساب مائة قداس. وقارف بعض المخالفات الأخرى فطرد.. إلى الحرية.

والتحق باللوقيون ليعد نفسه لدراسة القانون، ووفق إلى الحصول على درجة مقبول. ولكن حدث بعد ذلك الغزو البروسى عام ١٨٧٠ عن طريق سيدان. فالتحق موباسان بقسم الإمدادات بجيش فرنسا، ولم تكن حياته مبهجة.

وقابل (جوستاف فلوبير) عن طريق صلات أسرته، وكان مؤلف مدام بوفارى

عبقريا بوهيميا يصطنع فى الأدب من التجارب مثلما يصطنعه فى الحياة من هم أكثر جسارة. وكان قد قدم للمحاكمة على قصته الصلبة الجبين،وعاش مهملا كأنه مخلوق محجور عليه، لا يجب أحد أن يلمسه. بيد أنه كان غير آبه، إنه لم يمنح العالم غير حطام نحيل لذاته، ويجلس كأنه معبود فى معبده الرائع الذى احتفظ بمفتاحه لنفسه فحسب.

لقد كان يبحث عن حوارى كامل، وكان موباسان يبحث عن أستاذ كامل.

والآن يلتقى الروحان الهائمان النصفيان اللذان استويا فى الوحشة فيندمجان فى روح واحد، يهيم مظفرا. وعلى انفراد.

وظل (جى) طيلة سبع سنين يأتى أيام الأحد حاملا قصائده ومسرحياته وقصصه إلى ذلك العملاق.

واستطاع التلميذ تدريجيا أن يفقه سر عبقرية أستاذه، إنها عبقرية مجيد للرماية، استطاع أن يهتك نفاق الحياة بأسهم فتاكة.

وفى خلال أيام الصداقة الوثيقة بين جوستاف فلوبير وموباسان، قدم فلوبير لصاحبه نظرية للنجاح الأدبى تتكون من ثلاثة أجزاء: لاحظ ثم لاحظ، ثم لاحظ أيضا. ثم مات فلوبير على حين بغته.

وكان موباسان أستاذ الأقصوصة، لكن طريقته فى سردها هى طريقة سرد الملاحم. ولقد كتب كثيرا من القصص كانت فى الواقع أقاصيص وكانت كل أقاصيصه قصصا طويلة. وأشخاصه جميعا لا ينعمون براحة دينية أو روحية. ومع ذلك فهو شاعر متنكر فى زى ساخر قاسى الفؤاد. فتشاؤمه ودقته العلمية وأسلوبه المشرق البسيط الذى ينحو فيه منحنى الأدباء الأقدمين إنما هو مستعار من مظاهر جيل الشبان الذين يعيشون حوله، وكان موباسان يشعر كما يشعر بقية جيله أن الله قد خلقه لكنه يرفض ساخرا أن يؤمن بهذه الأبوة؟!!

ولم يكن لديه مبدأ فلسفى يعيش عليه (أن هناك من الحقائق ما يساوى الناس عدا. فكل منا يكون لنفسه صورة خادعة للعالم. وهو خداع شعرى أو عاطفى أو بهيج أو مقبض أو قذر أو كئيب حسبما تكون طبيعته.. كخداع الجمال

وهو تقليد إنسانى.. وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة.. وخداع النذالة الذى يستهوى الكثيرين. وكبار الفنانين هم أولئك الذين يسعهم حمل الإنسانية على قبول انخداعاهم الخاص).

وهذا جى دى موباسان الذى أصبح أستاذ الضحك بلا مسرة ينظر فى المرآة إلى عينيه فيتبلبل هو أيضا. وكان وجهه يزداد نحولا كأنما العينان تأكلان اللحم بمقتضى قانون مستمد من طبيعتهما. وكان يحلق ذقنه ذات صباح، فأتى ضباب بينه وبين المرآة، فوضع يده على رأسه المصدع، وأخذ يدرك السبب فى عمق بصره بذرات الأشياء؟

والآن.. شاءت سخرية الحياة الحزينة أن تكون هذه الفترة هى فترة خلقه الأدبى الأعظم، وكأنما قد أخطأ الطريق بغتة فدلف إلى حظيرة آلهة لا تراها العين. ذلك بأن السموم القاتلة التى تجرى فى دمه كانت تستخرج منه أينع أزهار عبقريته قبل أن تحطمه. فقد سطر قلمه قصصا عن المناطق الاستوائية الهادئة المتوجة، وعن الحب الإنسانى الجميل وعن رحلات فى البحر المتوسط الذى كانت أمواجه تذوب فى ضوء القمر المبدع فتغدو نجوما وكواكب.

ونما ألمه جماله، فمناضد المكتبة والمقاعد والمصابيح صارت حيوانات تسعى دخولا إلى الغرفة وانصرافا عنها، ونزولا على الدرج وسيرا فى الطريق إن ملايين الجراثيم تسرى فى دمه، كأنها فى استعراض. فإذا وضع كعبه على الأرض قفز إلى أعلى فى الحال، وكان خادمه يسير وراءه فى بطء خلال الحقول ذات مرة، فرأيا صليبا عليه صورة المسيح فقال (أى فرانسوا لقد كانت سنة ثلاثا وثلاثين حين صلب!! وأنا الآن أقارب الواحدة والأربعين).



موليير

١٦٢٢-١٦٧٣م

مبتكر الفن الكوميدى

من المؤكد أن القرن السابع عشر هو العصر الذى حصل فيه الغرب على تراثه المسرحى الحقيقى، فقد افتتحه شكسبير واختتمه موليير ومما يدعو إلى العجب أن ثمة مقارنات تدعو إلى التقريب بين هذين العملاقين من عمالقة المسرح. كما أنه فضلا عن أوجه الشبه بينهما فإن الأسطورة والخرافة تثيران بالنسبة لهما تساؤلات متشابهة، ومن جهة أخرى فبينما يشك بعض الباحثين فى حقيقة شخصية شكسبير نجد آخرين يدعون أن (موليير) لم يكن سوى اسم مستعار يخفى وراءه مجموعة من المؤلفين لم تكن مواهبهم لتكتسب شهرة عن طريق المسرح! وزيادة فى السخرية أو التنبؤ التاريخى كان لابد أن تكون هاتان العبقريتان قد نبعتا من أكثر الطبقات تواضعا فى عصريهما فالأول ابن جزار والثانى ابن بائع سجاد!

وحياة موليير لا تزال موضوعا لكثير من الآراء المتناقضة وربما من العوامل التى لا تعين على معرفة الكثير عنها بالدقة خلو إنتاجه من التفاصيل التى تتعلق بها.. كل ما نعرفه عن طفولته وصباه هو أن جان باتيسد بوكلان ولد فى باريس وأن أباه كان يجمع بين الاتجار فى السجاد ووظيفة خادم الملك وأنه درس على يد اليسوعيين فى كلية كليرمونت ثم درس الحقوق فى أورليان كما تتلمذ فى دراسة الفلسفة على جاسندى الذى حببه فى الشاعر اللاتينى لوكريس وأنه اشتغل بالمحاماة فترة قصيرة لم يترافع خلالها سوى مرة واحدة وأنه اندفع نحو المسرح بميل طبيعى قوى لم يستطع مقاومته ويقال إنه فقد أمه وهو فى الحادية عشرة من عمره وان أباه كان فظا بخيلا وان جده لأمه لويس كريسيه هو الذى غرس فيه

حب المسرح إذ كان يصطحبه دائما إلى المسارح التى يغشاها وفى مرة كان جان بوكلان يشهد فيها إحدى الروايات كان يعود بعدها إلى بيته ممتقع اللون ويغرق فى تفكير عميق يزيده سخطا على مهنته. ويقال كذلك إنه حين قرر التفرغ للمسرح لقى معارضة شديدة من والده الذى لجأ إلى شتى الوسائل لثنيه عن عزمه.

وفى يونيو ١٦٤٣ اتفق (جان باتيسد) مع ثلاثة أفراد من أسرة بييجار (جوزيف ومادلين وجنوفييف) وعدد آخر من الرفاق (سبعة) وأستاذه القديم بينيل (الذى سمى نفسه لاكوتير) على إنشاء فرقة مسرحية أطلقوا عليها اسم (المسرح العظيم الفخم) وهنا سمى جان باتيسد نفسه (موليير) وظلت الفرقة تستأجر المسرح تلو المسرح وتصاب بالإخفاق إلى أن أبهظتها الديون واستحال بقاؤها فى باريس. كان موليير مديرها الفعلى بالرغم من حداثة سنه ويقال إنه سجن مرتين بسبب الديون التى كانت تثقل كاهلها وجمعت الفرقة أمتعتها ولاذت بالريف فى أواخر عام ١٦٤٥ ولم ترجع إلى باريس إلا بعد ثلاثة عشر عاما عرفت خلالها حياة التجول.. وأعجب بموليير أمير كونتى زميله القديم فى المدرسة فأراد أن يعينه سكرتيرا له، لكنه رفض بدافع من حبه لمهنته وتعلقه وحرصه على استقلاله.

فى إحدى جولات الفرقة فى روان حصل موليير على إذن من دوق أورليان – شقيق الملك– بأن يمثل فى باريس أمام الملك. وفى ٢٤أكتوبر ١٦٥٨ قدمت الفرقة فى قصر اللوفر مأساة لكورنى وملهاة هزلية من تأليف موليير هى الدكتور المحب. وأعجب لويس الرابع عشر بالفرقة فسمح لها بأن تستقر فى باريس وبأن تسمى نفسها (فرقة شقيق الملك) وأن تقدم حفلاتها فى مسرح البوربون الصغير بالتناوب مع فرقة الإيطاليين وحين أزيل مبنى هذا المسرح فى عام ١٦٦٠ تغير اسم الفرقة بإذن من الملك فصار (الفرقة الملكية) وانتقلت إلى (صالة) ملحقة باللوفر كانت مخصصة لحفلات القصر كما كانت تعار فى بعض الأحيان لهذه الفرقة أو تلك من الفرق الباريسية.. وظل موليير يمثل فيها إلى أن توفى.

إن لحسن حظ الإنسانية أن تقترن العبقرية فى معظم الأحيان بالسمو الخلقى. كان موليير معتل الصحة فى حياته الزوجية ينوء بشتى الهموم ولكنه كان كبير القلب وكفى..

يقول عنه زميله فى التمثيل لإجرانج إنه كان يتميز بجميع الصفات التى تجعل

منه رجلا شريفا حقا.. ويكتب ممثل آخر اسمه بريكور بعد وفاة موليير مسرحية من وحى حياته (ظل موليير) يقول:- لقد كان (موليير) فى حياته الخاصة كما كان فى مغزى مسرحياته: شريفا صادق الحكم إنسانا صريحا كريما..) ولعل من أبرز صفاته كذلك صداقته النادرة. وتاريخ الأدب يسجل أواشج الود الخالص الأكيد التى ربطت بينه وبين كثيرين من كبار معاصريه أمثال بوالو وراسين وشابل ولافونتين وكورنى.

من الغريب أن موليير وهو مبتكر الفن الكوميدى الحقيقى فى فرنسا كان يميل إلى التراجيديا وربما كان مرد ذلك إلى تعاسة فى الحياة إلا أن مأساته (دون جارسيا دونافار) أصيبت بفشل ذريع كان بمثابة إنذار حض موليير على العدول عن التراجيديا والحق أنه خلق للفن الملهوى: حدث حين عاد بفرقته إلى باريس إثر رحلته الطويلة فى الريف أن مثل مسرحيته الشهيرة (المتحذلقات المضحكات) وإذا برجل مسن لا يتمالك نفسه من الاعجاب فيطلق هذه الصيحة التى دوت فى أرجاء المسرح: (تشجع تشجع يا موليير ها هى الكوميديا الحقيقية)..لقد كانت تلك المسرحية تبشر بثورة من أجل الذوق السليم.. هذا العبقرى الذى صور عادات عصر اكتشف فى الوقت نفسه خبايا النفس البشرية. أدبه اذن عالمى بقدر ما هو فرنسى يقول سانت بيف: (إن أهم خصائص عبقريته هى الإنسانية الأبدية المرتبطة ارتباطا وثيقا بتصوير عادات عصره وان ملابس شخصياته تخفى تحتها الإنسان فى كل العصور).

وموليير يختلف اختلافا بينا عن كل من سبقه من كُتاب المسرح. يختلف عن كتاب الإغريق والرومان وعن كُتاب العصور الوسطى والقرن السادس عشر وعن الكتُاب الذين سبقوه مباشرة يختلف مثلا عن أرستوفان لأن أرستوفان صور شعب أثينا أكثر من تصويره الإنسان العالمى بشجاعة نادرة وهجاء بليغ الأمر الذى يمنح مسرحياته قيمة تاريخية تجعل منها ما يشبه الوثائق عن عهد صاخب من عهود الديمقراطية الأثينية.. اما موليير فقد تصدى للعيوب والرذائل التى تصيب البشرية فى جميع البلاد وجميع الأزمان.. ويختلف عن بلوت لأن كوميديا بلوت - هى الأخرى- هجاء اجتماعى ينصب على إطار محلى هو المجتمع الرومانى فى عصره ،صحيح أن لهذه الكوميديا طابعا مبتكرا هو ثأرها للعبيد من سادتهم (عزابلوت إلى العبيد الذكاء والشرف وإلى السادة الحمق وأحيانا الخسة) إلا أن

انتاج موليير يدخل فى إطار أوسع يضم القصر والمدينة والقرية فضلا عن بهو طويل يحتوى على العديد من آفات البشرية.

نعم يقال إن ميناندر درس القلب الإنسانى واستطاع أن يصور الحياة البشرية إلا أن أباطرة بيزنطة حرقوا أهم إنتاجه استجابة لتوجيه رجال الدين. إذن فمن العبث أن تبحث عن أوجه شبه بينه وبين موليير أو أن يزعم أحد أنن موليير قد اقتدى به.. ويختلف عن تيرانس لأن كوميديا تيرانس ينقصها الابتكار والجسارة وتشبه الخرافات اليونانية أكثر من تصويرها للمجتمع الرومانى وتصلح للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل. إن موليير يتفوق على هؤلاء جميعا لأن لديه أبرز خصائص فنونهم جميعا ويزيد: فنه هو يتميز بنزعة هزلية كنزعة (ارستوفان) وبجسارة ومرح شبيهين بجسارة وملامح (بلوت) وبرقة تذكر برقة (تيرانس) ولكنه يبزهم جميعا بما خلق من نماذج بشرية تصور طبيعة الإنسان فى أبرز ملامحها..

ويختلف موليير كذلك عن كُتاب المسرح فى العصور الوسطى لأن المسرح فى تلك الحقبة كان دينيا فى جوهرة.. ويختلف عن كُتاب القرن السادس عشرة لأن كوميديا هؤلاء الكُتاب، صحيحا لم تكن مصطبغة بصبغة دينية ولكنها كانت فى دور التكوين بحيث يستحيل عقد أية مقارنة بينها وبين فن موليير الأصيل.. ويختلف عن أسلافه المباشرين من مقلدى المسرح الأسبانى أمثال هارى وتيوفيل وسكوديرى وسكاردون لأن إنتاجهم كان ينبع من الخيال أكثر من اعتماده على الملاحظة ويخلو من تحليل للشخصيات ويزخر بالمواقف الغريبة المعقدة التى يتحتم على الإنسان ان يلغى عقله إن أراد تصديقها، ثم إنه يختلف عن كورنى صاحب ملهاة (الكذاب)، وبالرغم من أن موليير يعترف بأن هذه المسرحية هى التى دلته على الطريق الحقيقى الذى كان عليه أن يسلكه، فشتان بين كوميديا موليير وكوميديا كورنى فبهذه الأخيرة تصور عادات بشرية تختلف باختلاف الناس وتضم مواقف غريبة ملغزة وشخصيات لا تتكلم باسم خالقها و إنما كثيرا ما يتكلم المؤلف باسمها..

وقد كتب موليير قرابة ثلاثين مسرحية أجودها - (البخيل) ١٦٦٨- (المتحذلقات المضحكات) ١٦٥٩ (طرطوف) ١٦٦٤، ٦٧، ٦٩، (المتزمت) ١٦٦٦ (البرجوازى الشريف) ١٦٧٠ (النساء العالمات) ١٦٧٢ (مريض الوهم) ١٦٧٣.

مونتسيكيو

١٦٨٩- ١٧٥٥ م

صاحب نظرية الفصل بين السلطات

لقد كان كثير من النقاد يعدون كتاب (روح القوانين) أعظم المؤلفات التى قادت الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى من القرن الثامن عشر وحتى الآن. وكان مونتسيكيو جد فخور بكتابه هذا الذى كان يمثل ثمرة أبحاثه طيلة حياته ولذلك حرص على تصديره فى طبعته الأولى بالمثل اللاتينى المشهور (طفل مولود بلا أم). ولقد شرح مونتسيكيو ما يقصده من ذلك فقال إن كتابا يؤلف عن القوانين وروحها يجب ألا يظهر إلا فى دولة تتمتع بالحرية الحقة، فالحرية التى تسود بلدا من البلاد هى شرط أساسى لصدور مثل هذه الكتاب اذ هى بمثابة الأم التى تؤدى إلى نشأة هذه المؤلفات ورعايتها، ولكن كتاب (روح القوانين) بلا أم لأنه ألف فى فرنسا التى لا تتمتع -فيما يرى المؤلف- بأية حرية. ولكن لفيفا من النقاد يعتقد أن مونتسيكيو أراد بكتابته هذه المثل الفخر بكتابه، إذ أراد من ذلك أنه لم يتوسم فيه خطى أى مفكر أو فيلسوف سابق عليه.

ويندر أن تجد مؤلفا يمثل ثمرة حياة علمية بأكملها مثل كتاب روح القوانين الذى يمثل حقا بالنسبة لصاحبه كتاب العمر. حقا أن مونتسيكيو قد ألف مؤلفات لا حصر لها قبل تأليفه روح القوانين، ومن بينها مؤلفات شهيرة اقترن بها اسم مؤلفه مثل (رسائل فارسية) و (ملحوظات عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم) وخطبته الافتتاحية فى برلمان بوردو ورواياته وقصصه إلى آخر كل ذلك، ولكن كل تلك المؤلفات كانت مقدمة لذلك السفر الكبير الذى أزمع تأليفه والذى سلخ فى كتابته أربعة عشر عاما أو من سنة ١٧٣٤ حتى سنة ١٧٤٨, وتقول فى هذا الشأن مدام دى لامبير (إن مونتسيكيو لم يفعل بمؤلفاته السابقة على روح القوانين أكثر

من إفساح الطريق أمام مشروع كان من شأنه أن يخلد اسمه ويرفعه مبجلا على ممر القرون المستقبلة).

ولما كان كتاب روح القوانين يدور حول القوانين والعادات والتقاليد التى تسود المجتمعات المختلفة، ولما كان مونتسيكيو يعلم تمام العلم أنه بهذا الكتاب يقوم بفتح جديد فى باب الدراسات الاجتماعية والسياسية والقانونية، فإنه لم يقتصر على قراءة المؤلفات القديمة والحديثة التى رأى فيها فائدة لموضوع كتابه الكبير، بل رأى أن يتبع ذلك بزيارات يقوم بها للمجتمعات الأدبية المختلفة حتى يرى التباين بين طبائع المجتمعات المختلفة رأى العين ويلمسه (على الطبيعة)، فزار النمسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا، حتى يكون على بينة فى كتابة مؤلفه.

وإذا كانت مؤلفات أى مؤلف تعكس فى ناحية من نواحيها التى كانت تكتنف حياة صاحبها. فإن (روح القوانين) يعد أصدق مرآة للظروف التى كانت تحيط بصاحبه فى حياته العائلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولهذا سنبدأ موضوعنا بملخص لحياة مونتسيكيو.

ولد شارل دى سيكوندا بارون دى لابريدو دى مونتسيكيو، فى (لابريد) بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى الفرنسية فى ١٨ يناير ١٦٨٩، وينتمى لأسرة ذات تاريخ طويل فى خدمة البلاط الفرنسى ولقد ورث لقب البارونية عن جد له. اذ كانت التقاليد تقضى بإطلاق هذا اللقب وغيره من الألقاب الأخرى. كما ورث عن أجداده لقب الرئيس القضائى لبرلمان جيين.

وتربى مونتسيكيو فى مدرسة كان يشرف عليها جماعة تسمى جماعة الخطابيين وهى جماعة ذات نزعات متحررة تجديدية، تعنى أشد العناية بتدريس أصول الخطابة والبلاغة. ومن هنا نفهم سر ولع مونتسيكيو بالتاريخ. وقد حصل بعد دراساته الابتدائية والثانوية على ليسانس فى القانون من جامعة بوردو ثم ذهب إلى باريس ليمرن على مهنة المحاماة، وهناك اتصل بالأوساط والمنتديات العلمية وسيدات المجتمع الرفيع مثل مدام دى لامبير، ثم فنتيل والأب سان بيير وقرأ (رحلة شاردان فى بلاد الفرس) ثم (ألف ليلة وليلة) وهو الكتاب الذى ترجمه جالان.

وكان غرام مونتسيكيو فى الفترة السابقة على تأليف (الرسائل الفارسية) بالعلوم والرياضيات لا يعرف حدودا لاسيما بعد أن انضم لأكاديميتى بوردو عام ١٧١٦ حيث حصل على تقييد حرية الفكر والبحث وإبداء الرأى.

على أنه كان معجبا بالقرن السابع عشر بحسبانه قرن العلوم قبل أن يكون قرن الآداب، إذ كان يرى فيه قرن جاليليو وتورشلى وديكارت (العالم لا الفيلسوف) وباسكال (العالم لا الأديب) وهويجنز ونيوتن ولافرن كورنى وراسين وموليير. ولقد أفاد مونتسيكيو من دراسة العلوم والتجارب العلمية إذ ردت اليه ايمانه بالله بعد أن كان يعتقد أن الدين وهم وخيال فى خطاب صدر منه عام ١٧١٦ عن سياسة الرومان ازاء الدين، ويقول فى هذا المقام: (إن العجب يملأ الفيلسوف كما تملؤه عظمة الله، عندما يدرك كيف تعمل عضلة واحدة من العضلات) ثم يشير إلى القدرة الجبارة التى تنظم عمل الجسم وما به من شرايين وأوردة وأعصاب وغدد... فالدراسات التشريحية التى أجراها مونتسيكيو قد لعبت دورا -فيما يرى النقاد- فى تشكيل الفكر الدينى عند مونتسيكيو.

وفى عام ١٧٢٥ خطب وهو رئيس لبرلمان بوردو خطبة افتتاحية كان لها أثر كبير فى الأوساط القانونية والسياسية، إذ حمل على الاتجار بالمناصب القضائية وعلى جهل القضاة، وعدم نزاهتهم وطالب بسن قانون واضح عام لفرنسا يطبق على الناس جميعا بلا تفرقة حتى يطمئن المتقاضون. ذلك أن فرنسا فى تلك الفترة لم تكن يسودها قانون عام شامل بل كان القاضى فى كل منطقة يحكم حسب العادات والتقاليد فى شىء كبير من حرية التقدير مما أدى إلى فساد العدالة، كما كانت هذه العادات والأعراف مختلفة من مكان لآخر وترجع إلى أصول متباينة، ونقد مونتسيكيو فى خطبته بطء القضاء وتأخير البت فى القضايا (من حفيد إلى حفيد حتى يقضى على آخر فرد فى أسرة تعسة). وكان لهذه الآراء النقدية وأمثالها مما كانت تطفح به كلمات مونتسيكيو سواء فى خطبته البرلمانية أو فى أحكامه، أثر جبار فى توجيه أذهان العلماء والمفكرين إلى إصلاح القضاء الفرنسى، حتى إن برلمان بوردو مكث عدة سنوات يفتتح جلساته بقراءة خطبة الافتتاح التى ألقاها مونتسيكيو سنة ١٧٢٥ وكل ما تم من إصلاحات قضائية ومن صدور قانون نابليون الفرنسى بعد ثورة ١٧٨٩ كان من بين الأفكار الجديدة التى نادى بها مونتسيكيو.

ميرابو، أونريه

١٧٤٩-١٧٩١م
الخطيب والأديب والثائر الفرنسى

لقد ترك (ميرابو) اسما لامعا كالمجد الأسطورى، ولكن حظه كان أقل من نبوغه . هكذا قال عنه (بارتو) الوزير الفرنسى الشهير الذى يعتبر خير مؤرخ لميرابو.

والواقع أن هذه العبارة تلخص بدقة حياة هذا الخطيب العبقرى الذى عاصر الثورة الفرنسية فى مهدها، وقاد خطواتها الأولى بشجاعة وحكمة واعتدال.

وفى عهود الثورات الشعبية العارمة يكون للخطابة شأن خطير فى توجيه الحوادث. فالخطباء هم الذين يقودون الجماهير، ويثيرون حماستهم بكلماتهم النارية. وكل مطلع على تاريخ الثورة الفرنسية يعرف كيف سيطر الزعماء من خطباء الجماهير على مجرى الأمور، ثم أمسكوا بأيديهم زمام الحوادث، وقبضوا بعد ذلك على السلطة فى فرنسا زمنا، وكيف كانوا يوجهون الجماهير لأغراضهم فيلهبون حماسهم بالخطب المعسولة ويحشدونهم لتنفيذ مآربهم وإرهاب خصومهم. وكم شهدت شوارع باريس وحدائقها والجمعية الوطنية من أمثال ديمولان، ودانتون ومارا، وروبسبير يشبون بخطبهم نار الثورة ويذكون أوارها حتى اندلع لهيبها وكأنها الجحيم قد فتح أبوابه وقذف قذائفه..! ولقد دفع هؤلاء الخطباء المتطرفون الثورة فى طريق مظلم مخضب بالدماء، وارتكبوا أفظع الجرائم باسم الحرية، ونشروا على فرنسا ظلا كثيفا من الرعب والإرهاب ثم انتهى الأمر بمعظمهم إلى المقصلة فسقطت رؤوسهم تحت سكينها التى طالما تخضبت بدماء الأبرياء.

ولكن ميرابو لم تبتلعه الثورة المجنونة، بل إنه سحرها ولم يخضع لسحرها ولم يجن مع الشعب بل ظل عاقلا، وكان الوحيد بين زعماء الثورة الذى لم تسقط

رأسه تحت سكين المقصلة، بل ظلت مرتفعة فى خضم الحوادث، يحميها بسحره الخطابى وشجاعته وجرأة بيانه ضد كل هجوم، فلم تصل إليها يد حاقد حاسد، ولم تتناولها سكين الجلاد.

ولد (أونوريه جابرييل ريكيتى كونت دى ميرابو) فى ٩ مارس عام ١٧٤٩، وعندما بلغ الخامسة من عمره عهد به أبوه إلى السيد (بواسون) الذى أخذ يلقنه مبادئ التاريخ والفلسفة ويعلمه اللاتينية واليونانية، ثم أدخله مدرسة داخلية فى باريس حيث درس مختلف العلوم والفنون، ثم ألحقه بعد ذلك بسلاح الفرسان. وسافر (ميرابو) مع فرقته إلى بلدة (سانت) ولكنه فى عام واحد دخل السجن خمسة أشهر. ثم أصدر وزير الحربية أمرا بنفيه فى قلعة بإحدى الجزر، ولكنه استطاع قبل أن يخرج من المنفى أن يحصل على رتبة ملازم ثان فى الجيش المسافر لقمع الثورة فى جزيرة (كورسيكا). وهناك حارب بشجاعة وكتب يقول (إننى ولدت لأكون محاربا، فقد وهبتنى الطبيعة النظرة الفاحصة الخاطفة، وليس هناك كتاب فى فنون الحرب كتب بلغة حية أو ميتة لم يقع نظرى عليه..). ولكن الأقدار كانت تدخر لهذا المحارب الشاب حياة أخرى، فكانت تلك الحملة هى المعركة الوحيدة التى اشترك فيها ميرابو، ثم عاد إلى فرنسا ليعيش مع عمه الذى تنبأ له بمستقبل عظيم، وكان يقول عنه (سيكون هذا الفتى أهم مواطن فى أوربا، ومن المحتمل أن يصبح بابا أو وزيراً أو جنرالا أو مستشارا..!).

ثم سافر (ميرابو) إلى انجلترا، وهناك شهد كيف تسير الديمقراطية الناشئة وكيف يستطيع أن يظفر بالحكم أكثر الناس جرأة وبلاغة، وزار مجلس العموم، وسمع الخطباء، ورأى وزيرا فى الرابعة والعشرين من عمره يسيطر على أقدار بريطانيا العظمى فى ظل الديمقراطية. وعندما سمع (وليم بت) الصغير يخطب، أدرك مقدار القوة التى يمكن أن يثيرها اسم شهير إذا وهب الفصاحة والقدرة الخطابية.

لقد عاش (ميرابو) اثنين وأربعين عاما قضى معظمها بين نفى وسجن واغتراب، بسبب مغامرات الشباب، ولكنه كان حيث ذهب يدرس ويقرأ ويكتب، وساعده على ذلك ذكاء حاد، وذاكرة قوية جعلت أباه يقول عنه وهو فى السادسة من عمره (إنه كالرمل يبتلع كل شىء) وعندما بدأت أحداث الثورة كان فى الأربعين

من عمره، وقد استكمل عدته ليلعب دوره الكبير، ولكنه كان يحمل على كتفيه أخطاء شبابه ونزوات صباه. وكان هذا الماضى يعرقل خطاه، ويمنعه من إظهار قدراته كاملة، فكان يقول فى أسف حزين:

(أسفاه..! كم أساءت عثرات الشباب إلى المصلحة العامة، إذ حالت بينى وبين الكثير مما أصلح له. لو كانت لى السمعة الحسنة فكم من أقدار كنت سأضمها لبلادى، وكم من مجد كنت سأقرنه باسمى!)

اشتركت عناصر عديدة فى تكوين شخصية الخطيب العبقرى ميرابو.

وهبته الطبيعة جسما فريدا، فكان طويل القامة، عريض المنكبين، له رأس ضخم يغطيه شعر كثيف يصففه، وعينان تشعان بريقا خاطفا، إذا اعتلى المنبر طالعك منه وجه قبيح، سلط الزمن عليه الجدرى فى صباه فكساه طابع الجهامة، فكان يبدو بشعره الهائل كمعرفة الأسد، شيئا مخيفا لا يجرؤ أحد على مقاطعته. قال عنه أعضاء الجمعية (كان ميرابو وحشا هائجا مفترسا، له وجه النمر، لا تراه متكلما إلا ثائرا منفعلا). وكان هو يقول عن نفسه (إنهم لا يدركون ما لقبح وجهى من قوة..!).

أما صوته فكان هبة الطبيعة الكبرى للخطيب. صوت موسيقى ذو جرس ورنين، يعرف كيف ينوعه بمهارة، تسمعه تارة عذبا رقيقا ناعما، وتارة صاخبا هائجا كقصف الرعد، يقذف عباراته الغاضبة كالصواعق ترتج لها جنبات المجلس.

دخل (طبقات الأمة) فى سن الأربعين رجلا مكتمل النضج والتجربة، مزودا بذخيرة ضخمة من المعلومات، قد اختلط بالفلاحين فى مقاطعته ودرس أحوالهم وتعامل مع المرابين ورجال المال فعرف أسرارهم، وخاض غمار المحاكم فى قضاياه الخاصة فأدرك عيوب إجراءاتها، كما عرف أسرار السياسة ودسائس البلاط وخفايا القصور، وساعده على ذلك ذهن لماح، وذكاء خارق، وذاكرة واعية، وبديهة حاضره.

وكانت خطة وسياسة مرسومة يؤمن بأنها تحقق الحرية للشعب وتعصم فرنسا من الفوضى. كان يقف بين الملك والشعب ينصب بهما الميزان، ويمنع القوتين المتصارعتين من أن تشتط إحداهما أو تطغى على الأخرى.

وعندما لمع نجمه فى سماء الجمعية أحاطت به الأحقاد من كل جانب، وتربص .به خصوم أنكروا عليه كل فضيلة، وأطلقوا حوله الإشاعات والاتهامات، ولكنه لم يعبأ بهم، وظل فى مكانه شجاعا جريئا قويا.

وكانت رباطة جأشه على المنبر تثير الدهشة، إذ كانت له قدرة عجيبة على السيطرة على عواطفه فى أشد الأوقات وأحرجها، فكانت أمواج الحقد والغضب التى يثيرها أعداؤه تتحطم عند قدميه دون أن تثيره أو تحرك منه ساكنا.

ويقول (بارتو) إن (ميرابو) كان مزودا بما يمكن أن نسميه بالخيال التاريخى، وقد ساعده على ذلك اطلاعه الواسع على التاريخ، فكان بارعا فى بعث أحداث الماضى ليستشهد بها أو يدلل على صحة فكرته، فيلتقط الحادثة التاريخية ويلقى بها نابضة بالحياة فى خضم المناقشة.

ولقد طمع الملك لويس فى أن يجتذب (ميرابو) إلى صفه، وقابلته الملكة مارى انطوانيب، ودفع القصر عنه ديونه، وتراءى للناس فى صورة من باع نفسه للقصر، ولكن (ميرابو) لم يكن ليفرط فى عقيدته بمال فكانت آراؤه فى الجمعية الوطنية صادرة عن اقتناع وإيمان عميق بما يقول، فقد كان يتمنى أن يقوم فى فرنسا حكم ملكى ديمقراطى على غرار النظام الإنجليزى الذى شاهده عند زيارته لبريطانيا.

وقد شعرت الجمعية الوطنية بتقرب القصر إليه، ولكن أحدا من أعضائها لم يجرؤ على مواجهته بذلك، غير أنها أغلقت فى وجهه الطريق إلى الوزارة، فقررت عند وضع الدستور أنه لا يجوز أن يتولى الوزارة أحد من أعضائها.

ولقد حاول (ميرابو) عبثا أن يمنع وضع هذا النص فى الدستور حتى لا تحرم البلاد من الكفاءات التى تضمها الجمعية، وقال:

- إنكم تريدون إذن أن يتخذ الملك وزراءه من حاشيته وبطانته، بدلا من أن يختارهم من نواب الشعب الحائزين لثقته؟!

وقال ساخرا:

- يكفيكم أيها السادة أن تجعلوا قراركم هذا مقصورا على كونت ميرابو.

ومع ذلك فقد عرف الشعب له فضله وآمن بإخلاصه، فرفعه إلى أعلى مقام

لديه، فاختاره فى أواخر عام ١٧٩٠ رئيسا لنادى اليعقوبيين.

ولعل أروع وصف لميرابو الخطيب هو ما كتبه شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو، قال:

- (ميرابو يتكلم.. هذا هو الماء يجرى ويتدفق، هذا هو الموج يرغى ويزبد، بل تلك هى النار بالشرر. لا مائدة ولا أوراق، ولا محبرة ولا أقلام، ولكنه الرخام يهوى عليه بضرباته، ودرجات المنصة يهرول عليها جاريا المنصة..!؟ لا.. بل قفص من أقفاص الوحوش الضارية يروح فيه ويغدو، ويسير ويتحرك، ويقف ويلهث ويزأر. يشبك ذراعيه، ويضم قبضتيه يجمل الكلام بإشاراته الموقعة، ويضىء أفكاره بنظراته المعبرة. وجمهور حاشد يكره الخطيب، هم أعضاء الجمعية الوطنية، لكن يحيطهم جمهور آخر أعظم منهم يحبه، ذلك هو الشعب. ومن حوله عقول كبيرة، وأرواح عظيمة، وشهوات ومطامع وطبائع متباينة يعرفها ويضرب عليها فيخرج منها النغمة التى يريدها بيد ماهرة، وريشة قادرة. ومن فوقه قبة الصالة الكبرى ترتفع إليها عيناه كأنه يستنبط من سمائها وحى الفكرة، فتنزل الأفكار من تلك القبة العظمى فوق تلك الرأس العظيم. هذا هو ميرابو فى مكانه، بل تلك هى البذرة الصالحة فى أرضها.)

فى يناير ١٧٩١ انتخبت الجمعية الوطنية (ميرابو) رئيسا لها، وظل الخطيب العظيم يعتلى المنصة ويدلى برأيه فى الموضوعات التى تبحثها الجمعية. ولكن الجهد العنيف الذى بذله خلال عامين حافلين بالأحداث، والإرهاق المتصل الذى تعرض له خلال كفاحه، أنهك صحته، فسقط مريضا فى مارس من ذلك العام، ولم يلبث أن فارق الحياة فى الثانى من أبريل عام ١٧٩١ وفقدت الثورة رجلها الكبير الذى كان لها بمثابة صمام الأمن يفل من غربها ويطامن من غلوائها. وفقدت الملكية نصيرها العظيم الذى كان قادرا على إنقاذها.

وقد قيل عنه إنه قسم حياته شطرين، شطرا للهوى وشطرا للثورة، فكانت حياته ثورتين، ثورة للشباب، وثورة للحرية، فقضى حياته كلها ثائرا.

ميكافيللى

١٤٦٩-١٥٢٧م

فى طليعة المفكرين السياسيين التى شغلت أفكاره السياسية العالم بأسره

ميكافيللى فى طليعة المفكرين السياسيين، وقد شغلت أفكاره السياسية العالم منذ ظهورها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وحتى اليوم، وقد اختلفت الآراء فى تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها، فخصومه يرون أنه قد أساء الانتفاع بعبقريته وأن كتابه المشهور المسمى (بالأمير) من الكتب المخالفة للآداب المنابذة للدين التى يجب تجريمها وأحراقها وإراحة الناس من شر ما احتوت عليه، ويذهبون إلى أن الباعث الذى حداه على كتابته رغبته الملتوية فى تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة على الشعب وانتهاب ثورة الأغنياء، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة، آما أصدقاؤه والمعجبون له فيرون فيه الوطنى الذى حفلت نفسه بحب بلاده والذى تطلع إلى الوحدة الإيطالية قبل أن يولد متريني وغاريبالدى وكافور بقرون عدة.

ويعزى سبب هذا التناقض الواضح فى تقدير آراء ميكافيلى إلى أن حياته وتجاربه التى تأدت به إلى تكوين أفكاره واستنباط نظرياته لم تعرف المعرفة الكافية، وقد حال ذلك دون الفهم الصادق لآرائه ومراميه، والرجل الذى اقترن اسمه بالخيانة والغدر ونكث العهود كان فى واقع حياته موظفا فى حكومة مدينة فلورنسا المدينة الإيطالية الشهيرة، شديد التوفر على أداء واجبات وظيفته، ولم تشب سلوكه فى الاضطلاع بعمله شائبة، وكان وطنيا محبا لبلاده، وفيا لها، حريصا على مصلحتها، وقد ضحى فى بعض مواقفه بمصلحته الخاصة فى سبيل

آرائه ومعتقداته. فالتناقض بين حياته، وما اتسمت به أفكاره واضح لا خفاء به، ولكن معرفة طبيعة العصر الذى عاش فيه والتجارب التى مر بها تكشف لنا أسباب تكوين أفكاره، واستخلاص نظرياته.

فى عصر حافل بالاضطراب و الانقلابات والمفاجآت، ولد نيقولا ميكافيلى وقضى حياته. وقد نشأ فى أسرة شريفة تنتمى لحلف الجلف، وهو الحزب الذى كان يناصر البابا، ويعارض حزب الجيبلين الذى كان يناصر إمبراطور ألمانيا. وقد ولى القضاء فى فلورنسا، فى أجيال متعاقبة، كثيرون من رجال أسرته، وعمل حينا من الزمن أمينا على الأموال، ولم يكن ثريا ولكنه كذلك لم يكن فقيرا، وكان ولوعا بالدرس والمطالعة.

والمعلومات عن نشأة نيقولا ميكافيلى وطفولته ومطالع شبابه مطوية فى مدارج النسيان، ولم يبدأ فى دخول التاريخ إلا وهو فى السادسة بعد العشرين من عمره. وقد نشأ ميكافيلى فى إبان حكم لورنزو مديتشى، وكانت معاهد التعليم حينذاك كثيرة فى فلورنسا، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه عرف المؤلفين اليونانيين واللاتينيين فى شبابه، وقد وسع دائرة اطلاعه بعد ذلك بدراساته الخاصة، وإدامة التفكير والتأمل فى الحوادث التى تقع تحت بصره وسمعه، وبممارسته لشئون الحياة ومعرفته بالناس.

على أن ثقافته بوجه عام كانت محدودة إلى حد ما. وقد نفعه من بعض الوجوه، إذ مكنه من الاحتفاظ بأصالة تفكيره ونضارة أسلوبه، ولم يجعله يسقط تحت أعباء المعلومات المتكاثرة، وأثقال المعرفة الواسعة.. كما كان يحدث لكثيرين من معاصريه الذين أفقدهم الاستغراق فى الدرس والعكوف على الكتب القديمة.

وكانت الحوادث الجسيمة التى وقعت فى عصره. ومؤامرات الأمراء، وفضائح البابوية تجعله يخلو بالكتب وحدها، وتحفزه إلى النظر فى الحوادث التى تتوالى حوله سراعا.. ومما كان له أثر بالغ فى نفسه مجىء الفرنسيين إلى ايطاليا عام ١٤٩٤ وقد تلا ذلك سقوط أسرة المديتشى، وإعلان الجمهورية فى فلورنسا. وكان ميكافيلى بحكم اطلاعه على الأدب اللاتينى وتعلقه بذكريات عظمة روما القديمة، يمقت كل شىء له اتصال بالكهنوت .. ولذلك لم يعجبه أن يسيطر على جمهورية

فلورنسا راهب مثل سافونارولا، وكان هو مع خصوم الراهب المصلح العنيد، وقد أبدى فى بعض كتاباته بعد ذلك شيئا من الإعجاب بالراهب الشهيد.

ولما غلب الراهب على أمره، وتمكن أعداؤه من القضاء عليه، لم يأسف ميكافيلى على الاتجاه الذى سارت فيه الحوادث. واستتبع ذلك بضرورة الحال تغييرا فى المناصب العامة ووظائف الحكومة. وكان ميكافيلى حينذاك قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، ولم يكن قد التحق بمهنة بعد، ولم يكن له دخل خاص، فأخذ يعمل للحصول على وظيفة تدر عليه شيئا من المال، ولم يجد صعوبة فى الظفر بالوظيفة المطلوبة.. فقد كانت جمهورية فلورنسا قد تعودت أن تستخدم الكُتاب، وتدفع الأجور المناسبة، وكانت تتخذ أكثرهم سكرتيرين، وقد اختير ميكافيلى فى عام ١٤٨٩ لشغل وظيفة سكرتير للجمهورية، وظل يعمل فى وظيفته حتى عام ١٥١٢ حينما سقطت الجمهورية.

وقد أخلص فى خدمة الجمهورية، وكانت أعمال وظيفته تستغرق أكثر وقته من الصباح حتى المساء. وبعض الرسائل الرسمية التى كان يحررها لا تزال محفوظة فى أرشيف فلورنسا.

وكان منشرح الصدر للحياة، حسن العلاقة بزملائه فى الإدارة التى كان يعمل بها، وقد أرسلته حكومته مرتين إلى بلاط إمبراطور ألمانيا، وأربع مرات إلى البلاط الفرنسى، وأوفد مرتين إلى روما، وعهد إليه بمهمات فى الجمهوريات والولايات الإيطالية المختلفة، وقد مكنته هذه الأسفار والاتصالات بالرجال الذين يتولون المناصب العليا، ويقبضون على أزمة الأمور، من أن يدرس المشكلات السياسية دراسة علمية، ويتعرف على أسباب تخلف بلاده من الناحية السياسية.

وفى عام ١٥١٢ تمكنت أسرة المديتشى من العودة إلى حكم فلورنسا، وكان هذا الانقلاب سببا فى إقالة ميكافيللى من خدمة الحكومة الفلورنسية. ولما كان يعد من أنصار الحكومة الجمهورية، لذلك صدر قرار بنفيه فى حدود الجمهورية، وإنذاره بالعقوبة الشديدة إذا حاول الخروج عن تلك الحدود.

وفى تلك الفترة أقبل على القراءة والتأليف، فكتب روايته التمثلية (مندرا جورا)

التى أعجب بها ليون، وكان هذا الإجاب من دواعى صفحه عنه. وعلى الرغم من نجاح هذه الرواية فإنه رأى أن يشغل وقته ويقصره على أشياء أجل منها شأنا وأقرب إلى طبيعة تفكيره.. وفى هذه العزلة التى أرغم عليها بدأ يكتب كتاب (الأمير).

وعند ميكافيللى أن العمل على تحرير بلاده وتحقيق استقلالها يبرر أشياء كثيرة. ومن أقواله فى ذلك: (حينما تكون سلامة البلاد متوقفة على القرار الذى يتخذ، فإنه يجب ألا يكون هناك مكان لاعتبارات التفريق بين العدالة وغير العدالة، والإنسانية والقسوة، والمجد والعار. ومتى أبعدنا جميع الاعتبارات الأخرى تصبح المسألة المفردة الباقية هى: ما الطريق الذى يمكن أن ننقذ بسلوكه حياة البلاد وحريتها؟).

كان تحقيق الوحدة الإيطالية فى رأى ميكافيلى من المطالب العظيمة التى تستباح من أجلها كل وسيلة، وكانت العقبات القائمة فى سبيل تلك الوحدة كثيرة.

وكانت الأسر الأرستقراطية تحسن الحكم فى بعض الولايات، وتسىء الحكم فى ولايات أخرى.. ففى ميلانو أزدهر الفن فى عهد أسرة سفورزا، وفى رومانى ساءت حالة المدن التى حكمها الأمراء. ونرى من ذلك أن تحقيق الوحدة الإيطالية كانت أمنية محفوفة بالصعاب، ومن أجل بلوغ تلك الأمنية كتب ميكافيلى كتاب (الأمير) وأهداه إلى لورنزو مديتشى حاكم فلورنسا. وكان يبدو لميكافيلى أن لورنزو هو أجدر الأمراء الإيطاليين بتحقيق الوحدة الإيطالية بعد شيزارى بورجيا.

ولابد عند النظر فى هذا الكتاب، الذى لا يزال يثير بمحتوياته النقاش بين المفكرين والمفسرين من الرجوع إلى طبيعة العصر الذى ألفه فيه ميكافيلى.

وقد كان ميكافيلى رجلا عمليا يريد فى جد وحماسة النهوض بإيطاليا، ولذا رأى أن يقدم للأمير الذى يتولى القيام بهذه المهمة النصائح العملية التى تكفل له تحقيقها.

وكتاب (الأمير) الذى أثار غضب الكثيرين، لم يكد يلتفت اليه أحد حين ظهوره. ولما كان الكتاب مهدى إلى لورنزو مديتشى، فقد وافق البابا على طبعه. ولم يستنزل الفاتيكان الصواعق على الكتاب إلا بعد انفصال انجلترا عن

الكاثوليكية، فقد أطلق الكاردينال بولو على هنرى ملك إنجلترا اسم ميكافيلى، مبالغة فى الحملة عليه وتشويهه.

وميكافيللى لا يتطوع بتقديم النصائح السيئة بدافع من سوء الطبع أو الاستهانة بالأخلاق، وإنما بحافز من الضرورة، لأنه يقول: (على الأمير ألا يترك عمل الخير إذ استطاع أن يتجنب ذلك). وهناك بعض المذاهب الفكرية التى تفرق بين آداب الفرد وآداب الدولة. فالفرد عليه أن يضحى بكل شىء من أجل المحافظة على الفضيلة، أما الدولة فإنها تضحى بكل شىء -حتى بالفضيلة نفسها- من أجل المحافظة على كيانها.. فحينما يتعرض المجتمع للأخطار الشديدة، فإنه يجب إنقاذه بأى ثمن، كما أن إنقاذ السفينة المشرفة على الغرق قد يستلزم إلقاء ما بها من الخيرات فى البحر، والتخلص من بعض ركابها إذا لم يكن هناك مندوحة عن ذلك. وقديما قال الحكماء إن الغرض الأسمى والقانون الأعلى، هو سلامة المجتمع.



نيوتن، إسحق

١٦٤٣-١٧٢٧م

أعظم عباقرة العالم

يعتبر إسحق نيوتن من أبرز شخصيات التاريخ ومن أعظم العلماء الذين قدموا للإنسان خدمات تجل عن الوصف، ولم تعرف البشرية قط عالما على ذلك القدر من الأهمية والعطاء. فإنه أكثر العلماء تأثيرا فى هذا الكون. إن سيرة إسحق يصعب إيجازها فى سطور، فقد كان بحرا عميقا من العسير سبر أغواره، ويكفى لكى نتلمس عبقرية ذلك العالم الفذ أن ننصت إلى ما قاله عنه العالم الأشهر أينشتين: (إن كل ما عرف من العلوم الطبيعية النظرية مدين لنيوتن... وليس غير امتداد طبيعى لآرائه..).

إسحق نيوتن كبير عباقرة الإنجليز، لا بل أعظم عباقرة العالم على مر الأجيال.. ولد ضعيفا هزيلا، تضطرب أنفاسه فى صدره، فى يوم ٢٥ ديسمبر ١٦٤٣م.. وما أن وقعت عينا القابلة عليه حتى قالت: (يا إلهى إنه من أصغر المواليد، أستطيع، بدون مبالغة، أن أضعه فى كوز ماء) وقدرت له حياة يومه أو أقل من ذلك، ولكن القدر شاء لهذا الطفل أن يبقى (٨٥ عاما) طواها فى تؤدة وأناة.. نشر خلالها أعلام المعرفة.. وكلل لمفرق العلم بغار النصر.. نصر العلم على أسرار الطبيعة.

ودرج إسحق نيوتن على بساط الأيام يطويها من خلفه حتى أن بلغ الرابعة فأودعته أمه حجر جدته ، وتخلت عنه لتعيش فى كنف زوجها الجديد، لقد مات زوجها الأول (والد إسحق نيوتن). ورأت الجدة مخايل الذكاء على حفيدها، فهو الطفل الذى لا يفتأ فى كل يوم يبتدع لها بآلاته الصغيرة.. المطرقة والمنشار.. ألوانا وأشكالا كثيرة مستطرفة لا تدرك هى كيف كد الصبى عقله فأوجدها.

ويكبر إسحق نيوتن مع الأيام.. ويزداد ولوعه بابتكار الآلات الصغيرة والدقيقة

كبرا. حتى أنه استطاع صنع ساعة يدار عقرباها بنقط من الماء تنحدر عليهما من وعاء مستقل كان يملؤه كل صباح. وكان إبان طفولته شغوفا بالعلم، حريصا عليه، إلا أنه حينما ذهب إلى المدرسة فى الثانية عشرة من عمره لم يبد نجابة بادئ الأمر، وظل طالبا عاديا إلى أن استفز أهميته العقلية أحد الطلبة من زملائه الأشداء، فقد سدد إليه هذا الأخير ضربة بقبضة يده هوت به إلى الأرض فأخذ الطلبة يتضاحكون عليه، ويتندرون بضعفه ووهنه. وشحذ الصبى عقله.. وانتصر على خصمه انتصارا مبرما.. لا فى حلبة المصارعة، بل فى ميدان العلم.. وبرز أسمه منذ ذلك الوقت بين أقرانه وأصبح التلميذ النابغة فى مدرسته بدون منازع!

لكن صوت الأرض يدوى فى أذنيه.. تدعوه إليها ليقيم أمرها، ويحرث ويعزق أرضها، ويحمل على كتفيه تبعات أبيه الراحل، فهجر الدراسة ولبى لها النداء، ولكنه لم يدم على حالته طويلا. فقد حرمت عليه أمه مطالعة أى كتاب، وطلبت منه الانصراف بكل طاقته إلى الأرض. إن فتى مثل إسحق نيوتن لا يستطيع على هذا الأمر صبرا. فأخذ يسترق ساعات الزمن فى خلسة.. بعيدا عن أعين الرقباء وينكب على كتيب يتدارسه أو مسألة يعالج فك مغاليقها. وقبض عليه خاله فى أحد الأيام وهو ملق برأسه إلى ورقة يحبرها بالأرقام والأعداد، فوضع الخال يده عليها، وقال: إنك يا إسحق أحد أثنين لا ثالث لهما عندى، فإما أن تكون مجنونا أو عبقريا فذا، والله وحده أعلم بحقيقة الأمر، ومن ثم خلى بينه وبين دراسته. فالتحق بكلية الأقانيم الثلاثة فى كمبريدج عام ١٦٦٠، وبز إخوانه فى الدرس والتحصيل وخاصة فى الرياضيات حتى تخرج من الكلية. وفى عام ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضيات (إسحاق بارو)، وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه، وصف فيها نيوتن بأنه (عبقرى لا نظير له)، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما.

لقد كان نيوتن راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس والثلاثين بكمبريدج. وقد وضع (قواعد للتفلسف) - أعنى للطريقة والبحث العلميين. ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى (مقاله) كمبادئ قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال. وحين قال نيوتن (أنا لا أخترع فروضا) كان يعنى أنه لا يقدم

نظريات حول أى شىء يتجاوز ملاحظة الظواهر، فهو إذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية، بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها. ولم يزعم أنه يتجنب الفروض بإعتبارها مفاتيح للتجارب، فإن مختبره على العكس خصص لإختبار مئات الأفكار والإمكانات، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت. كذلك لم يرفض الإستدلال، إنما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضى إلى المبادئ. وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة، ويستنبط متضمناتها الرياضية، ويختبر هذه بالحسابات والتجربة. وكتب يقول: (يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا -البحث عن ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة، ثم إيضاح الظواهر الأخرى من هذه القوى). لقد كان مزيجا من الرياضيات والخيال، ولن يستطيع فهمه إلا من يملكها جميعا.

أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن، شهدت بداية جهوده فى البصريات، لكنه كذلك يقول عن ذكرياته أن شهر مايو (كان مدخلى إلى الطريقة العكسية للفروق المستمرة، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد الجاذبية إلى مدار القمر.. بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره، وقوة الجاذبية على سطح الأرض، ووجدتهما متفقين تماما تقريبا... فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى).

وفى العام نفسه وصل الطاعون إلى كمبردج، فعاد نيوتن إلى موطنه (وولزثورب) طالبا للسلامة. وهنا نلتقى بقصة لطيفة. كتب فولتير فى كتابه (فلسفة نيوتن).

(ذات يوم من أيام عام ١٦٦٦، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط إذا مد يكون قريبا جدا من مركز الأرض).

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة. وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية، والفكرة

السائدة اليوم عن القصة أنها أسطورة. وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير، وهى أن غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية، فأجاب (بإدمان التفكير فيها) ومما لا ريب فيه أنه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى إلى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس. ولكنه لم يستطع إلى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية، فنحاها جانبا. ولم ينشر عنها طوال الأعوام الثمانية عشر التالية.

وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر إلا بعد موته بثمانية وأربعين عاما يقول:

(إن القوة المنبعثة من القمر تصل إلى الأرض، وبالمثل فإن القوة المغناطيسية للأرض تعم منطقة القمر، وكلتاهما تتجاوب وتتألف بتأثيرهما المشترك، حسب تناسب الحركات وتطابقها، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها).



هاردى، توماس

١٨٤٠ - ١٩٢٨ م

من كبار الكتاب المبدعين فى الأدب الإنجليزى

ينسب إلى أرنولد بنيت أنه قال ذات مرة لهيو والبول: (إن مصيرك يتحدد يا عزيزى منذ ولادتك)، وهذه الحقيقة العالمية التى قيلت فى معرض الفكاهة تتمثل كل التمثل فى حياة توماس هاردى.

ولد توماس هاردى سنة ١٨٤٠ فى هيرلوكهامبتن فى مقاطعة ستتفورد. كان والده بناء ورث عن جده حب الموسيقى والاهتمام بالطقوس الدينية.

وقد ورث هاردى حب الموسيقى عن والده فكان يطرب لبعض الألحان حتى البكاء فيلجأ إلى الرقص ليخفى دموع الطرب هذه، وكثيرا ما يحلو أسلوبه فى قصصه عندما يتكلم عن رقصة ما.

عاش هاردى طفولته عاديا، وأقام فى دورست إلى أن بلغ ٢٢ سنة. التحق أولا بمدرسة القرية، ثم بمدارس فى دوشستر، وفى السادسة عشرة من عمره بدأ دراسة هندسة البناء على يد متخصصين فى تجميل الكنائس. درس هاردى اللاتينية والفرنسية واليونانية، وقد أحب من الأدب أولا الشعر.

وفى الثانية والعشرين من عمره ذهب إلى لندن ليتابع مهنته كمهندس معمارى، وتابع دراسته فى جد واهتمام غير أنه لم يترك كتابة الشعر بالرغم من فشل كل محاولاته لنشر إنتاجه، وأما من ناحية القصة فقد بذل مجهودا كبيرا فى هذا النوع من الأدب لأنه اكتشف فيه وسيلة يعبر بها عن نفسه، وكان عليه أن يثبت جدارة الشاعر فى كتابة القصة النثرية، غير أنه كان يجد فى هذا النوع من

الأدب مشقة وصعوبة.

ولعله من الأهمية بمكان أن نتذكر كيف أن هاردى لمدة أكثر من عشرين عاما، وهى الفترة التى أنتج فيها معظم قصصه، كان يكتب ليكسب قوت يومه، وهذا معناه أنه بالرغم من نمو قواه الأدبية وصدور كتاباته عن ضرورة داخلية فى نفسه، فإننا نجد بعض إنتاجه فى مستوى أقل من مستواه الأدبى الذى عرف به.

وكانت أولى محاولاته القصصية: (الرجل الفقير والسيدة).

وكانت المحاولة الثانية لهاردى فى عالم القصة هى Desepwrate Re- medie وهى محاولة فذة فى عالم القصة، وهى عبارة عن مجموعة مثيرة من الأحداث، ولكنها لا تمثل أدب هاردى.

وكان الكتاب التالى لهارى هو Under the Greenwood treeالذى بدأ به أدب توماس هاردى بالصورة المعروفة، والذى قال عنه النقاد أنه لا يكتبه إلا هاردى، وإن كان هاردى حتى ذلك الوقت لم تتبلور فلسفته بعد... فلم يرد فى ذكر هذه القصة ذكر القدر الصاغر أو الحوادث التراجيدية أو الحظوظ الثقيلة التى تنطلق بالدموع والمعاناة وبالرغم من أن هذا الكتاب لا يعد أحد كتبه الشهيرة إلا أنه يعتبر كسبا للأدب الرفيع.

كان الكتاب الرابع لهاردى: (زوج من العيون الزرق) الذى صدر عام ١٨٧٣ وقوبل بحماس عن الكتب السابقة.

ويتميز توماس هاردى بقوة الملاحظة والحساسية والتمعن فى الفكر، إلى جانب كونه إنسانا بسيطا للغاية يتصف بالروح الفردية القروية التى لم تؤثر المدنية فى سماحتها. وكما عرف هاردى الحياة فى طفولته واستوعبها بملاحظاته وحساسيته كانت هذه الصفات هى المادة الخام التى استخدمها فى فنه. ولعل أسعد لحظات هاردى كانت حينما يلتصق بتلك الحياة التى اعتادها وإن كان فى أدبه يوسع نطاقها ويضيف إليها فكره، وكانت هذه الإضافات ترد إلى ذهنه وهو فى صباه ثم فى شبابه وذلك عن طريق قراءته للأدب الإنجليزى والكلاسيكى والتاريخ، وبدراسته المتعمقة فى فن المعمار، واهتمامه بالرسم والتمثيل واتصاله

بالمفكرين أمثال داروين وسبنسر.

ثم بدأ هاردى بعد ذلك يشعر بالضيق تجاه التجديدات التى طرأت على الحياة ليستبدل بها العادات القروية والآراء الاجتماعية والتى هى تختلف عن القوانين العتيقة المتبعة. وكان يرى نمو الشر وازدياده نتيجة للظلم السائد فى المجتمع بجانب الشر الناتج عن أشياء خارج قدرة الإنسان وتوارثه جيلا بعد جيل. وبالرغم من تفكيره العميق والسديد فإنه بقى فى بساطة القروى وسماحته، فكان قرويا متخما بالمعرفة التى ضخمت المشكلات وقوت أثر العاطفة، فبدت هذه المشكلات فى كتاباته مستعصية الحل ولا يمكن احتمالها، ويزيد من حدة هذه المشكلات وجود الأفراد الذين يعانون منها والذين لهم مميزات خاصة مثل العواطف البدائية، والضمائر الحية وبالتالى نجدهم يبدون أناسا فى وضع تراجيدى كوميدى صورهم الخيال.

ونرى هاردى فى بعض كتبه البسيطة التى لم يستغل خياله فيها لأقصى مدى يلجأ لمجرد السرد فى القصة، إلا أن الحبكة القصصية تكون ممتازة والحوادث تهيىء الفرص لعرض الشخصيات التى لا توجد بينها وبين صورة من صور الحياة علاقة.

والحب عند هاردى هو العاطفة الرئيسية فى الحياة، والوفاء فى الحب هو أحسن الصفات الحميدة.

وبالرغم مما نراه فى قصة هاردى The wood Landers من وجود بعض الصور البهيجة، إلا أن ما تحويه من بهجة ينبئ عما يتلو من معاناة وفزع. كذلك قصته (البوق الكبير) وإن كانت من ناحية قصة حب كتبت بروح كوميدية خفيفة، إلا أنها تصور تعليق القرية على الحياة فى اليوم السابق للمعركة.

القصص الخمس الكبرى التى بقيت من أعمال هاردى العظيمة كلها تراجيدى على المستوى الكبير، وهى جميعا كغيرها من سابقاتها قصص حب، غير أن شخوصها كانوا من رجال ونساء، الذين يقاسون من هذه العاطفة فى قمتها بالرغم من أن لهم شخصياتهم الواضحة، فإنهم يمثلون الجنس البشرى عامة.

وفى رواية (جود الغامض) نرى صنفا من الرجال يصل فى مداركه إلى حد عدم الاحتمال. فجود حتى فى صباه ينبئ بأنه سيكون رجلا خلق ليتألم ويعانى.

وهذه القصص الخمس يجب ألا تؤخذ كمعيار لفلسفة هاردى. ولكنها تعطى الشكل للحياة الإنسانية كما يراها هاردى المفكر، هذا الشكل يناسب الطبيعة البشرية، وهو ينتج عن فلسفة ما تفرضها على هاردى قراءاته عن الخبرات البشرية. وينتج عن ذلك نظرية اجتماعية تتناسب فيها الحقائق، كما يراها هاردى وهى تتسلل على أن تشمل العالم كله.



هارفى، وليم

١٥٧٨ - ١٦٥٧ م

مكتشف الدورة الدموية

تمر بعض الأحداث الكبرى وقلما تسترعى الانتباه ومثال ذلك اكتشاف الدورة الدموية.. ففى عام ١٦٢٨ وفى معرض الكتاب السنوى فى مدينة فرانكفورت على نهر المين فى ألمانيا نشر كتاب صغير فى عالم التشريح قلب الكثير من الأفكار القديمة عن جسم الإنسان رأسا على عقب ووضع أسس علم الطب الحديث... وكان عنوان الكتاب (بحث تشريحى فى حركة القلب والدم) لمؤلفه الانجليزى وليم هارفى طبيب الملك وأستاذ التشريح فى كلية الطب بلندن.. وقد وضع المؤلف كتابه باللغة اللاتينية وشرح فى صفحاته الاثنتين والسبعين لأول مرة طريقة توزيع الدم على الجسم بواسطة القلب.. ولكن قراء الكتاب كانوا قلة.. ومرت سنوات طويلة قبل أن يتبين الناس أنهم مدينون بالكثير لوليم هارفى.

ولد وليم هارفى فى أبريل من عام ١٥٧٨ فى مدينة فولكستون من أعمال مقاطعة (كنت) لأبوين موسرين وكان هو أكبر أخوته وكان أبوه توماس هارفى عمدة فولكستون وقد علم أبناءه السبعة تعليما راقيا لرغبته فى أن ينالوا نصيبا من النجاح فى حياتهم أكثر مما ناله هو وقد أصبح معظمهم تجارا أثرياء فى مدينة لندن وقد غدا أحدهم عضوا فى البرلمان.

وبعد بضع سنوات قضاها وليم فى المرحلة الأولى من التعليم فى كنتربرى التحق بكلية كايوس بجامعة كمبردج حيث حصل على درجته العلمية عام ١٥٩٧ وكان أغلبية طلاب الكلية يدرسون الطب، وجلى أن هارفى الشاب كان قد اختار لنفسه مهنة المستقبل. وكانت إيطاليا فى تلك الأيام موطنا لأئمة العلماء فى العالم

يفد إليها الشباب من ربوع أوربا ويحتشدون فى قاعات المحاضرات بجامعتها وقد وصل وليم هارفى إلى مدينة بادوا فى عام ١٥٩٩ حيث كانت توجد مدرسة من أعظم مدارس العالم شهرة فى الطب حيث كان هارفى الشاب يقضى الساعات الكثيرة مصغيا إلى أستاذه فابريكيوس الأكوابندتتى Fabricius of Aquapendente أعظم علماء التشريح فى زمانه وكان فابريكيوس يعرف عن الجسم الإنسانى ما لم يعرف أحد غيره فى ذلك الوقت وله يدين هارفى إلى حد كبير بما وصل إليه من علم ولكنه لم يلبث أن بز أستاذه وتفوق عليه فيما بعد، ولابد أن زملاء هارفى فى الدراسة كانوا يكنون له الحب لأنهم اختاروه ممثلا للطلاب الإنجليز فى مجلس الجامعة ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٦٠١ وعاد إلى إنجلترا.

استقر هارفى بعد ذلك فى لندن حيث تزوج وبدأ يزاول عمله بوصفه طبيبا ولم يمض وقت طويل حتى انتخب زميلا فى الكلية الملكية للأطباء.

ثم عين فى عام ١٦٠٩ طبيبا فى مستشفى القديس بارثلميو وهى وظيفة كانت لا تمنح إلا للأطباء الممتازين إذ كان الملك هو الذى يقوم بتعيينهم. وتبين من الوصية التى كانت تتلى على مسامع الطبيب الحديث الاختيار ما كان ينتظره المجتمع من الأطباء فى ذلك الزمن تقول الوصية: (أيها الطبيب لقد وقع عليك الاختيار لتكون طبيبا للفقراء فى هذا المستشفى وحزت القبول لتؤدى الواجب التالى... عليك أن تأتى إلى المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل طول السنة وعليك أكثر من ذلك أن تطلب إلى الموظف المقيم فى المستشفى أو رئيسة الممرضات أو البواب كلما دعت الحالة أن يستدعوا للحضور أمامك أكبر عدد ممكن من الفقراء النازلين بهذا المستشفى والذين هم فى حاجة إلى نصح الطبيب ومشورته.

ضع نصب عينيك أنك لن تقرر لهم شيئا على سبيل المجاملة أو بقصد الربح المالى أوالكسب ولكنك ستقرر ما تراه من أسباب الخير والشفاء لهم مصحوبا بنصائحك الغالية هذا ما يجب أن تتعهد به وتكون مسئولا عنه أمام الله).

وفى أثناء ذلك كان هارفى يزداد شهرة يوما بعد يوم فكان طبيبا لرجال السياسة والنبلاء ومن بينهم الوزير اللورد سير فرنسيس باكون حامل أختام الملك، كما كان هارفى كثير التردد على القصر حتى عين فى عام ١٦١٨ طبيبا خاصا للملك

جيمس الأول ومنذ ذلك الحين غدا أثرى الأطباء وأعظمهم شهرة فى إنجلترا.

ومع ذلك فلم يكن هارفى يبحث قط عن ثروة أو مجد ولم يحاول أن يجعل همه جمع المال ولا كان يهتم به إذا حصل عليه.

وأخيرا وفى عام ١٦٢٨ أعلن هارفى اكتشافه للعالم بعد سنوات طويلة من الدراسة المتصلة التى لا تعرف السأم والتجارب الدقيقة ودعم اكتشافه بمجموعة كبيرة من الأدلة المبنية على أساس علمى دقيق ولم يقتنع بإجراء التجارب على القلب والدور الذى يقوم به فى الجسم بل إنه بين وظيفة القلب فيما يقرب من أربعين نوعا من الحيوانات منها الديدان والحشرات والسمك الصدفى. وكان فى صبره ودأبه لا يعرف الكلل ولم يجرؤ عدو له على اتهامه بتجاهل الحقائق. وقد أدرك هارفى أن أساطين الأطباء والجراحين فى عصره سيهزءون به فلم يحدث كتابه فى أول الأمر أى اهتمام. ثم ما لبث أن تعرض للهجوم من كل الجهات وقال الكثيرون إنه يحتوى على مغالطات ووقف فى وجهه كل الأطباء وأعرض عنه مرضاه وأصبح نصيبه فى النجاح ضئيلا ولكن عندما أدرك الناس صحة تعاليم هارفى كان ذلك إيذانا ببداية عصر جديد فى عالم الطب.

وكان المعروف قبل عصر هارفى أن القلب عبارة عن عضلة جوفاء تنقسم إلى أربعة تجاويف يسمى اثنان منها بالأذينين ويسمى الآخران البطينين فمن أعلى الأذين الأيسر والأذين الأيمن ومن أسفل البطين الأيسر والبطين الأيمن وكان المعروف كذلك أن هناك نوعين من الأوعية الدموية وهى الشرايين والأوردة ويعرف الشريان الرئيسى فى الجسم بالأورطة وهو يتصل بالبطين الأيسر ويتصل الوريد الرئيسى بالأذين اليمن، كما يتصل البطين الأيمن بالرئتين عن طريق الشريان المعروف باسم الشريان الرئوى.

وأما الوريد الرئوى فيصل الرئتين بالأذين الأيسر.

كل هذه الحقائق كانت مألوفة لدى رجال الطب فى نهاية القرن السادس عشر، إلا أن أحدا لم يستطع أن يشرح العمل الذى يقوم به القلب والأوعية الدموية شرحا مقنعا.

وقد بذل آخرون جهدا عظيما فى التفكير دون أن يعبأوا كثيرا بالحقائق الواضحة وكان لابد أن يأخذ هارفى على عاتقه أن يتأمل ويشاهد بنفسه ما يحدث عندما يدق القلب وأخيرا وصل إلى الحقيقة بالملاحظة الدائبة والتجارب الطويلة وكتب يقول: (إنى أقر بألا أتعلم التشريح أو أعلمه من الكتب أو من كلام الفلاسفة ولكن بواسطة التشريح ذاته ومن صنع الطبيعة).

ولقد كان فابريكوس معلم هارفى فى إيطاليا أول من اكتشف صمامات الأوردة.

وقد لاحظ فابريكوس أن هذه الصمامات تتجه دائما نحو القلب ولكن هارفى هو الذى لاحظ أن عمل هذه الصمامات هو دفع الدم فى اتجاه القلب وليس خارجا عنه كما لاحظ أنه كلما دق القلب اتسعت الشرايين ونبضت وسمحت بتدفق الدم خارجة عن القلب وليس فى اتجاهه وتبين له أن القلب يصب الدم فى الأورطة ويسرى منه إلى جميع الشرايين فى الجسم.

إلا أن فكرة توزيع الدم كانت من الجدة وعدم السماع بها من قبل، بحيث خشى هارفى أن يعارضه جميع الناس ولكنه وقد أيدت له ملاحظاته صواب رأيه فلم يحفل بما يحتمل أن يقوله الناس عنه وكتب يقول: (قضى الأمر وإنى أعتز بالحقيقة وأجلها..).

وعندما أعلن هارفى اكتشافه للعالم هجره كثير من مرضاه وربما كان ذلك عن اعتقاد منهم بأن الرجل فقد صوابه. وفى ذلك الوقت كان يكتسب عطف بلاط الملك السيىء الحظ شارل الأول وتظهر آية ذلك العطف فى سجلات مستشفى القديس بارثلميو ففى أوائل عام ١٦٣٠ صدرت النشرة التالية: (أعلن اليوم الدكتور هارفى طبيب هذا المستشفى أن صاحب الجلالة الملك المعظم قد أصدر إليه أمره بمرافقة سمو الأمير دوق لنوكس الجديد فى أسفاره فيما وراء البحار ولذلك فهو يرغب فى أن يسمح البلاط لادموند سميث الدكتور فى الطبيعة أن ينوب عنه أثناء تغيبه فى القيام بعمله طبيبا لهذا المستشفى).

وقد ترك هارفى إنجلترا بعد ذلك بشهور قليلة وقضى الشتاء التالى فى باريس.

وما كاد هارفى يعود إلى إنجلترا حتى عينه الملك طبيبا دائما له ولم يلبث أن أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة طبيب الملك الأول.

وأحس هارفى بأعباء السنين وما عاناه من داء فى مفاصله وتعذر عليه أن يواصل أداء رسالته الطبية بسبب الحرب وفى عام ١٦٤٦ اعتزل الخدمة وعاد إلى حياته الخاصة ولم يعد يراه أحدفى البلاط إلا أنه استمر فى إلقاء محاضراته ومواصلة أبحاثه فى علم التشريح فى كلية الأطباء ومع أنه انتخب مديرا للكلية، فقد رفض المنصب متعللا بكبر سنه وضعفه ومع ذلك فإنه لم يتوقف عن دراسة وتشريح الإنسان والحيوان حتى أواخر أيامه.. وما الكثير من معلوماتنا فى العصر الحاضر إلا ثمرة السنوات الطويلة التى قضاها فى الدراسة والتجربة. وفى يونيو عام ١٦٥٧م مات هارفى بعد أن بلغ الثمانين من عمره ودفن فى همبستيد بمقاطعة اسكس حيث لا يزال قبره قائما.



هيجو، فيكتور

١٨٠٢ - ١٨٨٥ م

أمير الأدب الفرنسى فى القرن الـ ١٩

فيكتور هيجو هو الشاعر والروائى والفيلسوف والمفكر الفرنسى، الذى أثرى الأدب العالمى عامة، والأدب الفرنسى فى فترة ازدهاره، بنتاجه الفنى الرفيع، وخلف لنا أدبا وفكراً خصباً خالداً يتسم بالنزعة الإنسانية الواضحة، وبالاهتمام بقضايا البشر فجاءت كتاباته نابضة بمكنون الإنسان، وله بصماته على الأدب الفرنسى.

لقد أتى هذا الأديب فى أدبه بالأعاجيب، فهو مستطيع أن يصور أمام عينيك أغرب ما يستطيع خيال أن يتصوره؛ وهو مستطيع أن يَنفُضَ عن الماضى غبار القِدم فإذا هو أمامك فى جلاله وجماله؛ وهو مستطيع أن تتغنى بألوان الجمال التى تبلغ من الدقة حدا يتعذر على غيره أن يدركه فضلا عن أن يعبر عنه، وهو مستطيع أن ينشد على قيثارته أناشيد الحب رقيقة حينا عنيفة حينا؛ وهو مستطيع أن يؤجج إنشاءه ناراً، وهو مستطيع أن يخفض فى إنشائه الصوت ليكون صوتا حزينا؛ فلو قلت إن (هيجو) كان أعظم من أنشد الشعر الوجدانى فى فرنسا لما عدوت الحق، لأنه ربما كان أعظم من أنشد هذا الضرب من الشعر فى آداب العالم كله؛ ولعله استمد هذه القوة الجبارة فى غنائه من امتزاج نفسه بما حوله، فهو بشعره هذا يعبر عن وجدانه ثم يعبر فى الوقت نفسه عن أنغام العالم بأسره، وقد تردد صداها بين جنبيه؛ فكأنما القصيدة من قصائده يغنيها الكون كله لا شاعر واحد؛ ذلك لأن (هيجو) لم يعتزل تيار الحياة، بل امتزج به امتزاجا جعل الحياة جزءًا منه.

ولو زعم (هيجو) أنه الأديب الفنان وكفى، لما وجد إنساناً واحداً ينكر عليه ما

زعم؛ لكن الغرور يخدع حتى (هيجو)! إذ ظن أديبنا العبقرى أنه حين يكتب، فهو الفيلسوف وهو الأخلاقى وهو المتنبئ وهو المفكر وهو المؤرخ، ومن حقك أن تشك فى أن الشاعر قد صدق حين زعم لنفسه هذا كله.

لم يبلغ (هيجو) ذروة كماله الفنى طفرة واحدة، إنما تدرج إليها فى تطور امتد به أمداً طويلا؛ فهو بعد أن أصدر ديوان (الأناشيد)، عقب عليه بديوان آخر (أناشيد وحكايات منظومة) وكانت لديه إذ ذاك أربعة وعشرون عاما؛ وهو فى هذين الديوانين على شىء من الانسياق لقواعد الماضى وأفكاره، ولكنك تلمس روح الأصالة فيهما تجاهد فى مغالبة هذه الحوائل جهاداً دل على وجودها لكنه لم ينته بنصرها نصراً حاسماً؛ ثم أخرج قصيدتين نثريتين كانتا بمثابة الإعلان عن اتجاهه الصريح نحو الأدب الابتداعى الذى لا تعرقله حوائل الماضى،ولما كان فى عامه السابع والعشرين أصدر ديوان (مشرقيات) الذى جاءت قصائده بمثابة الدراسة فى الفن الشعرى الجديد كيف تصاغ مادته؛ وبعدئذ اتجه إلى المسرح،

كانت عبقرية (هيجو)، بل عبقرية أدباء الابتداع قاطبة، فى الشعر الوجدانى؛ فالشعر الوجدانى الذى تنحصر كل مهمته فى التعبير عن عواطف الأديب نفسه، عواطفه الفردة التى يتميز بها عن سائر أهل الأرض جميعاً، الشعر الوجدانى الذى تنحصر مهمته فى هذه الفردية هو صميم الحركة الابتداعية فى الأدب.

نعود إذن إلى شعره الخالص؛ فقد صدر له بعد ديوان (المشرقيات) ديوان آخر عنوانه (أوراق الخريف) الذى جاء آية فى الشعر الوجدانى، فهاهنا بث الشاعر ذكرياته وهواتف قلبه وأمنيته فى حياة هادئة، وهاهنا أبدى الشاعر عطفه على كل عنصر من عناصر الطبيعة مؤداه الهدوء والقرار، كما أبدى عطفه على الإنسانية كلها وإيمانه بالله وأمله فى الخلود، ثم أصدر(أغانى الشفق) وفيه ارتياب وهم وقلق ، وبعد ذلك ظهرت له (أصوات باطنة) استأنف فيه شعائر ولائه وتمجيده لنابليون من جهة ورجاءه فى أن يقوى سلطان الشعب من جهة أخرى؛ وهنا أدار (هيجو) أذنيه إلى الطبيعة، فصدر له ديوان (البقرة) الذى رمز به إلى أمومة الطبيعة للكائنات الحية جميعا ورعايتها لهم، وهو يمضى بعدئذ فى ديوان (أضواء وظلال) لينبئنا أن الطبيعة ليست أما رءوما وكفى، بل هى كذلك مُعلمة للنفس

مهذبة للقلب توحى له بما توحى؛ وكان الشاعر قد بلغ عندئذ عامه الأربعين تقريباً، ثم صمتت قيثارة شعره الوجدانى نحو ثلاثة عشر عاما خاض خلالها بحر السياسة المتلاطم الأمواج، وفى هذه الفترة لاقى ما لاقى من أحزان وكوارث، فابنته وزوجها لقيا حتفهما مُغرقَين؛ وهو أصابه النفى، ومن أروع ما أنشأه فى نهاية هذه الفترة قصيدة (ألوان العقاب).

ثم عادت قيثارته إلى الغناء، فأخرج (التأملات) فى عدة أجزاء ضَمَّنَ قصائدها الأولى ذكريات ماضيه، ثم عقَبَ على هذه بأحزانه على ابنته، ثم ختمها بمجموعة رائعة امتزج فيها الظل والنور، فهو مشرق مرة كئيب النفس مرة؛ وبعدئذ اضطلع الشاعر بإنتاج فنى عظيم تطلب منه كل ما وهبه الله من نبوغ فى الشعر الوجدانى، إذ أراد أن يعرض صوراً متفرقة من تاريخ الإنسانية كلها، فصدر الجزء الأول من (أسطورة القرون) وعمره سبعة وخمسون عاما؛ وهو فى هذه الآية المجيدة الخالدة ينشر أمام ناظريك حياة الإنسانية منذ ظهرت حواء إلى أن ينفخ فى الصور يوم الحساب؛ فتنشرح صدراً لما تراه هنا وتضيق صدراً لما تراه هناك؛ لأن الإنسانية فى تاريخها تبشر بالأمل مرة وتبعث على اليأس أخرى؛ ثم ما هو إلا أن أخرج الأديب للناس كتابا آخر، ليكون للديمقراطية دعامة أخرى، ذلك هو كتاب (البؤساء) وكان له من العمر إذ ذاك ستون عاما، والكتاب أقرب إلى أن يكون ملحمة نثرية منه إلى أن يكون قصة بمعنى الكلمة الدقيق، فالبطل طريد المجتمع لكنه يحمل بين جنبيه نفساً أبية، وكل صفحة من الكتاب تستوقف منك النظر والسمع والحواس جميعاً، فالكاتب يؤرخ لك مرة ويقص عليك مرة ويصف ثالثة ويغنى رابعة ويتفلسف خامسة، وهكذا دواليك تتوالى عليك الصور شتى كأنك فى حلم يثير فيك الفزع.

جاوز الشاعر الستين، فالسبعين، فالثمانين، وآثاره تترى تباعا. ونحن إذ نقدم لك (هيجو) فى صفحات نحس كأنما نحاول أن نصبَّ البحر الخضم فى كوب. وحسبنا أن نقول إن دولة الشعر تفخر أن كان بين أعلامها (فكتور هيجو).

هوثورن، ناثانيان

١٨٠٤ - ١٨٦٤ م
إمام الروائيين الأمريكيين
فى القرن ال ١٩

كانت حياة هوثورن رمزا شعريا للخلق، كما كانت مخلوقات هوثورن رمزا شعريا للحياة. ولد لقوم يجوبون البحر، فجلس منعزلا على الشاطىء، يسجل فى هدوء ذلك الصراع الأبدى بين الرمل وموج الشاطىء. ولقد يبدو هذا العزوف فى نظر أصحاب الشخصيات النشيطة إضاعة للوقت، ونكوصا عن مواجهة المشكلات الخطيرة التى تواجه الكبار فى العالم. على أن (عبث الأطفال هذا - كما يقول هوثورن - يغدو رائعا ما دام على هذا النطاق الواسع).

وبينما كان الآخرون يحاولون فى استماتة أن ينقشوا أسماءهم فى الرمال، كان هوثورن يرقب تدافع الأمواج لتعفى على آثارهم.

وقد صرف عنايته إلى مراقبة هذه الآثار، وذلك العفاء على المحاولات البشرية، وإلى أن يقدم للتاريخ خصائص تلك الحروف التى نقشت فى الرمل قبيل أن تعفو عليها الأمواه.

وكان شديد العناية بنوع خاص بآثار حركة المتطهرين المتداعية فى أيامه فأدرك كنهها وحفظها من النسيان قبيل أن يحل محلها التفاؤل الطروب الذى ساد أيام ما بعد الحرب الأهلية.

وحينما قرر هوثورن أن يكرس نفسه للأدب، كان يعلم أنه قد قضى عليه بحياة الفقر والألم والإهمال. ذلك أن الأدب كان فى أمريكا سلعة غير رائجة، بل لقد كان قرض الشعر أيام المتطهرين يعد خطيئة.

وكانت أقدم المسرحيات الأمريكية، تتفادى رقابة المتطهرين بأن يطلق عليها تجملا (محاضرات خلقية). على أن الرقابة كانت قد خفت أيام هوثورن إلى حد ما، وإن بقيت مهنة التأليف من المهن غير المأمونة، غير أن هوثورن كان على استعداد لأن يقوم بالمجازفة. فإنه من قوم مغامرين، فلقد كان آل هوثورن يقودون السفن منذ أجيال خلت. وكان دم البحر يجرى فى عروقهم وكان الإقدام على المخاطر المجهولة طبيعة ثانية فى هذه الأسرة.

وفضلا عن ذلك فإن التعليم الأول لهوثورن قد جعله غير صالح لحياة الأعمال أو المهن. فلقد ربى بحيث صار (رجلا انطوائيا) إذا استخدمنا تعبير علماء النفس المحدثين. فكان يعيش فى عالم تفكيره الخاص.

وقد ولد فى بداية القرن (١٨٠٤) وفقد أباه البحار وهو لم يزل طفلا. فاعتكفت أمه مع ناثانيال وابنتيها الصغيرتين فى منزل منعزل فى (سالم)، وهناك اعتزلوا العالم، وكأنما قد أغلقت عليهم سفينة فى وسط الأطلنطى. بل كان كل فرد منهم يحيا منعزلا عن باقى أفراد أسرته.

لقد قضت تلك الراهبة المتطهرة العجيبة على أطفالها بأن يحيوا فى هذا الدير الصغير العجيب. فكان كل من الأبناء يأكل ويلعب ويقرأ ويتفكر فى حجرة خاصة، بحيث اضطر ناثانيال إلى أن يخلق عالما من الأشخاص الخياليين ليكونوا فى صحبته.

وكان بالإضافة إلى ذلك قد أصيب فى باكر عمره إصابة بالغة فى ساقه، فأقعدته هذه الإصابة سنوات كثيرة عن مشاركة الأطفال الآخرين فى اللعب. وإذ كان حساسا بطبيعته. متأثرا بتزمت أمه، فقد كان يقضى النهار بطوله داخل المنزل، فإذا كان الغسق أو الظلام خرج يتجول فى الحقول، أو على شاطئ البحر. كان من أثر هذا المسلك أنه عرف الطبيعة فى أقتم أمزجتها. فكان طول حياته لا يُرى إلا وقد اكتسى حلة غبشاء أو سوداء. وإننا لنجد هذا المزاج واضحا فى كل أسلوبه الأدبى، فكانت لغته ذات حلاوة حزينة وكأنها العالم يغنى لينام.

التحق فى عامه السابع عشر بكلية بودوان.

ولقد قاسى فى حياته الدراسية ذلك الشقاء الذى يلقاه عادة عبقرى أعمق من معلميه فكرا، فحصل على درجات صغيرة. فإذا تخرج عاد الى (سالم) وأقام يحلم بالحياة.

وكان يكتب القصص ويقرؤها لنفسه ثم يلقى بها فى النار. لقد عجز عن أن يكون ممثلا فى مسرحية الحياة، ولم يقنع بأن يظل أحد النظارة، فقرر أن يكون معقبا شديد الملاحظة. وكان يقرأ إذا كان الصبح، ويكتب إذا كان العصر، ويمشى مسافات طويلة إذا كان الليل. وكان ينظر إلى الأرض المظلمة ويعمرها بالأشكال والعواصف التى تنتمى إلى عصور ماضية وإلى جيله أيضا.

وإننا لنجد هذا الازدواج فى عبقريته، وذلك الصراع الدائم بين تقواه ورحمته، حتى فى أقدم ما نشر من كتبه وهو مجموعة القصص المسماة (قصص تروى مرتين).

ومن أشد هذه القصص دلالة عليه (عمود مايو بالجبل المرح).

إنه الآن فى الثامنة والثلاثين من عمره، شخصية بارعة الجمال، عديمة الجدوى إلى درجة تبعث إلى الرثاء. لقد كان له جسم هرقل ورأس أبولو ولكن عينيه كانتا أشبه بعينى طفل مفزع، أو غريب ذى جنة أتى من أرض غريبة. فكان يجفل من صحبة الناس. وكان أكثر ألفه بأشخاص قصصه منه بسكان (سالم). فاتخذ لنفسه مقعدا متوحدا على المرتفعات، وشرع يحول الحياة إلى قصص. ولكنها قصص أكثر حيوية من الحياة ذاتها.

لقد كان مشغوفا بفنه بحيث أحب أن يعيش دون أن يزعجه العالم أى إزعاج أو يتطفل عليه أى طفل. وكان إذا اقتحم أحد عزلته التأمليه امتعض (فى مقت باطنى، وفرار لا يلوى على شىء من مقدم هذا الشخص. كان ذاتا أخرى قد أفزعتنى، فهرعت أجرى على الصخور،واعتصمت بمنحنى جدول ينتمى إلى بحق الساعات التى خلوت فيها إليه).

وظل أربعة أعوام لا يكاد يستطيع المضى فى عمله معتمدا على ما تدره عليه القصص من ربح. ثم واتاه الحظ. فلقد استعاد الديمقراطيون رئاسة الجمهورية، فعين هوثورن مشرفا على جمرك (سالم) وكان راتبه ١٢٠٠دولار فى السنة. وكان

هذا مبلغا خرافيا فى ضخامته بالقياس إلى (سالم) عام ١٨٤٦.

ويمكن إيجاز باقى حياة هوثورن فى كلمات قليلة، حين انتخب (بيرس) لرئاسة الجمهورية، عين القصاص الذى كان رفيقه فى الدرس قنصلا بليفربول وكان هوثورن يحيا خارج البلاد حياة العزلة عن المجتمع التى كان يحياها فى وطنه. فألف بين نفسه وبين تاريخ انجلترا، بدلا من أن يؤلف بين نفسه وبين شعبها. فلما انتهت فترة اشتغاله فى القنصلية سافر إلى إيطاليا، وهناك أيضا عاش فى الماضى أكثر مما عاش فى الحاضر. ثم عاد إلى أمريكا وإلى المكان الذى كان يألفه أشد الألفة،وهو الحدود بين الماضى والحاضر، كما تتمثل فى حياة الأقاليم.

وقد بلغ من انغماسه فى مشكلات مسرحياته الإقليمية أنه لم يكد يحس بالمأساة القومية التى كانت تمثل أمام عينيه. فلما نشبت الحرب الأهلية، هز كتفه استنكارا وقال (إنى أوافق على الحرب، لكن لا أدرى ماذا نحارب من أجله).

على أنه كان يخوض غمار حرب - حرب الروح البشرية لتخلص من أسر البيئة. وقد صور هذه الحرب فى قصة (The House of Seven Gables) وفيها تنسج خطايا الآباء شبكة تحول بين أبنائهم وبين السعادة. وعاد إلى هذه الحرب فى (The Marble Faun) وفيها يبعث إلى الحياة أحد مخلوقات الماضى نصف الآدمية، وسط المشكلات الإنسانية الخطيرة فى الزمن الحاضر. وهو موضوع هوثورن الأثير،موضوع الخطيئة والعذاب. وفى نهاية حياته تماما كان فى شغل بحرب أخرى لم تنته بعد، هى حرب الروح ضد أحكام القدر فى (قصة دوليفر).

وقد حاول فى هذا الكتاب أن يهتدى إلى سر الحياة، وهزيمة الموت، والركب الإنسانى العالمى الذى يمضى إلى الخلود.

وكان من سخريات القدر أن هذا القصاص الفليسوف قد مات فى نفس الوقت الذى كان يبحث فيه عن الحياة الخالدة (مايو سنة ١٨٦٤). وانقضى بموته عصر عقلى من التاريخ الأمريكى.

هومبولت

١٧٦٩ - ١٨٥٩ م

أشهر رجل فى أوربا

كان الكسندر دى هومبلت واحدا من رجال العلوم المشاهير فى عصره، ذلك العصر الهام فى تاريخ أوربا، والذى تميز بثورة عام ١٧٨٩، وبالحروب التى خاضها نابليون، إن عمله الواسع، وشغفه بالرحلات، قد حملاه على القيام باكتشافات كان لها دوى كبير فى أرجاء العالم وبصفة خاصة فى فرنسا وألمانيا. وتبرر الدراسات التى قام بها أن يطلق اسمه على التيار البارد الذى يهب على سواحل شيلى وبيرو، وأن يكون تعريفه للعالم الطبيعى تمثيلا لمجموع المعارف العلمية فى ذلك العصر، وأن يضفى طابعه على علم المناخ وعلم المحيطات.

ولد البارون هومبولت عام ١٧٦٩ وهو الابن الثانى لأسرة تنتمى إلى الطبقة الارستقراطية فى مدينة برلين. وقد تلقى تعليما راقيا، والتحق بنجاح بالجامعات الألمانية الشهيرة، ومنها جامعة جوتنجن، وفى عام ١٧٨٨ - ولم يكن قد أكمل سنَى حياته العشرين - أنهى دراسته فى العلوم الاقتصادية، وتعرف على المستكشف (جوهان راينولد فورستر) وحدثه هذا عن رحلات جيمس كوك فى (أوقيانوسبا) التى اشترك فيها ويحتفظ لها بذكريات كثيرة، وأيقظت قصص الرحالة المثيرة فى نفس الشاب شغفا بالاستكشاف الذى مارسه طوال حياته.

وقام هومبولت بأول رحلة له عام ١٧٩٠ فى رفقة فورستر. وقد صعد نهر الراين، وقصد على التوالى إلى كل من هولندا وبلجيكا وإنجلترا وفرنسا، ولدى عودته سجل نفسه فى أكاديمية مناجم فرايبرج فى ساكس، فأبدى فيها تفوقا واضحا، ولم يأت عام ١٧٩٣ حتى عهد إليه بتولى إدارة مناجم فرانكوينا. ومع ذلك

استمر الشاب يحلم بالرحلات التى سوف تتيح له دراسة الطبيعة فى البلاد المختلفة. وعندما توفيت والدته عام ١٧٩٦ ورث عنها ثروة طائلة، خصصها بأكملها لإنجاز رحلاته، وبعد ذلك بعامين زار جبال الألب الشرقية، وفى ذلك الوقت شعر بما يجتذبه بصفة خاصة إلى القارة الأمريكية. وخلال زيارة ثانية له لباريس عام ١٧٩٨ اتصل بعالم النبات الفرنسى (ايميه بونبلان) الذى يهوى الرحلات مثله، فراح الاثنان يضعان معا مشروعات للقيام برحلات كبرى.

وخلال خمس سنوات قطع العالمان الطبيعيان ٦٠،٠٠٠ كيلو متر، فقد خططا فى البداية لاستكشاف القارة الأفريقية، ميدان البحث الهام الذى يتيح لهما عدم الابتعاد كثيرا عن أوربا. ومن سوء الحظ، أنهما علما فى مارسيليا أن الباخرة التى سيستقلانها قد تعرضت لبعض التلفيات والعطب، مما يحول دون ركوبهما البحر، وباتفاق بينهما قررا الذهاب إلى اسبانيا، وخلال شتاء ١٧٩٩، درس بونبلان فيها النباتات المحلية، على حين انصرف هو إلى الأبحاث الجيولوجية. ولم تمنعهما هذه الأعمال من السعى لدى الملك شارل الرابع بهدف الحصول على تصريح للذهاب إلى المستعمرات الاسبانية. وقالا إنهما يريدان أن يجمعا منها بعض النباتات والحيوانات وأن يدرسا الحرارة والكهرباء والمغناطيسية الجوية، وأن يحددا هناك خطوط الطول والعرض ويقيسا ارتفاع الجبال.

ووافقت الإدارة الاسبانية على هذه المشروعات واهتمت بها، وقدمت للشابين العالمين معونتها بغير تحفظ. وكان من شأن التوصيات العديدة التى حصلا عليها لدى الدوائر العلمية والدبلوماسية أن سهلت إلى حد بعيد سير حملتهما .ففى كل عاصمة نزلا بها، كان الرحالان يستقبلان فيها بالفعل بترحاب شديد لدى الطبقة الأرستقراطية فيها.

وفى يوم ٥ يونيو ١٧٩٩، استقل هومبولت وبونبلان الباخرة (بيزارو) وخلال توقفها للمرة الأولى فى جزر كناريا. راح الشاب الألمانى يدرس الصخور البركانية فى الأرخبيل، وبعد مرور شهر فى عبور المحيط، إذا بهما يصلان إلى مرسى كومانا فى فنزويلا. وقام هومبولت بجولة فى المنطقة وحدد خطوط الطول ودرس المعادن، على حين انصرف زميله الفرنسى إلى دراسة النبات المحلى، وأنبت بعض

الأعشاب. ومع ذلك فإن رحلتهما هذه لم تكن سوى فى بدايتها، فمن ريو أبورى صعدا الأورينوكو بطول ٢٠٠٠ متر. وفى عالم ملىء بالنمور الأمريكية والبعوض، انطلقا ناحية الأمازون مجتازين الجنادل الضخمة، وفى هذه المغامرة، فقد بونبلان صحته، وفقد هومبولت شعر رأسه!

وفى عام ١٨٠٤ ولدى عودتهما إلى أوربا، سرعان ما أصبح هومبولت منارة فى الحياة الاجتماعية فى ألمانيا وفرنسا. فما كاد يعود إلى باريس حتى بدأ يعد العدة لإصدار موسوعة ضخمة عن رحلته فى أمريكا، واستطاع أن يجمع حوله عددا من المعاونين الألمان والفرنسين. وبعد رحلة عملية قصيرة مع الكيماوى الفرنسى جاى لوساك فى إيطاليا، وإقامة سنتين ونصف فى برلين، قرر هومبولت الاستقرار فى باريس حيث يستطيع أن يجد حاجته من دور النشر والفنانين القادرين على معاونته فى إصدار موسوعته وشجعه على ذلك الاستقبال الحافل الذى استقبلته به المجامع العلمية والصالونات الأدبية فى باريس. ففى العام الأول بعد عودته كان قد ألقى عددا من المحاضرات وأقام معرضا لمجموعته العلمية التى أحضرها من أمريكا فى أربعين صندوقا، كما أصدر الجزء الأول من موسوعته بالاشتراك مع بونبلان بعنوان (جغرافية النباتات).

وقد اقتضى إصدار تقارير هذه الرحلة أن يقضى هومبولت حوالى عشرين عاما متواصلة فى باريس اشترك فيها مع بونتبلاند فى كتابة مرجع يقع فى ثلاثين مجلدا بالفرنسية أسماه (رحلة إلى المناطق المعتدلة فى القارة الجديدة) يضم أبحاثهما فى مختلف فروع العلوم الطبيعية وغيرها من الدراسات الإنسانية والعامة. وفى خلال هذه الفترة رفض هومبولت عام ١٨١٠ تعيينه وزيرا للتعليم فى الدولة الروسية، وتسابقت الأكاديميات العلمية فى مختلف الدول على منحه عضويتها وصار - كما تقول دائرة المعارف البريطانية - أشهر رجل فى أوربا بعد نابليون بونابرت..!!

وفى عام ١٨٢٧ أمر فردريك غليوم الثالث ملك بروسيا بقطع أجازة هومبولت الدراسية التى كان يقضيها فى فرنسا، وأصر على أن يتولى رئاسة لجنة لتشجيع العلماء والفنانين. وكان من شأن هذا النشاط الجديد أن بقى فى برلين حتى عام ١٨٢٩ وهو التاريخ الذى كلفه فيه القيصر نيقولا الأول القيام برحلة إلى آسيا

الوسطى. وكان هومبولت فى ذلك الوقت فى الستين من عمره، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقطع ٤٠٠٠ كيلو متر فى ستة أشهر،فاجتاز جبال الأورال ووصل إلى توبولسك، ومن هناك إلى دزونجاريا على الحدود مع سيبيريا.

وعلى المستوى العلمى تعتبر النتائج التى أسفرت عنها هذه الرحلة أقل أهمية من نتائج الرحلة الأمريكية. ومع ذلك فإن المعلومات التى جمعها سوف تتيح له أن يصيغ كتابا بعنوان: (آسيا الوسطى، أبحاث مقارنة عن سلاسل الجبال والمناخ) وفضلا عن ذلك فإن أبحاثه عن الطبقات الجيولوجية للأورال سوف تتيح استغلال مناجم الماس فى هذه المناطق. وفى عودته إلى برلين أنشأ هومبولت دراسة عامة فى الجامعة، وكذلك حلقة للمحاضرات، بمثابة مقدمة لكتابه الكبير عن العالم (عرض للوصف الطبيعى للعالم). وقد ظل يؤلفه لمدة ثلاثة عشر عاما، من عام ١٨٤٥، ورغم أن هذه الدراسة جاءت بمفهوم القرن الثامن عشر، ألا أنها فى تناولها لظواهر العالم،لازالت تعتبر مرجعا أساسيا فى مجال الجغرافية الطبيعية.

وقد توفى هومبولت فى ٦ مايو ١٨٥٩ فى برلين وكان فى السادسة والثمانين من عمره. وقد احتوت مؤلفاته الكاملة عن علوم الأرض والعلوم الطبيعية، مثل السلالات والتاريخ، وكل تفصيل فى هذا العالم العريض، هو ثمرة شجاعة وذكاء وفكر رجل عالمى.

تراثه الفكرى والعلمى

نشر هومبولت حوالى ٢٦ مؤلفا، بعضها أبحاث علمية متخصصة وبعضها دراسات مطولة. ومن هذه الأبحاث التى نشر معظمها فى المجلات العلمية المعروفة فى ذلك الوقت

وفيما يلى عرض لأهم كتبه:

١- رحلة فى المناطق الاستوائية للقارة الجديدة قام بها فيما بين ١٧٩٩، ١٨٠٤

٢- دراسات عن الحالة السياسية فى مملكة اسبانيا الجديدة.

٣- دراسات عن الحالة السياسية فى جزيرة كوبا.

٤- دراسة نقدية عن التطور التاريخى للمعرفة الجغرافية للعالم الجديد.

٥- آسيا الوسطى كتقرير علمى عن رحلته فى روسيا.

هوميروس

٤٨٤-٤٢٦ ق. م
صاحب أعظم وأشهر الملاحم البطولية فى التاريخ

لم يحتل شاعر ولا علم من أعلام الأدب فى جميع العصور التاريخية مكانة فى حياة شعبه كمكانة هوميروس. فهو الرمز الأعلى للوطنية، والمصور الموثوق للتاريخ اليونانى القديم، وهو أحب الشعراء إلى قلوب اليونان، وأعظم من يستشهدون بأشعاره. وقد أخبر (أفلاطون) أن من بين الإغريق من يعتقدون اعتقادا راسخا أن هوميروس: (يستحق أن ينظر إليه كمعلم فى مجال إدارة الشئون الإنسانية وتهذيبها، وأن على المرء أن ينسق حياته كلها مترسما خطى هذا الشاعر). كما أن لأشعاره آثارا بالغة فى الأدب والثقافة والتربية، حتى أصبح ينظر إليها على أنها أساس للأخلاق، ومعين للعلم والمعرفة، واكتساب للبلاغة، ومقياس للنقد الأدبى، فقد عنى هوميروس بتهذيب أساليبه، وتنقيح فنونه حتى بلغ بشعره أرقى شأن أمكن بلوغه فى تلك العصور. وتمثل ذلك بجلاء فى ملحمتيه الخالدتين (الإلياذة) و (الأوديسا) اللتين حصل بهما على لقب (صاحب الملاحم البطولية فى التاريخ) وهما قصتان شعريتان طويلتان احتلتا مقاما مرموقا فى الآداب العالمية.

ولو أردنا أن نجيب على سؤال (من هو هوميروس؟) ما استطعنا أن نجيب بأكثر من أن هوميروس هو (الإلياذة)!!

فما زالت حياة هوميروس أسطورة كلما حاول العلماء فهمها تاهوا فى تفاصيلها، وكلما أرادوا دراستها تشعبت أبحاثهم، وتعددت آراؤهم، ولم يتفقوا على شىء. ومع انهم كتبوا عن شاعر الإلياذة من المؤلفات مالم يكتبوه عن أديب آخر

فإن أبحاثهم عن حياته ونشأته ما زالت مملوءة بالفروض والاحتمالات.

فأين ولد هوميروس؟ ومتى؟ ومن أى سلالة انحدر؟ هل هو سليل الآلهة؟ ابن بوسيدون رب البحار؟ أم أبوللون، إله الشعر والغناء؟ وهل كانت أمه ربة ربات الشعر أم حورية من حوريات الماء أم امرأة كسائر الأمهات؟ وهل كان ضريرا لا يبصر؟ او كان مبصرا فى أوائل أيامه ثم فقد بصره؟ او كان ضعيف البصر طول حياته؟ وأين قضى أيامه وكيف؟ وهل فضل منطقة فى بلاد اليونان وأقام بها أم طاف فى أرجائها وقصد كثيرا من مدنها ثم عاد إلى مدينة أزمير (سمورنا) ونظم الإلياذة والأوديسا وبعض القصائد الهزلية مثل (الغبى المغرور) و (حرب الضفادع) و (حرب النيران)؟

وبأى أرض مات؟ هل مات بجزيرة ايوس أم فى مكان غيرها؟

هذه أسئلة لم نعرف لها جوابا صحيحا لأن هوميروس فى أشعاره لزم الصمت ولم يذكر عن نفسه شيئا، ولم يحدثنا عن نشأته كما فعل غيره من شعراء زمانه، فأخذ العلماء ينسجون حوله الروايات ويحيكون القصص وكثرت هذه وتلك، واختلفت اختلافا شديدا فيما تضمنته من سير وأنباء، ولكن مهما تضاربت آراء النقاد القدماء، فإننا نستطيع أن نستخلص منها شيئا عن حياة هوميرمس ونشأته.

هذه أهم الحقائق التى يمكن أن نستنتجها من المعلومات التى أجمعوا عليها.

يبدو أن هوميروس ولد من أبوين مغمورين فى إحدى المدن الأيونية بآسيا الصغرى، ثم أظهر فى صباه ميلا لسماع القصائد وحفظ الأناشيد، وفى سن الشباب بدأ فلم ينل إعجاب سامعيه الذين أعرضوا عنه ولم يشجعوه،فذاق مرارة الفقر. وعندما اتقدت قريحته، ونبغ فى إنشاد الشعر، ذاع صيته وتسابق الأثرياء إلى دعوته للإقامة فى قصورهم والتغنى بأسلافهم، تنافست المدن فى إجلاله وتكريمه لما فى أشعاره من تمجيد لأبطالها وإشادة بماضيها. وهكذا أتيحت له الفرصة لزيارة كثير من البلدان، ودراسة معتقداتها والوقوف على أحوالها، ومعرفة عادات أهلها، فكانت مصدرا للمعلومات التى تفيض بها قصائده.

ولعل ضخامة إنتاجه وطول ملامحه يحملنا على الاعتقاد بأنه عاش زمنا

طويلا ومات فى شيخوخته بجزيرة أيوس التى أجمعت الروايات على أنها كانت تفتخر بوجود قبره فيها.

أما عن عصره،فقد ذهب القدماء فيه ثلاثة مذاهب، فقال هيكاتيوس، أول مؤرخى اليونان، بأن هوميروس عاصر الحرب الطروادية التى وصف حوادثها أى أنه ازدهر فى منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد. ولكن هيرودوت خالفه فى ذلك، وأكد أن شاعر الإلياذة ظهر قبله بما لا يزيد عن أربعة قرون أى فى منتصف القرن التاسع ق. م، ثم جاء السفسطائى المشهور ثيوبومبوس (القرن الرابع ق. م) وجعله معاصرا للشاعر الهجائى أرخيلوخوس الذى ذاعت شهرته فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وإزاء هذا الاختلاف كان من الطبيعى أن ينقسم المحدثون على أنفسهم وأن يعتنق كل منهم رأيا من الآراء الثلاثة، ويعمل على تأييده فى ضوء الاكتشافات الحديثة.

لكن آخر الأبحاث وأدقها أيدت رأى هيرودوت. فلغة هوميروس هى لغة القرنين التاسع والثامن ق. م وليست لغة العصر الموكينى التى كانت ضاربة فى القدم، وكانت تحتوى كلمات عتيقة وألفاظا نادرة، وعبارات غير مألوفة، ولا هى لغة الشعر الغنائى التى كانت تفيض حيوية وتمتلئ حركة لتوافق الألحان الموسيقية، وتعبر عن مختلف العواطف الجياشة والانفعالات القوية.

عاش هوميروس إذن فى أواخر القرن التاسع ق. م بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائى بقرون، فاعتمد فى وصفه لحوادث هذه المعركة على الروايات التى سمعها، والآثار التى شاهدها فى ربوع اليونان، ثم وصف هذه الأحداث فى لوحات تصور المجتمع الذى عاش فيه، والحضارات التى عاصرها. فسجل لليونان حياتهم فيما بين القرن الثانى عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد. وعرضها فى قالب قصصى وأسلوب روائى يجمع بين الحقيقة والخيال.



هيجل

١٧٧٠ - ١٨٣١ م

صاحب الاتجاه المثالى للتاريخ

كان الفيلسوف الألمانى جورج ويلهلم هيجل من المفكرين البارزين ومن أجَلِّ الفلاسفة الألمان شأنا، وأبعدهم تأثيرا، ويضعه البعض فى مستوى أرسطو وأفلاطون لقدرته الفائقة على تنسيق البناء الفلسفى، وعمق تفكيره، واتساع نطاق بحوثه، وشمول نظراته، وأصالة آرائه، وقليل من الفلاسفة استغرق نضجهم وقتا أطول مما استغرق نضج هيجل، ولكن قليلا منهم كذلك من تناول نواحى المعرفة المختلفة بمثل قدرته، وآراؤه فى الفلسفة والفن والسياسة والتاريخ لا تزال من المراجع المأثورة.

ولد هيجل فى شتوتجارت عاصمة ولاية ورتمبرج فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ قبل ميلاد صديقه وضريبه فى الفلسفة الألمانية شلنج بخمس سنوات، وبعد ميلاد الشاعر شيلر باحدى عشرة سنة، وكلاهما مثله من ورتمبرج.

وفى السابعة أرسل هيجل إلى المدرسة الإعدادية (الجمنازيم) فى بلده، وعرف من أول أمره بأنه طالب مثابر على دروسه وحسن الاستعداد لتلقى شتى أنواع المعرفة، ولكن دون أن يظهر استعدادا خاصا من ناحية من النواحى، وظهر من باكورة أيامه ميله الطبيعى إلى التنظيم والتنسيق، وكان (الطالب المجد الذى يحصل على الجوائز)، وفى الرابعة عشرة من عمره بدأ يحتفظ بكراسة يدون فيها يومياته، وكان يسجل بها تقدمه فى الدراسة وما يعن له من ملاحظات فى أثناء مطالعاته، ويدرب نفسه فيها على الكتابة اللاتينية، ويثبت بعض آراء أساتذته، وكان أكثرها من الآراء التى شاعت فى عهد الاستنارة، وما كان يلتقطه من كتب العلم والفلسفة، وقد أشار فى هذه اليوميات إلى مساوئ عدم التسامح وضرورة

اعتماد الإنسان على نفسه فى التفكير، وعرض بالخرافات الشائعة، ويرجع كتاب سيرته إلى هذه اليوميات لمعرفة حالته النفسية فى تلك الفترة وتطوره الفكرى.

وكانت الدراسة التى عنى بها هيجل أشد عناية وخصها بالجانب الأكبر من اهتمامه هى دراسة الشعر اليونانى، وفى السادسة عشرة من عمره بدأ يكتب مختارات مطولة من كل كتاب يروقه، وكان يجد متعة فى كل فروع العلوم التى أمكنه الوصول إليها واستطاع بذلك تحصيل طائفة كبيرة من مختلف المعلومات، ولما كان يلتزم الدقة فى كل ما يباشره من الأعمال، ولذلك استطاع أن يحسن فهم ما يقرأ ويقدر مزايا الكُتاب الذين يتناول كتبهم، وكان يذهب إلى أن الثقافة الحقة تقتضى أن يقتصر الإنسان فى بادئ الأمر على التلقى، وبعد ذلك يجىء دور الفحص والنقد.

وفى الثامنة عشرة من عمره ترك هيجل (الجيمنازيم) إلى الجامعة، وكان والداه يعدانه ليكون من رجال الكنيسة، ولذلك أرسل إلى معهد اللاهوت فى توبيخن، ولم يكن بين أساتذة المعهد فى تلك الفترة من يصلح لأن يكون له تأثير دائم فى هيجل.

وتابع هيجل دراسته الكلاسيكية وأضاف إليها دراسة بعض الكتاب المحدثين وبخاصة مؤلفات روسو التى كانت باعث الحركة المقبلة فى فرنسا وهى الثورة الفرنسية، وكون هيجل وأضرابه الأصغر منه سنا فى الجامعة ومنهم شلنج - ناديا سياسيا كانوا يتناولون فيه بالبحث آراء الثورة الفرنسية ويناقشونها.

وقد قضى هيجل ثلاث سنوات من السنوات الست التى تلت خروجه من الجامعة فى مدينة برن بسويسرا مدرسا خاصا، وكان فى خلال تلك الفترة دائم الاتصال بصاحبيه شلنج وهيلدرلين بطريق المراسلة مما جعله على دراية تامة بتقدم الحركة الفلسفية فى ألمانيا، وقد كانت هذه السنوات الست هامة فى دراسته الفلسفية، كانت المعارف والمعلومات الفلسفية التى حصلها تتصارع فى نفسه وتتفاعل لتلتئم وتتحد ويتكون من موادها المختلفة كل حى يبدو عليه طابع شخصية ويتسم بسمة عبقرية، وقد انتقل من دراسة روسو إلى دراسة كانط، وقد ظل سنوات معنيا بوجه خاص بدراسة المسائل الدينية والأخلاق، وكان يحاول

معالجة مشكلات الدراسات عن طريق الإمعان فى دراسة التاريخ لا من الناحية الفلسفية، ويمكن القول بأنه اتجه إلى الفلسفة عن طريق محاولته تفسير التاريخ وفهمه، وشغل فى بادئ الأمر بتاريخ الدين، وفى أثناء ذلك كتب كتابا عن حياة المسيح، ووضع رسالة عن علاقة الدين الوصفى بالدين العقلى، وكان فى هذه المحاولات ينظر إلى الدين من ناحية علاقته بحياة الأمم الاجتماعية والسياسية، وفى أثناء إقامته فى فرانكفورت اتجهت دراساته اللاهوتية بالتدريج إلى البحوث الأخلاقية والاقتصاد السياسى، وأخيرا إلى العلوم الطبيعية والفيزيائية، وفى السنة الأخيرة من إقامته فى فرانكفورت حاول أن يجمع نتائج بحوثه ويضمنها نسقا فلسفيا، ومهما يكن من الأمر فإنه لم يستطع أن يتم فى هذه الفترة سوى الجزء الخاص بالمنطق وما وراء الطبيعة وفلسفة الطبيعة. وفى هذه السنوات الست كان التصور أن الغالبين على عقله والمرشدين له فى بحوثه هما فكرة الحرية، وفكرة أن حياة الإنسان الطبيعية والروحية وحدة عضوية من العناصر لا يمكن فصل أحدهما دون أن تفقد معناها وقيمتها.

وقد كون هيجل أقسام فلسفته الثلاثة، وكان الجزء الأول يشمل المنطق وما وراء الطبيعة، والجزء الثانى تناول فلسفة الطبيعة، والجزء الثالث تناول فلسفة الروح التى تتوحد فيها الخلافات وتصطلح المتناقضات.

وفى سنة ١٨٠٠ وكان قد وضع أساس فلسفته وفكرتها الرئيسية وبدأ تطبيقها بطريقة منظمة أخذ يفكر فى الموازنة بين أفكاره وأفكار غيره من معاصريه، فاستأنف المراسلة مع شلنج وكان قد ترك مراسلته منذ سنوات.

وفى سنة ١٨٠١ظهر له أول مؤلف مطبوع وهو (الفرق بين مذهب فشته ومذهب شلنج) وقد دافع فى هذا الكتاب عن مذهب شلنج. وفى عام ١٨٠٢ اتفق مع شلنج فى إصدار (المجلة الانتقادية) وكانت الفصول التى كتباها لهذه المجلة موحدة الهدف إلى حد أنه أصبح من الصعب فيما بعد تمييز الفصول التى كتبها هيجل من الفصول التى كتبها شلنج!

وظل هيجل يعمل مدرسا خاصا حتى سنة ١٨٠٥ التى عين فيها أستاذا فى جامعة (ينا) وكتب فى تلك الفترة أول كتبه الهامة وهو كتاب (ظاهريات الروح أو

العقل) وقد حاول فى هذا الكتاب أن يبين المراحل المختلفة للوعى التى تبدأ من مرحلة الوعى الحسى البدائى إلى مرحلة الوعى الفلسفى الكامل.

وفى أثناء إقامته فى نورمبرج أخرج كتابه العظيم عن المنطق، وكانت شهرته قد أخذت تعلو وفى سنة ١٨١٦ قبل دعوة جامعة هيدلبرج وبدأ بها محاضراته عن الفن ولكن جهده كان موجها إلى كتابة الموسوعة الفلسفية، وفى سنة ١٨١٨ عين أستاذا للفلسفة فى جامعة برلين وظل بها حتى توفى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ .



هيرودوت

٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م

أبو التاريخ

التاريخ فرع من فروع المعرفة التى كثر فيها اختلاف الآراء، وتعارض النظريات والأحكام، ولا يزال موضوعه محفوفا بالغموض برغم تكاثر الفلسفات التاريخية. والتفسيرات المنوعة، ولا تزال هناك صعاب قائمة فى تحديد مكانته، واستقصاء معالمه، والماضى ليس له وجود إلا فى الصورة التى يصورها لنا خيالنا، أى فى الصورة التى يعيد العقل خلقها، ولعل هذا هو الذى حدا بالفيلسوف الإيطالى بنديتو كروتشيه على أن يقول كلمته المشهورة وهى (أن كل تاريخ تاريخ معاصر).

وكانت الأساطير والخرافات غالبة على التاريخ فى أول أمره، لأن الأسطورة أو الخرافة تشغل بال الرجل البدائى أكثر مما تعنيه الحقيقة الواقعية، والخيال والتوهم أشد استيلاء على نفسه من الرؤية العقلية والمشاهد الحسية، وليس من الأمور السهلة رؤية الحقائق التاريخية كما هى فى الواقع، والقدرة على ذلك ليست من الهبات التى تجود بها علينا الطبيعة فى يسر، وإنما هى ثمرة من ثمرات الثقافة العالية، ولم يصل إليها شعب من الشعوب إلا بعد أن وصل إلى مستوى رفيع من النضوج الفكرى، وقد لوحظ فى حياة الأمم وتاريخ الأدب أن الشعر كان على الدوام أسبق من النثر، وليس ذلك بالمستغرب، لأن الشعر عماده الأخيلة والأحاسيس، والنثر أكثر اعتماده على الفكر والمنطق، ولذلك كان الشعر القريب من الإنشاء التاريخى رائجا وشائعا عند معظم الأمم القديمة قبل أن يكون لها تاريخ، فالهند تفخر بالرمايانا والمهابهاراتا وظهرت عند اليونان إلياذة هوميروس والأوديسا قبل أن تعرف الأدب التاريخى، وقد تكرر ذلك فى تاريخ أوربا فظهر

الشاعر دانتى فى مطالع عصر الإحياء قبل ظهور المؤرخين جويكشياردينى وميكافيللى، وأظهر شكسبير براعة فائقة فى تصوير الشخصيات لم يستطع الاقتراب من مساماتها المؤرخون الإنجليز إلا بعد مضى فترة من الزمن.

ويُعد هيرودوت أول مفكر كرس خبرته وتجاربه للمعرفة الإنسانية، وأول مؤرخ علمى حاول أن يخلق من القصص والأقاويل المتناقلة سلسلة متصلة من الأحداث تربط أسبابها بنتائجها. وهيرودوت يونانى جنسيا ولغة، فقد ولد عام ٤٨٤ ق. م ببلدة هاليكارناسوس إحدى مدن كاريا (التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى)، إحدى مستعمرات الدوريين، لكنها كانت أكثر تأثرا بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة. وفى القرن الخامس، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية، ينطقون باللهجة الأيونية. وفى طفولة هيرودوت كانت كاريا إقطاعية للإمبراطورية الفارسية. وقد اضطر هيرودوت، وهو ما زال حدثا، إلى مغادرة وطنه، بسبب الاضطرابات السياسية. وقضى فترة من الزمن فى ساموس، ثم أمعن فى الترحال، وزار أثينا، حيث تعرف إلى بركليس وسوفوكليس، وقضى باقى حياته فى تورى (أسست سنة ٤٤٣ ق.م)، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق. م) أى حوالى سنة ٤٢٥ ق. م. وقد كان يدعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث من هذا العصر). بهيرودوت التورى.

وقد قام برحلات واسعة، فزار مصر، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان ولعله ذهب إلى برقة أيضا. ومر بغزة وصور، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل، وتعرف إلى المنطقة الشمالية من بحر إيجة، حتى مدينة طاسوس. وأهم ما فى رحلته، أنه زار سكيتيا التى تقع على شمال البحر الأسود، ولابد من أن يكون قضى بعض الوقت فى أولبيا قرب مصب الهيبانس وفى مكان يبعد عن المصب قليلا فى مجرى النهر.

وقد أطلق عليه شيشرون لقب (أبو التاريخ).. وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين، وهو فى الحقيقة أهل له. وإذ صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين، كمؤلف كتب صموئيل (فى القرن السابع قبل الميلاد) فلابد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية. أمثال هيكاثيوس. كما أنه كان هناك غيره من مدونى الحوليات ولكن هيرودوت كان أول من وضع كتابا

محكم الأسلوب، سهل القراءة، بعنوان (التاريخ الجامع) والحقيقة أنه أول قطعة رائعة فى النثر اليونانى.

ومصنفه (التاريخ الجامع) يعتبر ذخيرة من الأساطير اليونانية والشرقية، وهو يقارن فى هذا الشأن بكتب الرحالة العظام أمثال ماركو بولو (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) وابن بطوطة (النصف الثانى من القرن الرابع عشر).

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليونانى المرسل وكان أول مؤلف حمل اليونانين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والإثارة ما يحويه الشعر. وقد لاحظ ذلك أيضا، رجل آخر من هاليكارناس هو ديونيسيوس (النصف الثانى من القرن الأول).



هيمنجواى، أيرنست

١٨٩٨ - ١٩٦١ م

أشهر كاتب قصصى أمريكى

أيرنست هيمنجواى من أعمدة الرواية الأمريكية بصفة خاصة والرواية العالمية بصفة عامة. كان من أوائل الروائيين الأمريكيين الذين حصلوا على جائزة نوبل للآداب إذ حازها عام١٩٥٤. يعتبره النقاد رائدا للرواية الأمريكية؛ لأنه تمكن من بلورة الحياة المحلية فى أمريكا، ثم أخرجها إلى المجال العالمى بحيث يستطيع أى إنسان فى أى زمان أو مكان أن يتذوقها ويستوعبها فى رواياته وقصصه القصيرة على حد سواء، لكن هذا التعميم النقدى يجنح إلى التبسيط المبالغ فيه: صحيح أنه فى بعض أعماله المبكرة وخاصة فى قصصه القصيرة التى تتخذ مضمونها من حياة صيادى السمك فى ميشيجان نجده يجسد الحياة المحلية البسيطة التى تجنح إلى البراءة، بل السذاجة بعيدا عن تعقيدات العالم الخارجى المعاصر؛ مما يذكرنا بالتقاليد التى أرساها قبله مارك توين فى الرواية الأمريكية، لكننا نجد أن هيمنجواى يتبع منهجا مختلفا تماما فى رواياته الشهيرة بحيث يصبح من اليسير ملاحظة التأثيرات المتعددة التى مارستها على فنه الروائى نظريات هنرى جيمس وت. س. إليوت وإزرا باوند وخاصة فى الشكل الفنى والتكوين الجمالى.

بدأ هيمنجواى حياته الروائية الفعلية فى باريس فى العشرينيات من هذا القرن مع كل من إزرا باوند وجيرترود ستاين، كانت السمة المميزة لباريس فى تلك الفترة بالذات أنها المدينة العالمية التى تحوى فى داخلها كل الاتجاهات المتعارضة والتيارات المتناقضة للفنون والآداب، كان الأدباء والفنانون يهرعون إليها من كل حدب وصوب، بل يعيشون فيها حتى يتشربوا روح الفن المتعددة الألوان والمنابع. وكان هيمنجواى من هؤلاء الأدباء ممن تركوا بصمات واضحة على فنهم الروائى؛

إذ نجد أن مضمون أهم رواياته يدور حول الحياة بعيدا عن أمريكا مسقط رأسه. وكل أبطاله كانوا أمريكيين فى مواجهة تجارب وحضارات العالم القديم ممثلا فى أوربا العتيقة. وهيمنجواى فى هذا الاتجاه يتناقض تماما ومعاصره الروائى الأمريكى وليام فوكنر الذى لا يمكن تخيل شخصياته بعيدا عن أعماق الجنوب الأمريكى، وهى الشخصيات التى لا يخرج تكوينها عن العاطفة البريئة والوضوح المباشر، بل الطفولة الساذجة وغيرها من الصفات التى تعد مميزة للفكر الأمريكى منذ أن بدأ المهاجرون الأوائل فى استيطان القارة الأمريكية.

يتمتع هيمنجواى بموهبة فذة فى الوصف التفصيلى أو السرد الروائى، يتميز أسلوبه الروائى الذى اشتهر به بالوعى الحاد الذى يعرف جيدا كيف يختار الصور والجمل بل والكلمات، ويعرف أيضا كيف يدير دفة الحوار بين الشخصيات بحيث تتطور من خلاله ولا يصبح مجرد جدل أو نقاش بينها؟ لذلك كتب هيمنجواى فى كتابه (الموت عند الظهيرة) يقول: إن النثر عبارة عن بناء معمارى فنى حى، وليس مجرد زخارف على الهامش؛ فلقد انقضى عصر الباروك، وأصبح لكل عنصر من عناصر العمل الفنى وظيفة خاصة به ومرتبطة ارتباطا عضويا بوظائف العناصر الأخرى المتفاعلة فى العمل نفسه، وبالطبع فإن تأثير إليوت وباوند يبدو واضحا فى هذا المنهج الذى يؤكده هيمنجواى.

كتب هيمنجواى أول رواية له عام ١٩٢٦ بعنوان (الشمس تشرق أيضا)، لكنها نشرت فى إنجلترا بعنوان (المهرجان)، فى عام ١٩٢٩ كتب هيمنجواى روايته التالية (وداعا للسلاح) وفيها يكتسب أسلوبه النثرى جمالا شعريا باهرا: يعمد هيمنجواى فى تحفته الروائية هذه إلى إبراز التناقضات القاتلة بين الحرب على الجبهة الإيطالية عام ١٩١٨ وما تبعها من صراع وقتال ودماء وأهوال.

يعتبر النقاد رواية هيمنجواى (لمن يدق الجرس؟) التى تدور حول الحرب الأهلية الإسبانية تحفته الروائية الأولى بلا منازع: ففيها يحلق سرده الروائى إلى آفاق من الشعر والقوة والنضج والدقة والتحديد لم يصلها من قبل! حتى جمله الطويلة التى يكثر من استعمالها تتميز بجمال الإيقاع ودقة البناء. وهذا يعارض الحكم العام الذى أطلقه عليه النقاد بأنه يعتمد دائما على الجمل القصيرة

والبسيطة: فالمسألة ليست مجرد استعمال جمل طويلة أو قصيرة، لكنها توظيف فنى سواء للجمل الطويلة أو القصيرة فى مكانها الطبيعى من النص الروائى ككل؛ لذلك يستخدم هيمنجواى الكلمات والجمل كما يستخدم المثّال كتل الحجر.

وإذا كان أليوت يمثل تنويعة متوازية مع الحرب فى رواية (لمن يدق الجرس؟) فإنه يتحول إلى خط درامى رئيسى فى قصة (ثلوج كليمنجارو) التى تعد من أحسن القصص القصيرة التى كتبها هيمنجواى؛ وحتى فى قصص هيمنجواى القصيرة التى تتميز بالسخرية والتهكم - نجد أن فكرة الموت مازالت تلح عليه؛ كما نجد فى قصته (الحياة القصيرة والسعيدة لفرانسيس ماكومبر). ليس معنى هذا أن التشاؤم هو السمة المميزة لكل أعمال هيمنجواى القصصية بحيث يجد القارئ كل بريق للأمل فى هذه الحياة؛ فعلى النقيض من هذا نجد أن أبطال هيمنجواى يتحدون الموت والعدم فى أحلك الظروف. وهذا يدل دلالة واضحة على إصرار الإرادة الإنسانية على مواجهة كل عوامل القهر والدمار والموت؛ لذلك فالحياة نفسها فى نظر أبطال هيمنجواى مقاومة مستمرة للموت والعدم، أما البطولة الإنسانية الحقيقية فتكمن فى روح المقاومة إلى آخر لحظة؛ فالموت حقيقة واضحة تحيط بكل الوجود، وعلى الإنسان أن يعترف بها وأن يواجهها بدلا من دفن رأسه فى الرمال كالنعامة. بل إن فكرة الوجود والحياة ذاتها لا تستقيم بدون الموت، بذلك يصبح الموت والحياة وجهين لعملة واحدة هى: الكون.

كان لهذه الفلسفة الكونية دور كبير فى إخراج روايات هيمنجواى وقصصه من الحدود التى يرسمها إطار الزمان وإطار المكان، الانطلاق بها إلى مجال الفن الخالد الذى يمكن الإنسان أن يتذوقه فى أى زمان ومكان.



والاس، إدجار

١٨٧٥ - ١٩٣٢ م

صاحب أشهر الروايات البوليسية فى العالم

لعل قصصيّاً لم يصادفه بعد الصيت وذيوع الاسم كما صادف إدجار والاس، فإنه يعد بحق أغرب الظواهر الأدبية فى العصر الحديث.

لقد كان فى يده قلم تنصب منه القصص الشائقة انصباباً. ويتدفق الفن القصصى تدفقاً. وتتكاثر المقالات، وتنشر المسرحيات القصيرة، ويترامى إلى قرائه العديدين فيض واسع من فنه الصحفى الذى برع فيه البراعة كلها ووفق إليه التوفيق كله. وكان هذا الفيض العريض لاينقطع، بل يزيد على الأيام، ويقوى مع تقدم السنين.

وليس عجيباً أن يحذق إدجار والاس هذه الفنون الكتابية، وأن يحرز فيها اسماً انفرد به. فقد كانت كتابته تمتاز بطابع من السهولة تجرى فى غير عنف. ولذلك وفق فى تحرير الأخبار، وإنشاء القصص المسلية، والمغامرات والمفاجآت؛ وهى ألوان من الكتابة لا تحتاج إلا إلى خيال خصيب، ولا تحتاج إلى عبقرية خارقة.

كان يغامر ويقامر، ويلهو ويلعب. يبعثر بالشمال ما جمع باليمين. فلم يحسب للفاقة حساباً، ولم يبال من الزمان صدّاً أو إعراضاً، بل كان يعيش للساعة التى هو فيها ولم يفكر فى لحظة واحدة من وراء الغيب الذى يتعبنا جميعاً بالتفكير فيه والاستعداد له. وكان كل ما يقض عليه مضجعه ويطيل عليه ليله تفكيره فى نجاحه الأدبى الذى كان يرجوه لنفسه.

ولد هذا العبقرى لقيطاً فى قرية (جرينتش) الإنجليزية، ولم يعرف له أب ينتمى إليه أو والد يحنو عليه. ولكن أمه (بولى ريتشاردز) كانت ممثلة من الدرك الأسفل. أظلمت أمام عينيها جوانب الحياة، واعتمدت على راتب ضئيل من أحد مسارح لندن.

واحتملت الأم طفلها على ذراعيها الواهنتين، وقصدت به إلى كنيسة كاثوليكية لتنصيره، وأخفت اسم والده الحقيقى الذى لا يعرف سره أحد غيرها.

وأتيح لهذا الطفل اللقيط الشقى امرأة طيبة القلب،فتكفلت بإرضاعه والقيام عليه، وكان حب هذه المرأة للأطفال وغرامها بهم وعطفها عليهم، لايقل عن حب زوجها الفقير (فريمان).

وبين جدران منزل متواضع نشأ الطفل نشأة متواضعة، إلا أنه كان ملحوظاً من (فريمان) كأحد أبنائه، يلعب معهم، ويذهب إلى المدرسة الأولية كما يذهبون، ويتكلم اللهجة اللندنية كما يتكلمون.

واستطاعت مسز (فريمان) أن تجد لهذا الطفل الجديد - بعد أن بلغ الحلم - عملا فى إحدى المطابع.ومازال ينتقل من مطبعة إلى أخرى فترات قصيرة متقطعة حتى أتاحت له مصادفة جديدة أن يعمل فى البحار طاهياً أو ملاحا أو خادما لرئيس الملاحين.

ويظهر أن هذه التجربة الجديدة أخصبت خيال الفتى وفتحت أمامه آفاقاً واسعة من التفكير.

وكلما أمعن الحظ فى الإساءة إلى والاس زاد هو محاولة مع الأقدار ومصاولة لها، فما يئس ولا جزع، بل طرق كل باب، وولج كل مدخل؛ وفتنته الجندية فتطوع لسبع سنوات. على الرغم من توسل مسز فريمان وإلحاحها عليه ودموعها الكثيرة التى كانت ترسلها قطرة إثر قطرة.

ويظهر أن الحياة العسكرية قد وافقت صاحبنا ووجدت فى العمل المستمر راحة قلبه.. واستحال جسده الناحل العليل الى جسم ملفوف العضل مكتنز اللحم.

وفى «ألد رشوت» تلك المدينة العسكرية المعروفة بتعاليمها العسكرية.

ومدارسها العسكرية استطاع (والاس) أن يختلس المسافة إلى لندن كل يوم اختلاساً.

وفتنته هذه المرة لندن العريقة بمسارحها وملاهيها ونواديها ومراقصها ومشاربها.. وليلها الذى تحييه ألوف من الناس.

ودع صاحبنا لندن، وركب البحر هذه المرة.. إلا أنه لم يكن بحاراً ولا طاهياً كما طوحت به الأقدار مرة فى بحر الشمال.. ولكنه كان جندياً.. كان جندياً حرموه شرف النزول فى الميدان، وأرادوه أن ينزل فى مستشفى هناك يقوم على مخازنه ومرضاه... وفى هذا المستشفى أعدت غرفة للتهذيب والدين والوعظ...

واستطاع إدجار والاس أن يجد فى مكتبة هذة الغرفة تسلية لنفسه. فكان يقضى معظم أماسيه الهادئة على حفيف ورقات الكتب تعبث بها أصابعه..

وعاش والاس فى جنوبى أفريقيا عيشة فتحت أمام عينيه آمالا واسعة فى الأدب. فقرأ كثيراً واستفاد كثيراً. وقد وجد فى عطف السيدة زوج القس مشجعاً له على القراءة وحافزاً على مداومة الاطلاع. والحق أن هذا الأديب الشعبى المحبوب مدين لهذه السيدة بكثير مما انتفع به فى قراءاته الأولى.

وأخذ والاس يمشى فى طريق الشهرة وهو شائك، فلا يبالى بما يعترضه؛ وزادت شهرته.

وفى مايو سنة ١٨٩٩ استطاع والاس أن يخلص نفسه من قيود الجندية، وعاش بعد الخلاص مدنيا حرا فى بيت القس (كالديكوت).

والحق أن النجاح يتبعه النجاح؛ وما زال المقبل مقبلاً ما لم يعثر...

وكذلك كان والاس. فاستمر الحظ فى الإقبال عليه والابتسام له هذه المرة؛ وطارت شهرته فعين مراسلا. لجريدة (الديلى ميل) اللندنية بجانب عمله فى (روتر). وأخذ يمنى نفسه - عندما تنتهى الحرب - بالعودة إلى انجلترة ليطبع المختار من شعره.

ولما عاد السلام إلى جنوبى إفريقيا عين والاس رئيساً لتحرير جريدة الديلى ميل الأفريقية..ولم تبلغ سنه حينذاك السابعة والعشرين.

وعاد إلى لندن هذه المرة والأقدار عابسة والدنيا ساخرة. فاشتغل محرراً عادياً فى الديلى ميل اللندنية. ولكن روحه ظلت محتفظة بقوتها وحيويتها كما كان يفعل دائماً فى الحدث العظيم..

وعاد الحظ يبتسم ثانية للكاتب.. وجاءت الدنيا مقبلة عليه، وعمل محرراً فى أكثر من صحيفة، واتجه بكتابته إلى القصة، وساعدته أسفاره المتعددة ورحلاته إلى أفريقيا ومجاهلها وغاباتها وأنهارها، على أن يلون قصصه بلون زاه بديع الصور جم المشاهد.

كان والاس كما أسلفنا القول مسرفاً فى ماله كما كان مسرفاً فى خياله.

لقد تحقق له الحلم الذى كان يحلم به، ووصل إلى الشهرة التى كان يطمع فيها.

وقد دعى إلى هوليود والمرض يلح عليه، والإعياء يدب فى جسمه، فلم يتردد فى قبول هذا العرض الجميل المغرى، لأنه كان دائماً كثير المطامع كثير المغامرات. إلا أن هذه المدينة الجميلة المرحة الصاخبة لم تستطع أن تجذبه إليها أكثر من شهور.

وزاد المرض عليه إلحاحاً، وظهر إلى جانب مرض السكر، مرض صدرى عنيف، فلم يستطع مواصلة العمل هناك. وأعلنت صحافة أمريكا فى حروف كبيرة ولوحات عريضة مرض الكاتب المسرحى الشعبى المحبوب.

وعادوا به إلى انجلترا - مسقط رأسه - على ظهر الباخرة وهو على سرير المرض الخطير. وكان يصحبه فى هذه الرحلة صديقه (والتر هاستون).

وأغمض والاس عينيه إغماضة الأبد، ونام النومة الأخيرة، وقد تناثرت على سريره أكاليل من الأزهار قدمها ركاب الباخرة.



ويتمان، وولت

١٨١٩ - ١٨٩٢م

أهم شاعر عبر عن الديمقراطية الأمريكية

يعد وولت ويتمان رائداً للشعر الأمريكى، كما يعد مارك توين رائداً للرواية الأمريكية، ويوجين أونيل رائداً للمسرح الأمريكى. كان وولت ويتمان أول شاعر أمريكى يحوز إعجاب الأمريكيين والأوربيين على حد سواء؛ فقد تمكن من تحطيم القوالب الأوربية التى كان يصب فيها الشعر الأمريكى عنوة؛ مما جعله مجرد تقليد باهت يخلو تماماً من عناصر الأصالة التى تنبع من تربة الوطن نفسه. كان يرى أن الشاعر هو ضمير أمته؛ ومن ثم لا يمكنه النظر خارج حدودها لاستلهام الوحى. من حقه أن يطلع ويتشرب كل المعارف التى وصل إليها الفكر الإنسانى على إختلاف مشاربه؛ لأنه بدونه لا يستطيع امتلاك الخلفية الثقافية، والنظرة العميقة، والشمول الفكرى. وهذه كلها ضرورات لازمة لثقل موهبته ومضاعفة أبعادها. أما حسه الشعرى فيجب أن يرتبط بوطنه وبشعبه أولاً، وخصوصاً أن الطريق إلى العالمية الإنسانية لابد أن يمر بالإقليمية المحلية. كانت لتنقلات ويتمان داخل مختلف الولايات فائدة جمة تمثلت فى تشربه بروح الإنسان الأمريكى. لم يكن ويتمان شاعراً إقليميا ضيقاً، بل اتخذ من وطنه نقطة انطلاق إلى الإنسانية الرحبة؛ بذلك استطاع أن يغزو الشعر العالمى، وتذوقه القراء خارج أمريكا بالدرجة التى ميزت هى نفسها إقبال الأمريكيين عليه.

ولد وولت ويتمان فى لونج أيلاند من أبوين ينتميان إلى أصول إنجليزية وهولندية. عاشت عائلته فى بروكلين بين عامى ١٨٢٣و ١٨٣٣حيث تلقى تعليمه

الأولى، لكنه لم يكمل تعليمه واشتغل صبيا فى مطبعة. وبعد اطلاعه المستمر الذى منحه خلفية ثقافية عريضة استطاع أن يعمل بالتدريس الذى تركه للعمل بالصحافة وتحرير المقالات فى (لونج أيلاند). فى تلك الفترة كان يقرأ بنهم كل ما تصل إليه يداه: الإنجيل وشكسبير وأوسيان وسكوت وهوميروس، وأيضاً شعراء الهند وألمانيا القدماء، كذلك قرأ دانتى كله. أثرت هذه القراءات على شعره، وخاصة فى مرحلته المتأخرة، وبدا هذا التأثير واضحاً سواء فى المضمون أو الإيقاع، ثم اشتغل بالسياسة وكان من الرواد الأوائل الذين أرسوا دعائم الديمقراطية الأمريكية. اتسع نشاطه الأدبى والسياسى لدرجة أنه بعد عام ١٨٤١كان يراسل ويكتب فيما لا يقل عن عشر مجلات فى بروكلين ونيويورك. لكن الأشعار التى نشرها فى تلك الفترة كانت هزيلة وتقليدية إلى حد كبير، وأما عن القصص التى نشرها فى (المجلة الديمقراطية) (١٨٤١ - ١٨٤٥) فكانت ساذجة وحزينة ومسرفة فى العاطفة. جُمع هذا الإنتاج المبكر فى مجلدين بعد ذلك عام ١٩٢٩ بعنوان: (كتابات وولت ويتمان الشعرية والنثرية غير المجموعة).

فى عام ١٨٤٦ أصبح رئيساً لتحرير مجلة (بروكلين إيجل) الناطقة بلسان الحزب الديمقراطى والتى هاجم فيها كل أنواع التعصب والفاشية والديكتاتورية مؤكداً أنه لا ازدهار لأمة إلا بترسيخ الديمقراطية فيها. وقد جمعت كتاباته فى هذه المجلة فى مجلدين بعنوان (تجميع القوى) عام ١٩٢٠، استمر عمل ويتمان بالصحافة حين ذهب عام ١٨٤٨ إلى نيوأورليانز حيث رأس تحرير مجلة (كريسينت) لمدة ثلاثة أشهر. وفى طريق عودته إلى بروكلين مر بمدن سانت لويس وشيكاغو حيث أدرك بنفسه لأول مرة روح الاكتشاف أو روح الحدود كما اصطلح الأمريكيون على تسميتها، وهى الروح التى أثرت فيما بعد على فلسفته الشعرية؛ كما نجد فى قصائد: (الرواد: يالهم من رواد!) و(أغنية الفأس العريض).

استمر ويتمان فى نشاطه الصحفى الواسع بتحرير عدة مجلات فى وقت واحد منها على سبيل المثال (بروكلين تايمز) التى جمعت كتاباته فيها فى مجلد عام ١٩٣٢ بعنوان (إنى أجلس وأتأمل).

فى تلك الفترة التى كان ويتمان يبحث فيها عن نفسه - عاش حياة عريضة

تعرف فيها على الحياة فى العواصم الكبرى مثل نيويورك. استمع إلى الأحاديث التى كانت تلقى فى المحافل الأدبية، واختلط بسائقى العربات وملاحى المعديات، وشاهد مسرحيات شكسبير والأوبرا الإيطالية؛ مما كان له أعمق الأثر فيما بعد على الفكر والأسلوب الشعرى عنده. كانت نفسه موزعة بين الإيمان بالمساواة الديمقراطية التى يجب أن تعم الجميع وبين الاعتقاد فى قيمة ثروة الفرد ضد قيود المجتمع. وأخيراً آمن بأن الحرية الفردية لن تجد متنفساً لها إلا فى الحب على حين تتمثل الحرية الاجتماعية فى الديمقراطية. واضح أن الحب والديمقراطية وجهان لعملة واحدة هى المجتمع الإنسانى كما يجب أن يكون. كان ويتمان يعتقد أن الحب ليس مفهوماً مطلقاً ومجرداً؛ ذلك؛ لأن الحب الجسدى فى مفهومه يؤدى دوراً حيويا وخطيراً سواء فى حياة الفرد أو المجتمع. وقد برزت هذه الطاقة الحسية فى أشعاره بصورة واضحة لأنها كانت بالنسبة له الدوافع الأولية الكامنة وراء السلوك الإنسانى.

وعلى الرغم من أن ويتمان تقبل فلسفات عدة قد تتعارض فيما بينها فكريا فإن الوحدة الفنية التى تتمتع بها قصائد ديوان (أوراق العشب) قد مزجت هذه الفلسفات فى كل عضو لا يقبل الانفصام: فالإنسان فى نظر ويتمان قادر على تحقيق كل حرياته الممكنة داخل النطاق الذى يتيحه القانون الطبيعى الذى يحكم الكون: فمن الممكن أن يحقق حرية العقل والجسد من خلال التطبيق السليم للديمقراطية، وأن يدرك حرية القلب فى ممارسة الحب الناضج بكل جوانبه، وأن يمتع روحه بانطلاقة الحرية فى مجال العقيدة الدينية. فى مرحلة النضج الفنى تمكن ويتمان من السيطرة على كل دقائق علم العروض والأوزان والقوافى، لكنه لم يشأ أن يجعل منها قيوداً تحد من انطلاقته الشعرية؛ فقد كان يرى أن فلسفته من السلاسة والوضوح بحيث تقتضى أدوات فنية من نفس نوعيتها للتعبير عنها؛ لذلك عبر عن مضمونه الفكرى فى أسلوب سلس واضح متجنباً الاستخدامات التقليدية للقافية والوزن والمحسنات البديعية.

تميزت قصائد ويتمان بالنمو العضوى الطبيعى الذى يحتم تفاعل أى جزء فى العمل الفنى - مهما كان ضئيلاً - مع شكله العام. وقد قارن ويتمان شعره

بموجات البحر المتدفقة الكاسحة: أى أن التلقائية العفوية هى المنهج - إذا كانت منهجاً على الإطلاق - الذى يحكم البناء فى كل قصائد ويتمان. ومع ذلك من السهل التعرف على بعض الملامح المحددة والواضحة عنده مثل التكرار الموسيقى للألفاظ نفسها، والتوازن بين الجمل، واللازمات البلاغية.

لم يتأثر العالم الشعرى عند ويتمان بوقائع الحرب الأهلية الأمريكية إلا فى عام ١٨٦٢ عندما سافر إلى فرجينيا لزيارة أخيه جورج الذى جرح فى إحدى المعارك. عاد ويتمان إلى واشنطن لكى يتطوع للعمل كممرض فى خدمة الجنود الشماليين أو الجنوبيين على حد سواء وذلك فى مستشفيات الجيش. وقد سجل ذكرياته عن هذه الفترة فى كتاب وصفى له بعنوان (مذكرات الحرب) ١٨٧٥. كان من الطبيعى أن يتأثر شعره بهذه التجربة الإنسانية، فكتب ديوان (دقات الطبل) ١٨٦٥، ثم أعاد طبعه فى العام التالى مضيفاً إلى قصائده التى يرثى فيها إبراهام لينكولن مثل (أزهار البنفسج على عتبة الازدهار) و (أيها القائد! يا قائدى).

فى ذلك الوقت كانت الوظيفة الرسمية لويتمان هى العمل فى سكرتارية المكتب الهندى بوزارة الداخلية الأمريكية، لكن الوزير قام بطرده من وظيفته على أساس أن ديوانه (أوراق العشب) عمل غير أخلاقى! لكن الكتاب والمثقفين لم يتحملوا هذه الإهانة التى لحقت بالشاعر الكبير، فكتب وليام أوكونور كتاب (الشاعر الشيخ الصالح) ١٨٦٦. فى العام التالى أصدر جون باروز كتابه (ملاحظات على وولت ويتمان: الشاعر والإنسان). بالطبع لم يعبأ ويتمان بطرده من وظيفته، بل استمر فى كتاباته، فكتب فى عام ١٨٧١ دراسته التحليلية (آفاق ديمقراطية) ثم (الطريق إلى الهند) الذى جسد فيه فلسفته التى تقول بأن تجديد الفكر الإنسانى والجنس البشرى لن يتم إلا من خلال الاتحاد بين حكمة الشرق الروحانى ومادية الغرب الطاغية.

فى عام ١٨٧٣ أصيب بنوبة شلل أثرت على كتاباته وغيرت من فكره إلى حد ما: لقد تحول أسلوبه الواقعى المباشر إلى صور التلميح والتجسيد الفنى المركب: تبدلت فلسفته التى تعتبر الكون مادة واحدة، لكى تصبح مثالية روحانية يغلب عليها التصوف، وتغيرت آراؤه السياسية من الفردية إلى القومية بل حتى إلى

العالمية، وهبطت درجة حماسه المطلقة للحرية الفردية إلى تأييد للنظام الذى يتحرك المجتمع فى إطاره. وفى العشرين سنة الأخيرة من عمره استقر فى نيوجيرسى حيث تابع الطبعات الجديدة من ديوانه (أوراق العشب) وهى الطبعات التى احتوت على قصائد جديدة مثل (غصون نوفمبر) ١٨٨٨، و (وداعا يا خيالى) ١٨٩١. ثم مات فى العام التالى تاركاً ثروة شعرية ما زالت قيمتها تزداد مع مرور الأيام.

تمثلت ريادة وولت ويتمان بين الشعراء الأمريكيين فى أنه خرج بالشعر من قمقم التقليد الذى ساد المجالات الأدبية إلى ميدان الحياة الواسعة بكل صراعاتها وتناقضاتها. كان يعتقد أن على الشاعر أن يحطم كل القيود، وأن يهدم جميع الجدران التى تقف بين الإنسان وبين إدراكه الواعى للحياه والكون. وإن كان الشاعر فى حاجة إلى الكتب والمكتبات؛ لكى يزيد ثقافته - فإن المرحلة التالية للتثقيف هى الانطلاق فى كل مكان وبين جميع البشر على اختلاف ألوانهم ومشاربهم حتى يحتوى الحياة بعد ذلك فى أشعاره. بهذا وحده يمكنه أن ينتج شعراً يصمد لاختبار الزمن.

وعلى الرغم من اعتزاز ويتمان بتربته المحلية - فإنه استطاع أن يجعل من مادتها موضوعا عالميا يمكن جميع البشرية تذوقه: كانت عينه على الحياة الأمريكية على حين تتبعت عينه الأخرى الحياة فى كل مكان؛ من أجل هذه المهمة ضرب بكل القوالب الشعرية القديمة عرض الحائط حتى لقب بأبى الشعر الحر.

من ناحية المضمون الفكرى اعتبره النقاد فيلسوفاً بمعنى الكلمة، إذ كان يملك النظرة الشاملة المتكاملة إلى الكون والأحياء، وهى النظرة التى احتوت الإنسان والمجتمع والعلاقة بينهما بكل ما فيها من حب وديمقراطية وغموض وصراع، بل إن شعره جمع بين المتناقضات المادية والروحية فى آن واحد؛ مما منحه حيوية متدفقة تحاكى ديناميكية الحياة نفسها، أما علماء النفس فقد وجدوا فى أشعار ويتمان دراسة خصبة لمكونات النفس البشرية.



ويلز، هربرت جورج

١٨٦٦ - ١٩٤٦ م

رائد القصص العلمية

لو أن الإنسان استطاع أن يستشف الغيب، ويصل إلى أعماق الأمور، ويدرك خوافيها وأبعادها المحجبة، لأدرك حكمة الحياة التى تخفى عليه.. إنها حين تصيبنا بنازلة أو مكروه، فإنها تحمل لنا فى طياته خيراً قد لا نتبينه فى البداية، ولكننا لا نلبث أن ندركه بعد حين، لنزداد إيماناً بالحياة.. ونعى حكمتها البالغة العميقة، فلا نعود نجزع لِما يصيبنا من أحداثها، بل نتوقع انبثاق النور من الظلمة الحالكة، والأمل المشرق من خلال قتام اليأس.

إن الآية الكريمة تقول ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (٢١٦ البقرة) والحكمة السائرة تقول: (رب ضارة نافعة) فما أصدق الآية الشريفة، وما أجدر الحكمة السائرة بأن نتعمق معانيها ونتفهمها ونعيها..

إن حياة الكثير من المشاهير تترجم لنا هذا المعنى بصورة معبرة وعميقة، والعديد منهم صنع مجده وشهرته وتفوقه من خلال نازلة ألمت به، أو محنة تصور الناس وتصوروا هم أنها سوف تقضى عليهم القضاء المبرم، فإذا هى تتحول إلى قوة دافعة ملهمة، وإلى حافز قوى على الكفاح والنضال وبلوغ الهدف، وإلى طاقة بناء لا معول هدم.

ومن هؤلاء المشاهير الذين امتحنتهم الأيام فى بداية حياتهم، فصهر الامتحان عودهم، وفجر طاقتهم الكامنة، وفتح أمامهم آفاقا رحيبة للعمل الخلاق، الكاتب والروائى الانجليزى الكبير هـ. ج. ويلز.

ولد هربرت جورج ويلز فى ٢١ سبتمبر ١٨٦٦ م، من أسرة إنجليزية رقيقة

الحال، ومر فى طفولته بتجربة قاسية كان لها أكبر الأثر فى توجيه مسار حياته، فقد كان يلعب يوما مع رفقائه من الأطفال، فإذا بواحد منهم يكبره سنا وجسما يمسك به ويرفعه فى الهواء ثم يلقى به على الأرض بكل قوته، فتتكسر ساقه.

وحمل الصبى إلى بيته، حيث قضى فى الفراش شهوراً يتلوى من الألم، وحول قدمه حمل ثقيل من الأربطة، غير أن العظمة المكسورة لم تلتئم التئاما صحيحا، وكان لابد من إعادة كسرها لتلتئم مرة أخرى، على نحو سليم، وكانت تجربة فظيعة بالنسبة للطفل الصغير الذى كابد ألوانا من الألم والفزع.

لقد بدا هذا الحادث فى حينه كأنه مأساة.، ولكن ويلز كان يتذكره بعد أن أصبح رجلا، وشخصية مرموقة تتمتع بشهرة واسعة فى أنحاء العالم، فيبتسم ويقول: (ربما لولا هذا الحادث لما عرفت الدنيا شخصا يدعى هـ. ج. ويلز) لقد اعترف (ويلز) بأن حادث كسر ساقه كان من أسعد حوادث حياته وأكثرها فائدة بالنسبة له.. لقد ألزمه الحادث الفراش لمدة عام كامل لم يكن أمامه طواله شىء يفعله.. سوى قراءة كل كتاب يستطيع أن يحصل عليه.

لقد قرأ هـ. ج. ويلز خلال ذلك العام مئات الكتب، أتى عليها كلها والتهمها التهاما، واستوعب ما فيها عن ظهر قلب، ففتحت تلك الكتب أمامه آفاقا رحيبة على عوالم خصبة لم يكن له عهد بها، وأيقظت ملكاته الكامنة وشحذت خياله، وأثارت فيه حبا جارفا للقراءة والمطالعة، فلم يعد يقرأ لمجرد تبديد ما يحيط به من سآمة وملل، بل وجد نفسه وعرف ذاته من خلال تلك القراءات، بدا كأن طريقه فى الحياة قد تحدد أمامه..

وهكذا كانت ساقه المكسورة نقطة تحول كبير فى حياته، وشهادة ميلاد لأديب كبير ترك للمكتبة العالمية ٧٥ كتابا قرأها مئات الملايين من عشاق فنه فى كل أنحاء العالم، وأثارت كتاباته كل الأوساط والمحافل الأدبية، وأصبحت مادة دسمة لعشرات الأفلام السينمائية الناجحة والمسلسلات التليفزيونية والمسرحيات، وظلت حديث النقاد لأعوام طويلة متصلة.

لقد شغف هـ. ج. ويلز بالقراءة بعد ذلك، حتى استطاع أن يفوز ببعض المنح

والجوائز، التى أعانته على إتمام دراسته بالمجان فى جامعة لندن، بعد أن أحرز تفوقا عظيما .. ولقد تربى هـ. ج. ويلز فى أحضان الفقر المدقع، فقد كان أبوه من لاعبى (الكريكت) المحترفين، وكان له محل صغير لبيع الأوانى الصينية يترنح على شفا الإفلاس، وقد ولد هـ. ج. ويلز فى حجرة ضيقة متواضعة تقع فوق ذلك المتجر.

لقد بدأ هـ. ج. ويلز حياته العملية فى سن الثالثة عشرة، صبيا فى محل لبيع الأقمشة، ولكنه لم يوفق، وحصل ويلز بعد ذلك على عمل فى صيدلية، وللمرة الثانية طرد فى نهاية الشهر رغم تفانيه وإخلاصه فى العمل، وأخيرا حصل على عمل فى متجر آخر للأقمشة، ولما كان يتحتم عليه أن يحصل على لقمة العيش بأى ثمن، فقد صمد هذه المرة وقتا أطول، ولكنه كان يغافل المراقب ويهبط إلى المخزن فى الدور الأسفل لينكب على قراءة كتب (هربرت سبنسر).

كانت القراءة هى العالم الذى يهرب إليه مما يكابد فى حياته من شقاء وتعاسة، وبمجرد أن يمضى فى مطالعة صفحات من الكتاب الذى بين يديه، كان ينسى كل عذاباته وآلامه، ويحلق مع الكتاب فى دنيا عطرة جديدة، زاخرة بالمسرات والرؤى والصور البهيجة، ويعايش شخوص الكتاب ويتحدث إليهم ويناجيهم ويحاورهم وكأنهم شخوص حقيقية تنبض بالحياة وتتحرك أمامه.

وانقضى عامان.. وأحس هـ.ج. ويلز أنه لم يعد يملك القدرة على الاستمرار فى تحمل هذه النوعية من الحياة، فقام فى صبيحة أحد أيام الأحد، ودون أن يتناول الإفطار، راح يجر ساقيه ويسير متحاملاً على نفسه مسافة خمسة عشر ميلا، ومعدته خاوية تصرخ من الجوع، إلى حيث كانت أمه. ورمى بنفسه بين ذراعيها .. وراح يتضرع إليها وجسده يهتز من البكاء، ويطلب إليها أن تقتلعه من ذلك المتجر البغيض وتخلصه من صاحبه، وإلا قتل نفسه، فالموت أهون عليه مما هو فيه، ومما يفعله به صاحب المتجر،ثم أردف ذلك بكتابة خطاب طويل مؤثر إلى ناظر مدرسته المسن.

لقد استطاع خطاب هـ. ج. ويلز أن يمس قلب ناظر مدرسته وأحاسيسه فبعث إليه بخطاب يعرض عليه فيه أن يعمل مدرسا، وكان ذلك نقطة تحول أخرى فى حياته ساقتها إليه الظروف والأقدار، وبعد سنوات قليلة من ممارسته لمهنة التدريس، حلت به نازلة جديدة، وكأنه مع موعد لا ينتهى مع الأحداث، فقد كان

يلعب كرة القدم، وفى حرارة اللعب وحماسته سقط على الأرض وداسته الأقدام، حتى أوشك أن يقتل!.. ولقد تفتت إحدى كليتيه، وثقبت رئته اليمنى، وأصيب بنزيف شديد، ويئس الأطباء من شفائه، وبقى عدة شهور مهدداً بموت متوقع فى كل لحظة!.

وقدر للكاتب الكبير الموهوب أن يعيش، وإن ظل طوال اثنى عشر عاما متعلقا بأهداب الحياة وهو نصف عاجز، ومع ذلك فقد استطاع خلال تلك السنوات بالذات أن يبنى مجده الأدبى الكبير، ويصنع تلك الشهرة التى دوت فى كل أنحاء العالم، ويكتب أروع أعماله التى مازالت تقرأ فى لهفة وشغف وإعجاب، وتتحول إلى أفلام سينمائية تدر أرباحا طائلة، لقد ظل يكتب خمس سنوات متصلة، ولكن كتاباته فى تلك السنوات لم ترضه، ووصفها هو بأنها (وليدة الهواية)، وقام بإحراقها كلها.

وبدلاً من أن يموت هـ. ج. ويلز كما كان الكثير يتوقعون ، إذا به يستعيد قوته، ويتحول إلى شعلة من النشاط، وتتألق طاقته الإبداعية، ويخرج كتابين طويلين كل عام، من هذه الكتب التى تجاوبت أصداؤها فى كل أنحاء العالم، ويظل على هذا المستوى العجيب من النشاط الذهنى حتى آخر عام من حياته!.

وكان ويلز قادرا على الكتابة فى أى مكان.. فى مكتبة .. أو فى القطار.. أو تحت مظلة على الشاطىء، واستأجر منزلين صغيرين فى الريفيرا الفرنسية، أحدهما للعمل، والثانى لاستقبال الضيوف، وكان يكتب طيلة النهار ، ويجلس إلى ضيوفه فى المساء، وعندما تحول الظروف بينه وبين استقبالهم فى المحطة، كان يرسل إليهم سيارة كبيرة لاستقبالهم، ويرسل مع السائق مفتاح القبو الذى يضم كميات كبيرة من الخمر المعتقة، فإذا ما ذهب فى المساء للقائهم، وجدهم فى أحسن حالة مزاجية!.

لقد صار هـ. ج.ويلز من أغلى المؤلفين أجراً فى العالم، واقتنى من قلمه ثروة طائلة، ولم تبطره هذه الثروة، بل فجرت فيه كل المعانى والقيم الإنسانية، وزادته حماسا وإقبالا على العمل والإنتاج، وتمثلت أروع كتاباته فى القصص العلمية، أما الكتاب الذى أكسبه شهرة ومجدا فهو كتاب (خلاصة التاريخ) الذى أبدى فيه

موهبة فذة فى الجمع بين الفائدة العلمية والروح الشعبية.

وقد توفى هـ. ج.ويلز فى ١٣ أغسطس عام ١٩٤٦ م، مخلفا ثروة الفكر الرفيع المشرق، والإنتاج الخصب الذى قل أن تخلو منه مكتبة.. ولونا خاصا متميزا من الأدب الممزوج بالعلم، والذى سبق به عصره.. بل وكان أيضا نبوءة ذكية وصادقة لعصر التكنولو جيا الذى نعيشه الآن.



يوربيديس

٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م

أول شاعر مسرحى تراجيدى

يعتبر يوربيديس أول شاعر مسرحى تراجيدى صور الحياة وما يجرى فيها من أحداث تصويرا واقعيا، كما صور شخصيات مسرحياته كما هى لا كما ينبغى أن تكون وهذا ما يميزه عن زميليه أيسخسلوس وسوفوكليس اللذين صورا الشخصيات تصويرا ساميا بعيداً عن الواقع. وهذا التباين يرجع فى الواقع إلى الظروف التى أحاطت بكل منهم: فايسخسلوس كان يمثل عقلية المحاربين القدماء المتدينين الذين انتصروا على الفرس فى ماراثون وسلاميس بفضل آلهتهم وسوفوكليس كان يمثل عصر بيركليس الذهبى وهو وسط بين القديم والحديث. أما يوربيديس فهو شاعر أثينا الحديثة، أثينا التى أصبحت المركز الأول للمدنية والعلم والفلسفة أثينا التى أصبحت حدائقها وميادينها مسرحا للمساجلات الخطابية والمناقشات العلمية والفلسفية بين شبابها الذى أصبح مولعا بدراسة الخطابة والبلاغة والفلسفة.

تحدثنا الروايات العامة المشهورة عنه أن يوربيديس قد ولد فى سالامينا فى سنة ٤٨٠ ق. م فى اليوم الذى كان فيه لهيب معركتها يحتدم وتنبئنا رواية أخرى بأنه ولد فى سنة ٤٨٥ ق. م.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن والده كان صاحب حانة وأن والدته كانت تاجرة خضر وزعم البعض الآخر بأنه كان من أسرة عريقة.

ولكن النقاد المحدثين يؤكدون أنه لم يبد فى حياته ما يدل على أنه كان من طبقة أرستقراطية أو متوسطة الحال كما بدا ذلك فى جلاء على ايسخيلوس

وسوفوكليس وهذا يدفعهم إلى ترجيح الرأى الأول أما نحن فنفضل أن نحتفظ برأينا إلى أن ننتزعه من إنتاجه نفسه ومن انعطافه بالمأساة نحو الغاية التى هيأته لها الوراثة والبيئة.

ومهما يكن من الأمر فإن إجماع الباحثين الأساسيين منعقد على أن مؤلفاته توشك أن تكون خالية خلوا تاما من التقاليد القديمة التى هى طابع الأسر النبيلة.

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى سنة مولده وفى طبقة والديه الاجتماعية فأحرى بهم ألا يعرفوا شيئا ذا بال عن نشأته وطليعة شبابه ونوع ثقافته. ولهذا ظل العالم الحديث يجهل تلك النواحى جهلا يوشك أن يكون تاما وكل ما يعرفونه عنه هو أنه بدأ فى سنة ٤٥٥ ق.م - وكانت سنه خمسا وعشرين سنة - بتقديم أولى مآسيه فى إحدى المسابقات فنال فيها الجائزة الثالثة ومنذ ذلك الحين أخذ يبذل مجهودا متواصلا فى التأليف المسرحى. ولما لم يكن محبوبا من الأثينيين فإنه لم يفز بالأولوية إلا بعد أربعة عشر عاما انقضت كلها بين الرفض والخذلان والدرجة الدنيا وبعد هذه السنين الطويلة جعل الحظ يبتسم له قليلاً فظفر بالأولوية أربع مرات فى حياته وفازت بها إحدى مآسيه بعد موته وأنت ترى أن هذا نصيب ضئيل من النجاح إذا قيس بنصيب سوفوكليس ولكن هذا هو الذى كان.

كان هذا الإخفاق المتواصل الذى رافق شاعرنا ذلك الزمن كله يمكن أن يحدث فى نفسه أثرا سيئا يدفعه إلى اليأس من المسرح ويحمله على البحث عن مهنة أخرى ولكن الأمر كان على عكس ذلك فظل وفيا لفنه عاكفا عليه رغم تجهمه له ولم يشأ أن يساهم فى الوظائف العامة كما كان كثير من أمثاله يفعلون ذلك فى سهولة ويسر. وليس معنى هذا أنه كان لا يأبه لشئون مدينته أو يحتقر المصلحة الوطنية الكبرى فمآسيه مفعمة بهذه الجوانب كلها، وإنما قد شاء ألا يعالج هذه النواحى إلا عن طريق فنه وإنتاجه فطفق يصوب إليها سهام نقده وأشعة بيانه ويفيض عليها من إلهام خياله ووحى شعره وبراعته فى التصوير ودقته فى التحليل حتى رسمها مجسمة أمام أعين الجماهير.

وأخيرا وبعد هذه الحياة العابسة المنقبضة غادر أثينا - على أثر مأساة أوريستيس فى سنة ٤٠٨ ق. م - إلى مدينة بيلا حيث استقبله ارخيلاءوس ملك

مقدونيا فى بلاطه استقبالا حافلا وأكرم وفادته أيما إكرام وقد ظل هناك حتى توفى فى سنة ٤٠٦ ق. م وكانت سنه خمسا وسبعين سنة ويرجع بعض المؤرخين أن وفاته كانت بحادثة ثم دفن فى وادى اريثوزا بمقدونيا . وقد أقامت له أثينا هيكل قبر نقشت عليه أبياتا تشهد بموهبته ومجده وقد أعقب ثلاثة أبناء كان أصغرهم سنا - اسمه كاسم والده - شاعرا وهو الذى قدم إلى التمثيل مأساة والده بعد وفاته.

عزا القدماء - وعلى رأسهم سويداس - إلى يوربيديس اثنتين وتسعين مسرحية بين مأساة وفاجعة ولكن يبدو أن عددا قليلا منها قد فقد فى العصر الذى تلا عصر الشاعر مباشرة وأن عددا آخر فقد بعد ذلك ومنها بضع مآس قد ارتاب النقاد فى صحة نسبتها إليه.

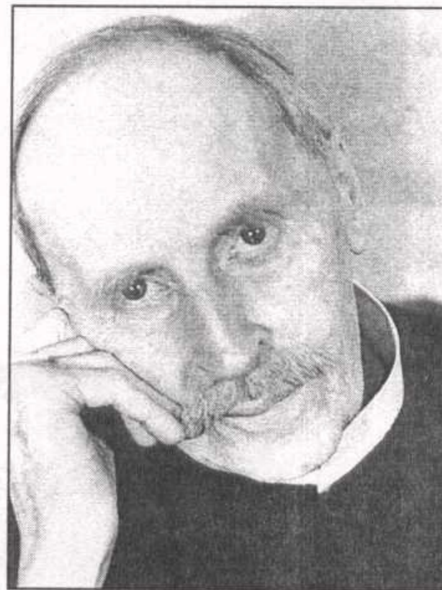
ولم يبق من هذا العدد الضخم الذى أنشأه يوربيديس إلا سبع عشرة مأساة وفاجعة ساتيروسية واحدة ولم يعرف إلا تواريخ ظهور سبع منها، وأما العشر الأخيرات فلا يدرى أحد متى مثلت على سبيل الترجيح وها هى حسب الترتيب الزمنى يقينا كان أو ترجيحا:

(الكيستيس). (ميديا). (هيبوليتوس). (الترواديات). (هيلينية). (لوريستيس). (ايفيجينيافى أوليس). (الباكوسيات). (اندروماخيه). (الهيراكليسيون). (هيكوبيه). (الضارعات). (ايليكترا). (هيراكليس مخبولا). (ايفجينيا فى توريس). (يون). (الفينيقيات).





ملف الصور



رومان رولان



الآن رينيه لساج



أميل زولا



سافو



أدموند سبنسر



مدام دى ستال



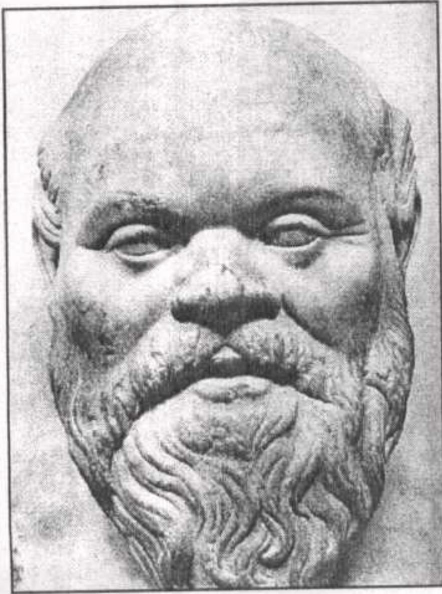
ستندال



هاربيت بيتشر ستو



سرفنتس



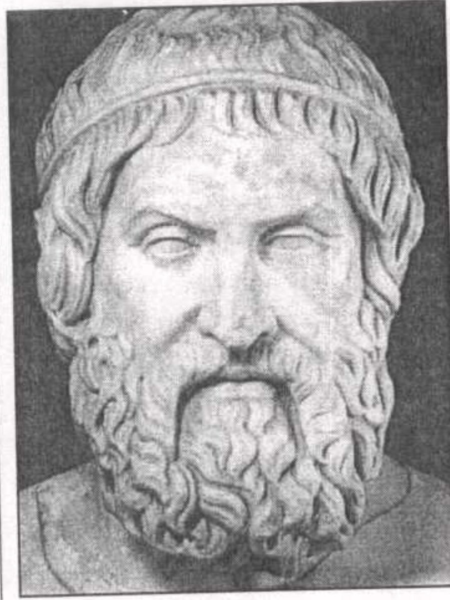
سقراط



والترسكوت



آدم سميث



سوفوكليس



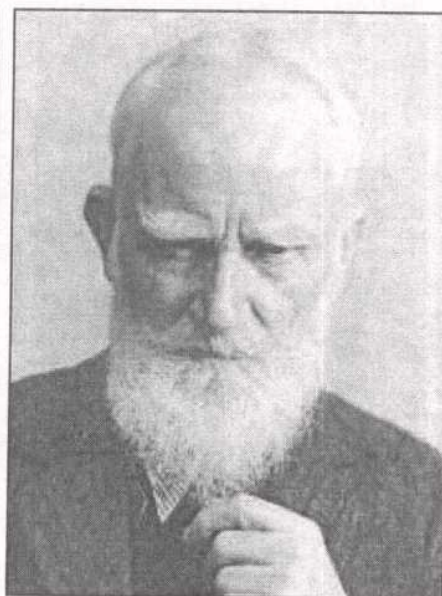
سويفت



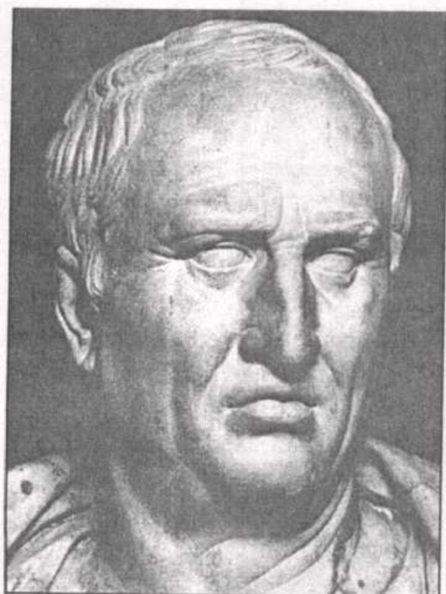
شاتوبريان



وليم شكسبير



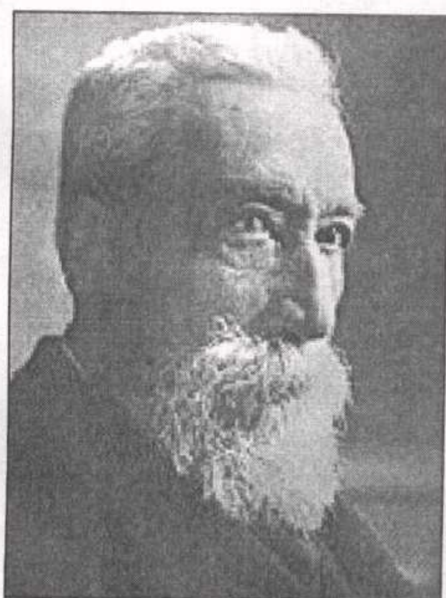
برناردو شو



شيشرون



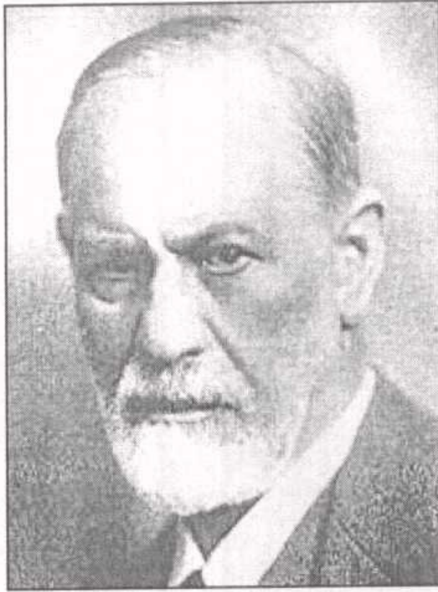
شيلر



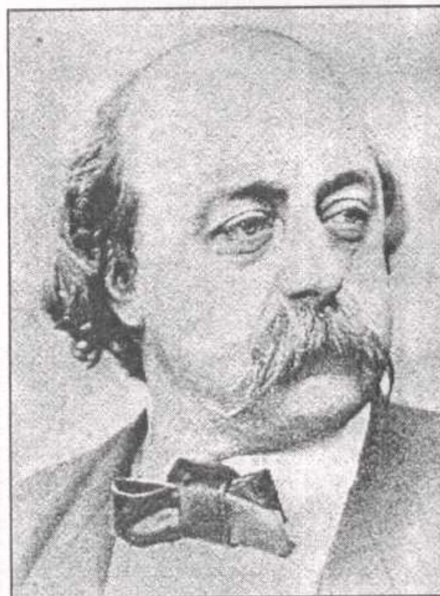
أناتول فرانس



فرجيل



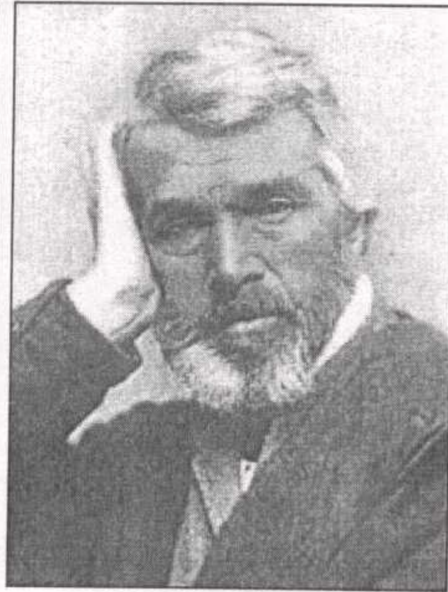
سيجموند فرويد



فلوبير



فولتير



توماس كارليل



كانط



أجاثا كريستي



كوبرنيكوس



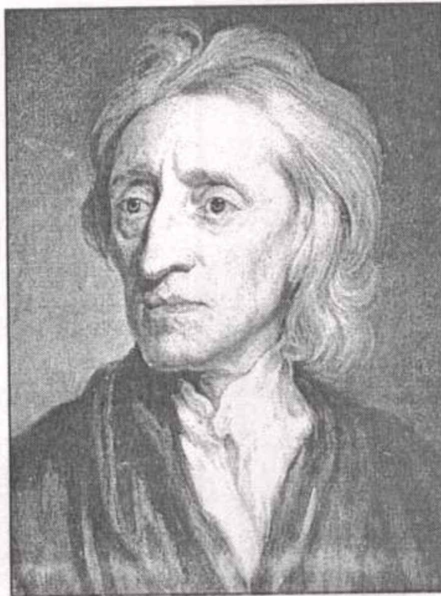
فرانسوا كوبيه



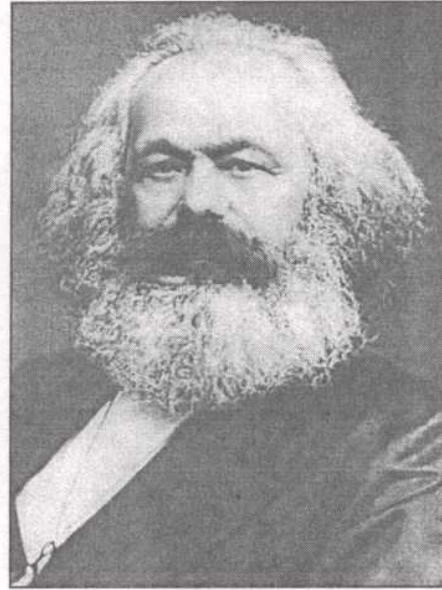
لافونتين



الفونس مارى لامارتين



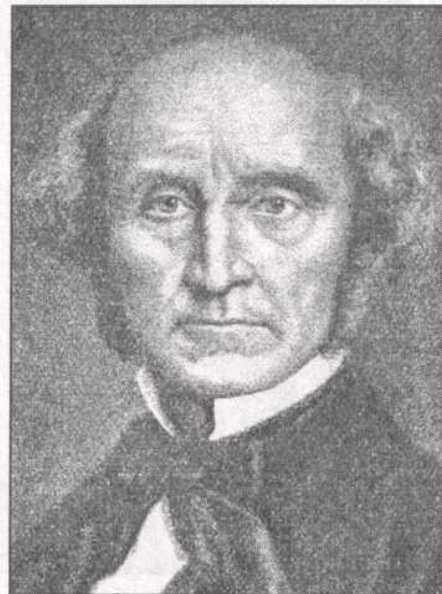
جون لوك



كارل ماركس



أندريه مالرو



جون ستيوات مل



جون ملتون


جی دی موپاسان


مولییر


مونتسیکیو

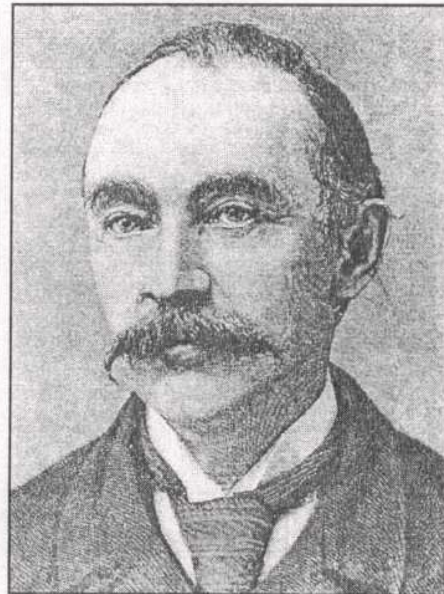

اونریه میرابو



ميكافيللى



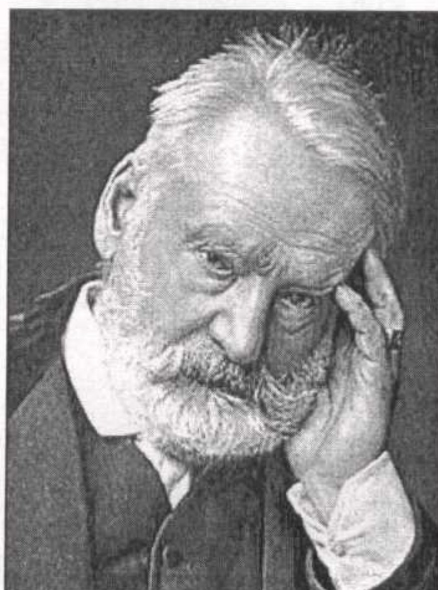
أسحق نيوتن



توماس هاردى



وليم هارفى



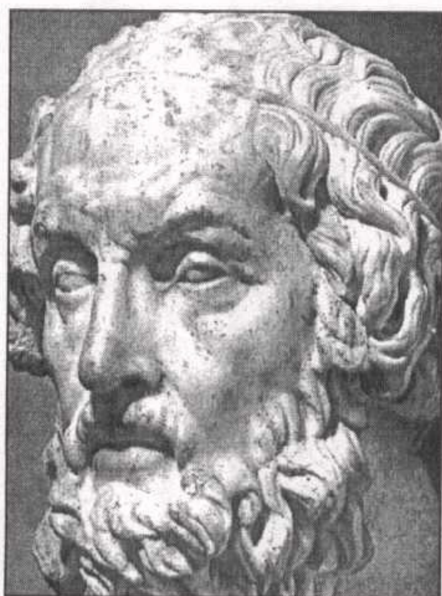
فيكتور هيجو



ناثانيال هورثون

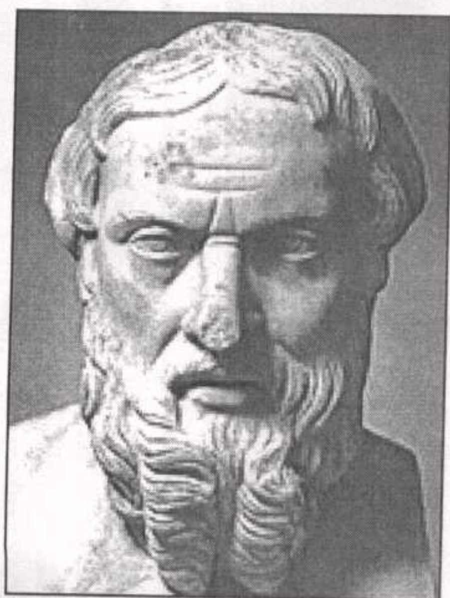


هومبولت



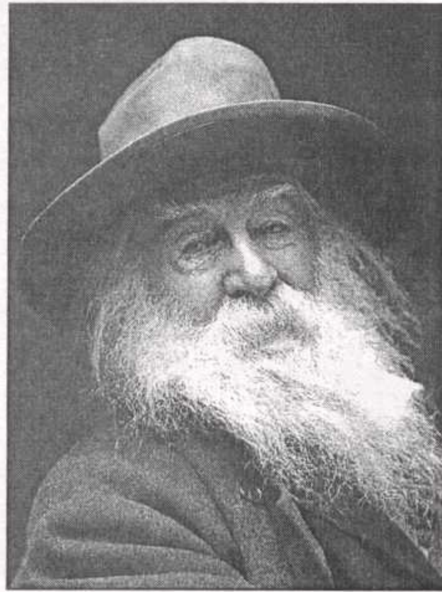
هوميروس


هيجل

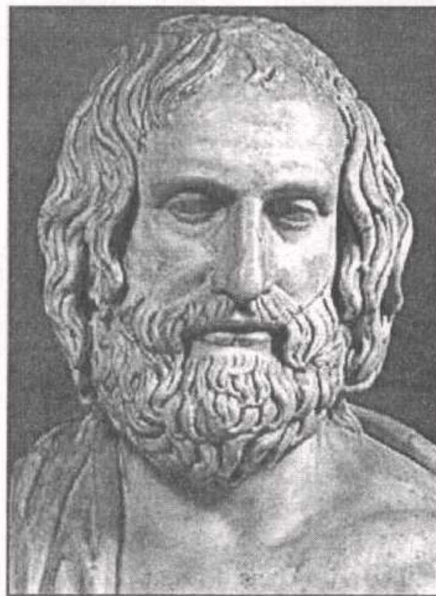

هيرودوت


أرنست هيمنجوان


ادجار والاس


وولت ويتمان


هربرت جورج ويلز


يوربيدس

الفهــرس

دار القبس
٣٦٤٠٨٣٥ (+٢٠٢)
٥٧٤٣٣١٤ (+٢٠٢)